الكتاب الثالث

مأساة الموريسكيين

أو العرب المتنصرين

٨٩٧ — ١٠١٨ هـ : ١٤٩٢ — ١٦٠٩ م

obeikandl.com

الفصل الأول

بدء التحول فى حيـــاة المغلوب

نقص الروايات العربية عن المـأساة الأندلسية • علة هذا النقص • اهتمام الرواية الأسبانية بالافاضة فيها • بداية عصر الاستعباد • السياسة الأسبانية ومصير المسلمين • اتجاه ملكى اسبانيا الى النكث • تعليق النقد الحديث • بدء الاضطهـاد • تحوير المعاهدة • كمنيس يحاول تنصير المسلمين • احراق الكتب العربيـة • الروايات الاسـلامية عن مأساة التنصير • صـدى المحنة فى مصر • أمة الموريسكيين أو العرب المتنصرين • قرار مجلس الدولة • الثـورة فى بعض النواحى • التنصير المغصوب • نشاط فرديناند وايزابيلا • استغاثة المسلمين بملك مصر • سفارة ملك مصر الى فرديناند وسفارة فرديناند اليه • الثورة فى فيلا لونجا وهزيمة الاسبان • جنوح فرديناند الى اللين • الرواية الاسلامية عن هذه الحوادث • الزام المسلمين والمتنصرين بالسكنى فى أحياء خاصة • تحريم احرار السلاح عليهم •

لم يكن ظفر اسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة ، وسحق دولة الإسلام فى الأندلس ، سوى بداية النهاية فى مصير الأمة الأندلسية ؛ ولم يكن فقد السيادة القومية ، وفقد الإستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والإضطهاد الدينى والاجتماعى ، وهى المحن التى تنزل عادة بالأمم المغلوبة ، سوى لمحة يسيرة مما كتب على الأمـة الأندلسية أن تعانيه على يد اسبانيا النصرانية . أجل كان مصير مسلمى الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال مملكتهم ، من أروع ماعرفت الأمم الكريمة المغلوبة ، وكان مأساة من أبلغ مآسى التاريخ .

تلك هى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . ومن الأسف أن الرواية الإسلامية لم تخص تاريخ الأمة الأندلسية بعد سقوط غرناطة بكثير من عنايتها ، ولم ينته إلينا عن تلك المأساة سوى رسائل وشذور يسيرة ، بل لم ينته إلينا سوى القليل عن مراحل التاريخ الأندلسى الأخيرة قبل سقوط غرناطة ، ولا توجد لدينا عن تلك المرحلة سوى رواية إسلامية واحدة هى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء

دولة بنى نصر » الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة . والذى كتبه فى سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٠م) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة . كاتب مجهول ربما كان من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها ، وأرغموا على التنصر . ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين فى روحهم وسريرتهم . وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ما كتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة . ولم تصل الينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة ، سوى رسائل وشذور وقصائد نقلها إلينا المقرى مؤرخ الأندلس فى مؤلفه « أزهار الرياض » . ومعظمها مما كتبه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص فى الرواية الإسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أنه فى عصور الإنحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والفكرية ، وتقل العناية بالتدوين التاريخى ، كما يقل فى جميع نواحى التفكير والأدب . وأن نظام الطغيان المطبق والاضطهاد المروع ، الذى فرض على العرب المتنصرين ، كان كفيلا باخماد كل صوت وتحطيم كل قلم ؛ والثانى وهو ما نرجحه هو فقد معظم الكتب والوثائق العربية التى وضعت فى هذا الوقت ، والتى استطاع المقرى أن ينقل إلينا شذوراً منها ، مما يدل على أن بعضها كان موجوداً حتى عصره أعنى فى القرن السابع عشر . ومن الغريب أن صاحب « أخبار العصر » لم يقدم إلينا عن مأساة العرب المتنصرين سوى نبذة يسيرة ، مع أنه عاصر معظم حوادثها ، وشهدها على الأغلب . ولسنا نجد مانفسر به هذا الصمت من جانب الرواية الإسلامية الوحيدة ، التى انتهت إلينا عن سقوط غرناطة ، وما تلاه من الحوادث والخطوب ، إلا نظام الإرهاب الشامل ، الذى سحق كل متنفس للشعب المغلوب .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية ، تشغل بالعكس فى تاريخ اسبانيا القومى حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن ونصف ، وتخصه الرواية الإسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الإسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والدينية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الإستشهاد المفجع ، الذى فرضته اسبانيا على العرب المتنصرين ، وإلى تلك الجرائم المروعة التى كانت ترتكبها محاكم التحقيق(١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية التى اتخذت لتشريد العرب المتنصرين وإبادتهم

---

(١) هى المعروفة خطأ « بمحاكم التفتيش » The Inquisition وسنعود إلى الكلام عليها .

بعين الكبرياء والرضى . وترى فيها دائماً نوعاً من الإنقاذ القومى ، وتطهيراً للدين والوطن من آثار الإسلام الأخيرة . وهى تحيط هذه المرحلة من تاريخ اسبانيا بكثير من القصص والأساطير الحماسية ، التى تشيد بظفر اسبانيا النصرانية . وبما أسبغته العناية الإلهية على خطتها وسياستها فى إبادة تراث الإسلام والعرب المتنصرين . وفى القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الإسلامية المجيدة ، التى ازدهرت فى اسبانيا زهاء ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها ، وكل ذلك التراث الباهر .

على أن الرواية الإسبانية بالرغم من تأثرها العميق بالعوامل القومية والدينية . تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير فى أسلوب مؤثر . وقد لاتضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها ، وأحياناً باعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة ، التى لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها ، وعن تراثها القومى والروحى .

— ٢ —

لبثت السياسة الإسبانية بعد سقوط غرناطة ، وبعد أن حققت اسبانيا النصرانية بالقضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، أعظم أمانيها القومية ، مدى حين تلتزم جانب الروية والاعتدال .

ولما غادر فرديناند وإيزابيلا غرناطة بعد دخولها ، أوصيا حاكمها الجديد الكونت تنديلا (المركيز دى مونتخار فيما بعد) بالرفق فى معاملة الرعايا الجدد ، والعمل على التقريب بين العناصر . وكان من أثر ذلك فى البداية أن رغب الكثيرون فى البقاء ، واشتروا الرباع العظيمة من الراحلين بأبخس الأثمان (١) . واتخذت الأمة من جهة أخرى لنقل المسلمين الراغبين فى الهجرة إلى المغرب ، وهاجر كثير من أشراف غرناطة ، وفى مقدمتهم بنو سراج وغيرهم من أنجاد غرناطة القدماء ، وأقفرت مناطق بأسرها من أعيان المسلمين ، ولا سيما منطقة البشرات . وكان تدفق سيل المهاجرين دليلا على أن الشعب المغلوب ، لم يكن واثقاً فى ولاء سادته الجدد (٢) . وهكذا أبدى فرديناند وإيزابيلا فى الأعوام الأولى رفقاً ولينا فى معاملة المسلمين ، ولاح وهى حين أن اسبانيا النصرانية تنوى أن تحافظ على العهود التى قطعت ،

---

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٧ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos of Spain; p. 23

وعاش المسلمون بضعة أعوام فى نوع من السكينة والاطمئنان ...

ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشى دائماً ذلك الشعب الذكى النابه ، وكانت الكنيسة تجيش دائماً بنزعتها الصليبية القديمة ، وتضطرم رغبة فى القضاء على البقية الباقية من الأمة الإسلامية فى اسبانيا ؛ وكانت غرناطة ما تزال تضم كتلة مسلمة كبيرة ، تربطها بثغور المغرب صلات وثيقة ، وكان وجود هذه الكتلة المسلمة فى قلب اسبانيا النصرانية ، شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية .

والظاهر أن السياسة الإسبانية ، لبثت مدى حين مترددة فى انتهاج المسلك الذى تسلكه إزاء المسلمين ، وقد كانوا من أهم عوامل النشاط والرخاء والعرفان فى اسبانيا ، وكانت براعتهم قدوة فى الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وخلالهم قدوة فى النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق ، وكانوا على الجملة من أفضل العناصر الذين يمكن أن تضمهم دولة متمدنة (١) . ولكن الكنيسة كانت تضطرم حماسة فى سبيل تحقيق مُثلها ، ولم تكن السياسة الإسبانية فى تلك الفترة من تاريخ اسبانيا سوى أداة لينة فى يد الكنيسة ، التى بلغت عندئذ ذروة قوتها ونفوذها .

ولم تكن هذه السياسة فى الواقع بعيدة عما يخالج ملكى اسبانيا ، فرديناند الخامس وزوجه الملكة المتعصبة إيزابيلا الكاثوليكية ، من شعور نحو المسلمين ، ولم تكن العهود التى قطعت للمسلمين بتأمينهم فى أنفسهم وأموالهم ، واحترام دينهم وشعائرهم ، لتحول دون تحقيق أغراض السياسة القومية . ذلك أن فرديناند لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلا لتحقيق مآربه ، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ، ولكنه لم يعتبر نفسه قط ملزماً بعهود يقطعها متى أصبحت تعارض سياسته وغاياته .

ويعلق النقد الغربى الحديث على ذلك بقوله : « ولو نفذت هذه العهود (العهود التى قطعت لمسلمى غرناطة) بولاء لتغير مستقبل اسبانيا كل التغيير ، ولجمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس ، ولغاض الإسلام مع الزمن ، ولتفوقت المملكة الإسبانية فى فنون الحرب والسلم ، وتوطدت قوتها ورخاؤها . ولكن ذلك كان غريباً على روح العصر الذى انقضى ، وأفضى التعصب والجشع إلى المطاردة والظلم ، وأنزلت الكبرياء القشتالية

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos; p. 7

بالمغلوبين ذلة مروعة . فاتسعت الهوة بين الأجناس على كر الزمن . حتى استعصى الموقف ، وأدى إلى علاج كان من جرائه أن تحطم رخاء اسبانيا » (١).

وأخذت سياسة الإرهاق تجرف فى طريقها كل شىء ، ونشط ديوان التحقيق ، (Inquisition) أو الديوان المقدس ، يدعمه وحى الكنيسة وتأييد العرش ، إلى مزاولة قضائه المدمر . وكانت مهمة هذه المحاكم الكنسية المروعة أن تعمل على حماية الدين (الكثلكة) ، ومطاردة الكفر والزيغ بكل ما وسعت ، وكان جل ضحاياها فى البداية من اليهود والمسلمين ، ثم الموريسكيين أو العرب المتنصرين . وسنعرض فى فصل خاص إلى تاريخ هذه المحاكم واجراءاتها ووسائلها ، التى تنافى كل عدالة وكل قضاء متمدن .

وهكذا فانه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة ، حتى بدت نيات السياسة الإسبانية واضحة نحو المسلمين . وكانت الكنيسة تحاول خلال ذلك أن تعمل لتحقيق غايتها أعنى تنصير المسلمين بالوعظ والإقناع ، ومختلف وسائل التأثير المادية ، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر ، فجنحت الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة ، وأذعنت السياسة الإسبانية لوحى الكنيسة ، ولم تذكر ماقطعت من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم ؛ وكان روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران ، هما الكردينال كمنيس مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الإسبانية ، والدون دييجو ديزا « المحقق العام » لديوان التحقيق (٢) .

وحاولت السياسة الإسبانية من جانبها أن تسبغ على هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة ، فأخذت فى تحوير العهود والنصوص التى تضمنتها معاهدة التسليم ، وتعديلها وتفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصاً فنصاً ، واستلاب الحقوق والضمانات الممنوحة تباعا ، فأغلقت المساجد ، وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم(٣) . وأدرك المسلمون ماترمى إليه السياسة الكنسية من محو دينهم ولغتهم وشخصيتهم ، ودوت فى آذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوءة الصادقة ، التى ألقاها إليهم فارس غرناطة يوم اعتزموا التسليم للعدو

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos, p. 22

(٢) كان المحقق العام General Inquisitor وهو قاضى قضاة الديوان ، يمثل يومئذ أعظم السلطات الدينية والقضائية فى اسبانيا .

(٣) أخبار العصر ص ٤٥ .

« أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم ، وأن يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ماله من حسن الطالع ؟ لشد ما تخطئون . إنهم جميعاً ظمئون إلى دمنا ، والموت خير ما تلقون منهم ، إن ما ينتظركم شر الإهانات ، والانتهاك والرق ؛ ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم ، وتدنيس مساجدكم ، تنتظركم المحارق الملتهبة ، لتجعل منكم حطاماً هشيما » .

وفى سنة ١٤٩٩ (٩٠٥هـ) ذهب الكردينال كمنيس إلى غرناطة ، وحث مطرانها الدون تالاڤيرا على اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية ، وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة ، واستعمل الوعد والوعيد والبذل والإرغام فى تنصير بعض أعيان المسلمين ، وكان من هؤلاء آل الثغرى الذين اشتهروا فى الدفاع عن غرناطة ، وقد نصر عميدهم قسرا وسمى باسم « جونزالفو فرناندیز ثجرى » . بل تقول الرواية الإسبانية إنه قد تنصر أيضاً أخ للسلطان أبى عبدالله ، وتسمى باسم الدوق خوان دى جرانادا (أى صاحب غرناطة) وخدم قائداً فى الجيش القشتالى ، واشتهر بغيرته فى خدمة العرش[1] . واحتج بعض أكابر المسلمين على هذه الوسائل ، ولكن ذهب احتجاجهم وتمسكهم بالعهود المقطوعة سدى ؛ وزاد كمنيس على ذلك فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ، ونظمت أكداساً فى أكبر ساحات المدينة ، وكان فيها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكثير من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت النار فيها جميعاً ، ولم يستثن سوى ثلاثمائة من كتب الطب وهبت لجامعة الكالا ، وذهب ضحية هذا الإجراء الشائن عشرات ألوف من الكتب العربية ، هى خلاصة ما بقى من تراث التفكير الإسلامى فى الأندلس[2] .

---

(١) كان للسلطان أبى عبد الله أخ شقيق هو يوسف فهل هو الذى تعنيه الرواية النصرانية ؟ بيد أننا نرجح إذا صحت الرواية الإسبانية أن الذى تنصر هو أحد أخوته لأب وهم أولاد حظية أبيه ثريا النصرانية . راجع : Lea : The Moriscos p. 31 & 214

(٢) يختلف المؤرخون الإسبان فى تقدير عدد الكتب العربية التى ذهبت ضحية هذا الاجراء فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون كتاب ، والبعض الآخر بخمسة آلاف فقط . ويقدرها كوندى بثمانين ألفا ، وربما كان تقديره أقرب إلى المعقول راجع Prescott : Ferd. and Isabella p. 451-53 & notes

ولم تقدم الرواية الإسلامية المعاصرة إلينا كثيراً من التفاصيل عن هذه الحوادث . ولكنها تكتفى بأن تجمل مأساة تنصير المسلمين فى هذه الكلمات المؤثرة :

« ثم بعد ذلك دعاهم (أى ملك قشتالة) إلى التنصير ، وأكرههم عليه وذلك فى سنة أربع وتسعمائة ، فدخلوا فى دينهم كرهاً ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » إلا من يقولها فى قلبه ، وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الأذان . وفى مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل ناراً ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات . فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ، ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ؛ فيالها من فجيعة ما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها ، وطامة ما أكبرها » . ثم يختتم بقوله : « وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا » (١) .

ونقل إلينا المقرى نبذة من رسالة أخرى يشير كاتبها إلى تنصير مسلمى الأندلس فيما يلى :

« وتعرفنا من غير طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قطر الأندلس طرق أهله خطب لم يجد فى سالف الدهر . وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضى فى الظاهر الكفر ، ولم يقبل منهم الأسر . وكان الابتداء فى ذلك من أهل غرناطة ، وخصوصاً أهل واسطتها لقلة الناس ، وكونهم من الرعية الدهماء ، مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس ، وعلم النصارى بأن من بقى بها من المسلمين إنما هم أسارى فى أيديهم ، وعيال عليهم ، وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل ، وعتوا فيهم بالخروج والجلاء ، فلم يبق من المسلمين طائل ، ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده ، ونشر بمحض الغدر بنوده . . . . . الخ » (٢) .

---

(١) أخبار العصر ص ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ .

وجاء فى رواية أخرى هـذا الوصف لمأساة التنصير : « إن طاغيـة قشتالة وأرغون صـدم غرناطة صدمة ، وأكره على الكفر من بقى بهـا من الأمة ، بعد أن هيض جناحهم ، وركدت رياحهم ، وجعل بعد جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهى فى الكفر ويختال ، ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس معالمه ورسومه ؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه ؛ لكان كل مسلم يندبه ويبكيه ، فقد عبث البلاء برسومه ، وعفى على أقماره ونجومه ؛ ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام ، وتوعد بالنكال والمهالك العظام ، ومن كان يعذب فى الله بأنواع العذاب ، ويُدخل به من الشدة فى باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم مفظعه ، وسيوف النصارى إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة ، وأفواه الذاهلين محلولة ، وهم يقولون : ليس لأحـد بالتنصر إن يمطل ، ولا يلبث حيناً ولا يمهل ، وهم يكابدون تلك الأهوال ، ويطلبون لطف الله على كل حال » .

وقد تردد صدى هذه المحنة التى نزلت بمسلمى الأندلس بسرعة فى سائر جنبات العالم الإسلامى ، فنرى ابن إياس مؤرخ مصر ، وهو راوية معاصر ، يدون فى حوادث صفر سنة ٩٠٦هـ (أغسطس سنة ١٥٠٠م) أعنى عقب محنة التنصير بأشهر قلائل مايأتى : « وفيه جاءت الأخبار من المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف بالمسلمين ، وقالوا من دخل ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ثم ثار عليهم المسلمون ثانياً وانتصفوا عليهم بعض شىء ، واستمر الحرب ثائراً بينهم ، والأمر لله تعالى فى ذلك » (١) .

* * *

تلك هى المأساة التى استحالت فيها بقية الأمة الأندلسية بالتنصير المفروض ، إلى طائفة جديدة عرفت من ذلك التاريخ بالموريسكيين Moriscos ، أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين (٢) . وقد فرض التنصير على المسلمين فرضاً ، ولم تحجم

---

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) Moriscos هى تصغير كلمة Moors ومعناها المسلمون أو العرب الأصاغر ، رمزاً إلى ما انتهت إليه الأمة الاندلسية من السقوط والانحلال .

السلطات الكنسية والمدنية ، عن اتخاذ أشد وسائل العنف . ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف دون تذمر ودون مقاومة . وسرت إليهم أعراض الثورة ولا سيما فى المناطق الجبلية ، حيث كان مايزال ثمة قبس من الحماسة الدينية . وكانت السياسة الإسبانية تلتمس الوسيلة للتخلص نهائياً من العهود المقطوعة . فألفت فى التذمر والمقاومة سندها ، وقرر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة ، ولاسيما بعد ما تبين من جنوحهم إلى الثورة . ومحاولتهم الإتصال باخوانهم فى المغرب ومصر وقسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية . ونفى المخالفين منهم من الأراضى الإسبانية . وهكذا حاول مجلس الدولة أن يسبغ صفة الحق والعدالة على التنصير المغصوب ، وعلى كل ما يتخذ لتحقيقه من إجراءات العسف والإرهاق.

وقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة ، وسرعان ما سرت إليهم الحمية القديمة ، فأعلنوا الثورة فى معظم نواحى غرناطة ، وفى ربض البيازين وفى البشرات ، ولكنهم كانوا عزلا ، وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطأة فمزقتهم بلا رأفة ؛ وحمل التعلق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة ، كثيراً منهم على الإذعان والتسليم فقبلوا التنصير المغصوب ملاذاً للنجاة ؛ ولجأت الحكومة بعد إخماد الهياج فى غرناطة والبيازين إلى أساليب الرفق ، فبعثت بالعمال والقسس فى مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً فى اجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود ، وذاع التنصر فى غرناطة ووادى آش وبسطة وألمرية (١) .

ونشط فرديناند إلى إخماد الهياج . وفى الوقت الذى غدا فيه التنصير أمراً محتوما ، واضحى فرديناند يعتبر نفسه فى حل من عهوده المقطوعة للمسلمين ، تقدم إليه ديزا المحقق العام بوجوب إنشاء ديوان للتحقيق فى غرناطة ، يعاون على مطاردة الزيغ بوسائله الفعالة . فألفت لجنة ملكية للتحقيق فى حوادث غرناطة . وقبض على كثير من المسلمين بتهمة التحريض ، وهرع آلاف منهم إلى اعتناق النصرانية خيفة السجن والمطاردة . وعارض فرديناند وإيزابيلا فى إنشاء ديوان التحقيق فى غرناطة ذاتها ، واقترحا أن تحال شئونها إلى اختصاص ديوان التحقيق فى قرطبة ، وألا يقدم المسلمون أو الموريسكيون إلى الديوان إلا لتهم خطيرة . ولكن الكنيسة لم تقنع باتخاذ الإجراءات

---

(١) Prescott: ibid; p. 462

الجزئية ، ومضت تعمل لغايتها الشاملة . وكان فرديناند من جهة أخرى لايزال يتوجس من المسلمين شراً، ويرى فى منطق الكنيسة قوة ، وهو أن احتفاظ المسلمين بدينهم يقوى الروابط بينهم وبين إخوانهم فى إفريقية ، وأن اسبانيا ماتزال تضم بين جوانحها عدواً يخشى بأسه ، وأن فى تنصير المسلمين أو إخراجهم من اسبانيا، سلام اسبانيا ونقاد دينها .

وكانت الكلمة للكنيسة دائماً .ففى ٢٠ يوليه سنة ١٥٠١ أصدر فرديناند وإيزابيلا أمراً ملكياً خلاصته « أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة » فانه يحظر وجود المسلمين فيها ، فاذا كان بها بعضهم فانه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم ، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصروا لئلا يفسدوا إيمانهم ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال .

وحاول المسلمون فى يأسهم أن يلجأوا إلى معاونة سلطان مصر ، فأرسلوا إليه يصفون إكراههم على التنصر ، ويطلبون إليه أن ينذر ملك اسبانيا بأنه سوف ينكل بالنصارى المقيمين فى مملكته ، إذا لم يكف عنهم ، فنزل سلطان مصر عند هذه الرغبة ، وأرسل إلى فرديناند يخطره بما تقدم ؛ فرد فرديناند بأن أوفد إلى بلاط القاهرة سفيراً هو بيترو مارتيرى وهو من أعلام الكتاب والمؤرخين فى ذلك العصر . ووفد مارتيرى على القاهرة فى أواسط سنة ١٥٠١ ، وكان ملك مصر يومئذ السلطان الأشرف جان بلاط ، فأدى مارتيرى سفارته ببراعة ، واستطاع أن يقنع السلطان بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه على مصيرهم ، وقدم إلى السلطان شهادات من حكام المغرب ، تفيد أن كل المسلمين الذين آثروا الهجرة ، قد نقلوا سالمين إلى ثغور المغرب ، وأحسنت معاملتهم ؛ واستطاع مارتيرى فوق ذلك بذلاقته وكياسته ، أن يقنع السلطان بأن يعفى الحاج النصارى ، من طائفة من المغارم والفروض (١) .

وهكذا خبت آمال المسلمين تباعاً ، ولم تصمد الثورة إلا فى المنطقة الجبلية

---

(١) بيترو مارتيرى إيطالى ولد سنة ١٤٥٥ وتوفى سنة ١٥٢٥ ، وكان حبرا وكاتبا كبيراً ، شهد حروب غرناطة الأخيرة إلى جانب فرديناند ، وكتب عن سفارته إلى مصر كتابا . وله مؤلفات أخرى عن تاريخ اسبانيا فى ذلك العصر ؛ راجع : Prescott : ibid ; p. 287 ؛ وكذلك Dr Lea : The Moriscos p. 36

الواقعة بين آكام ڤيلا لونجا وسيرا ڤرميا بجوار رندة ، حيث احتشدت بعض البطون المغربية . وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا شعب الجبال ، وأن يفتكوا بعمال الحكومة وجندها . وسير فرديناند إلى تلك المنطقة حملة قوية تحت إمرة قائده الشهير الفونسو دى آجيلار دوق قرطبة ، فتبعهم الجند الإسبان هنالك فى شعب ڤيلا لونجا . ووقعت الواقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، فهزم النصارى هزيمة فادحة وقتل منهم عدد جم ، وكان قائدهم دى آجيلار وعدة آخرون من السادة الأكابر ، فى مقدمة القتلى (مارس سنة ١٥٠١) .

فكان لهذه النكبة التى نزلت بالجنود الإسبان وقوادهم ، أعمق وقع فى البلاط الإسبانى . ورأى فرديناند بالرغم مما كان يحدوه من عوامل السخط والانتقام ، أن يجنح إلى اللين والمسالمة ، فأعلن العفو عن الثوار بشرط أن يعتنقوا النصرانية فى ظرف ثلاثة أشهر . أو يغادروا اسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فآثر معظمهم النفى والجواز إلى إفريقية ، وهاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الإسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة لرحيلهم (١) . إذ كانوا أشد العناصر مراساً وأكثرها نزوعاً إلى الثورة . واستقر الباقون وهم الكثرة الغالبة من المسلمين فى البلاد خاضعين مستسلمين ، وقد وصفهم يومئذ بعض أحبار الكنيسة بقوله : إنهم شعب متين الخلق ، أشراف فى معاملاتهم ، ليس بينهم عاطل ، يعطفون أشد العطف على فقرائهم (٢) .

ولم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إلى هذه الصفحة الأخيرة من جهاد المسلمين الباسل فى سبيل دينهم ، فقد نقل إلينا المقرى عنها ما يأتى :

« وبالجملة فانهم (أى أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصر ، واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرها ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبياً إلا ما كان من جبل بلنقة (أى ڤيلالونجا) فان الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان

---

(١) Prescott: ibid; p. 467

(٢) Dr. Lea: The Moriscos; p. 213

إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصير من المسلمين ، يعبد الله خفية ويصلى ، فشدد عليهم النصارى فى البحث ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة ، فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مراراً ، ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً » (١) .

ومضت السياسة الإسبانية فى اضطهادها المسلمين والموريسكيين بمختلف الفروض والوسائل . وكان من الإجراءات الشاذة التى اتخذت فى هذا السبيل ، تشريع أصدره فرديناند بالزام المسلمين والموريسكيين فى المدن ، بالسكنى فى أحياء خاصة بهم ، على نحو ما كان متبعاً ضد اليهود فى العصور الوسطى ؛ ونفذ هذا التشريع فى غرناطة عقب حركة التنصير الشامل ، وأفرد بها للمسلمين والمتنصرين حيّان ، أحدهما يضم نحو خمسمائة منزل وهو الحى الصغير وهو داخل المدينة ، والثانى يضم نحو خمسة آلاف منزل ، ويشمل ضاحية البيازين . وكانت الأحياء التى يشغلها المسلمون أو المتنصرون فى المدن الأندلسية تسمى « موريريا » Moreria أو أحياء الموريسكيين ، على نحو ما كانت أحياء اليهود الخاصة تسمى « الجيتو » Ghetto . وكانت تفصل بينها وبين أحياء النصارى أسوار كبيرة ، وكان عدد المسلمين الذين بقوا فى غرناطة يبلغ فى ذلك الحين نحو أربعين الفاً (٢) .

وصدر فى نفس الوقت فى سبتمبر سنة ١٥٠١ قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح علناً أو سراً ، وينص على معاقبة المخالفين لأول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم بالموت بعد ذلك ، وهو قانون تكرر صدوره بعد ذلك غير مرة فى ظروف وعصور مختلفة ، وكان يطبق بصرامة بالأخص كلما حدث من الموريسكيين هياج أو مقاومة مسلحة تخشى عواقبها .

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ . وراجع أخبار العصر ص ٥٥ .

(٢) Dr. Lea: The Moriscos; p. 31, 151 & 152

الفصل الثاني

ديوان التحقيق الإسبانى
ومهمته فى إبادة الأمة الأندلسية

أصل الفكرة فى محاكم التحقيق الأولى • اجراءاتها وعقوباتها • التوسع فى اختصاصاتها • قيام محاكم التحقيق فى اراجون • النزعة الصليبية فى اسبانيا • مطاردة اليهود المتنصرين • محاولة البابويه اقامة الديوان فى قشتالة • معارضة فرد يناند وايزابيلا • مساعي الاحبار والقس تركويمادا • موافقة فرد يناند وايزابيلا • صدور المرسوم البابوى بانشاء ديوان التحقيق فى قشتالة • قيام ديوان التحقيق الاسبانى • بداية نشاطه فى اشبيليه ، اتساع نطاق أعماله • انشاء المجلس الأعلى أو السوبريما • المحقق العام • جهود تركويمادا فى تنظيم الديوان • اجراءات ديوان التحقيق • التبليغ وطرقه وآثاره • الأحبار المقررون • القبض على المتهم • سجون الديوان • المحاكمة واجراءاتها • الاحالة على التعذيب • أحكام التعذيب • تعليق الدون لورنتى • أنواع التعذيب واجراءاته • الاستجواب • الدفاع والمرافعات • الأحكام • تنفيذ العقوبة • حكم الاعدام • الأوتودافى • محاكمة الغائبين والمتوفين • أثر الأحكام • بطش الديوان وحصانة المحققين • موقف العرش • كمنيس وجهوده فى اصلاح الديوان • شارل الخامس • موقفه من الديوان • بدء مطاردة المدجنين والموريسكيين • مهمة محاكم التحقيق • فكرة القضاء على الأمة الأندلسية • ديوان التحقيق يضطلع بهذه المهمة • اضطهاد الموريسكيين وريب الكنيسة فى اخلاصهم • السياسة الاسبانية نحو الموريسكيين • الثورة فى البشرات • اجراءات القمع • ذرائع الاتهام • الشبهات الخطرة • الموريسكيون فى غرناطة وبلنسية • استغاثة الموريسكيين بالسلطان بايزيد الثانى • وثيقة عربية عن أحوالهم وآلامهم •

قام ديوان التحقيق (The Inquisition) فى مطاردة الموريسكيين بأعظم دور ، وترك فى مأساتهم أعمق الأثر ، ومن ثم فانه يجدر بنا أن نتحدث عن تاريخ هذه المحاكم الشهيرة ، ونظمها وأعمالها الرهيبة .

ويرجع قيام محاكم التحقيق إلى فكرة الرقابة القديمة على العقيدة ، والتحقق من سلامتها ونقائها . وقد ظهرت فكرة التحقيق فى أمر العقائد فى الكنيسة الرومانية فى عصر مبكر جداً ، وبدىء بتطبيقها منذ أوائل القرن الثالث عشر ، فكان البابا

يعهد إلى الأساقفة وإلى الآباء الدومنيكيين ، فى تعقب المارقين والكفرة ومعاقبتهم . وطبق هذا النظام منذ البداية فى إيطاليا وألمانيا وفرنسا . وكان مندوبو البابويه يتجولون فى مختلف الأنحاء ، لتقصى أخبار الكفرة والقبض عليهم ومعاقبتهم ، وكانت تعقد لذلك مجالس كنسية مؤقتة كانت هى النواة الأولى لمحاكم التحقيق ، تعمل حيث يوجد الكفرة والملاحدة ، ثم تحل متى تمت مهمة مطاردتهم والقضاء عليهم .

ثم أنشئت بعد ذلك مراكز ثابتة لمحاكم التحقيق أقيم معظمها فى أديار الآباء الدومنيكيين والفرنسيسكانيين . ولم تك ثمة فى هذه العصور سجون خاصة أو مراكز خاصة لمحاكم التحقيق ، وإنما كان يتخذ من أى مكان صالح مركزاً أو سجناً . وكان الأساقفة يتولون رياسة هذه المحاكم ، ولهم سلطة مطلقة . وكانت التحقيقات والمرافعات تجرى بطريقة سرية ، وتصدر الأحكام على المتهمين نهائية غير قابلة للطعن . وكان يسمح للنساء والصبية والعبيد بالشهادة ضد المتهم وليس له ، ويؤخذ الإعتراف من المتهم بالخديعة والتعذيب . وكان التعذيب يعتبر طبقاً للقوانين الكنسية وسيلة غير مشروعة للاعتراف ، ولكن البابويه لم تجد بأساً من إقرار هذه الوسيلة . وكانت السجون التى يستعملها ديوان التحقيق مظلمة رهيبة ، يموت فيها الكثيرون من المرض والآلام النفسية . وكان السجناء يصفدون عادة بالأغلال الثقيلة . وكانت العقوبات الرئيسية هى السجن المؤبد والإعدام والمصادرة . وكانت السلطات الدينية والبابوية تحصل على أوفر نصيب من الأموال المصادرة ، وتحصل السلطات المدنية أيضاً على نصيبها منها . وألفى ديوان التحقيق ميداناً خصباً لنشاطه فى مطاردة الألبيين(١) وغيرهم من الملاحدة الذين ظهروا منذ أوائل القرن الثالث عشر فى جنوبى فرنسا . وفى عهد لويس التاسع ملك فرنسا وضع أول قانون ينظم اجراءات هذه المحاكم الكنسية الجديدة.

وكان ديوان التحقيق فى تلك العصور يصدر أيضاً أحكامه ضد الكتب المحرمة ، ويأمر باحراقها ، ومن ذلك أحكام صدرت باحراق التلمود وبعض كتب أرسطو وغيرها من كتب الفلسفة فى العهد القديم .

ثم اتسع اختصاص محاكم التحقيق بمضى الزمن ، فلم تبق مهمتها قاصرة على مطاردة الكفر ، والزيغ فى العقيدة ، بل تعدته إلى مطاردة السحر والسحرة والعرافة

---

(١) نسبة إلى « البى » وهى مدينة بجنوبى فرنسا ، وكانت من أهم مراكز هذه الطائفة الملحدة .

والعرافين ، وشبه هؤلاء بالكفرة . وجاء بعد ذلك دور اليهود ، فاتهموا بسب النصرانية ، وأخذت عليهم مزاولة الربا ، وتتبعهم ديوان التحقيق بالمطاردة والعقاب . على أن الديوان لم ينس دائماً أن مهمته الأصلية تنحصر فى مطاردة الكفر والزيغ ، والمحافظة على سلامة العقيدة الكاثوليكية ونقائها .

— ٢ —

تلك هى الظروف التى قامت فيها محاكم التحقيق الأولى ، فى مختلف أنحاء أوربا ، فى إيطاليا وألمانيا وفرنسا . ويرجع قيام ديوان التحقيق الإسبانى إلى نفس البواعث الدينية ، ولكنه نشأ مع ذلك نشأة مستقلة ، وأحاطت بقيامه ظروف خاصة .

وقد أنشئت محاكم التحقيق فى مملكة أراجون منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ووضعت لها فى سنة ١٢٤٢ م إجراءات جديدة ، كان لها فيما بعد أكبر الأثر فى صوغ نظم ديوان التحقيق الإسبانى . وعرف هذا الديوان الأرجونى بالديوان القديم ، وعكف حيناً على مطاردة طوائف الألبيين ، وإخماد دعوتهم فى أراجون ، ولم يلبث أن غدا سلطانه ، وغدت وسائله وإجراءاته مثار الرهبة والروع .

على أن هذه لم تكن سوى بداية محدودة المدى لنشاط ديوان التحقيق الإسبانى . ذلك أن ظروف اسبانيا النصرانية فى ذلك العصر ، واضطرام الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا المسلمة ، ورجحان كفتها فى ميدان الحرب والسياسة ، كانت كلها تذكى النزعة الصليبية ، التى كانت تجيش بها اسبانيا دائماً . وكانت الأمة الأندلسية قد استحالت منذ القرن الرابع عشر ، إلى طوائف كبيرة من المدجنين فى مهاد عزها القديم ، فى قشتالة وأراجون ، ولم تبق منها سوى بقية أخيرة تحتشد فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى كان مصيرها المحتوم يلوح قوياً فى الأفق . وكان تفوق اسبانيا النصرانية ونصرها المضطرد ، يذكى عوامل التعصب الدينى الذى تبثه الكنيسة وترعاه ، وتتخذه اسبانيا الظافرة يومئذ شعارها المفضل فى ميدان السياسة . وكانت موجة من التعصب تضطرم فى هذا الوقت بالذات ، حول طوائف المتنصرين من اليهود (Conversos) ؛ وكان أولئك المحدثون فى النصرانية قد سما شأنهم ووصل كثير منهم إلى المناصب الكنسية الكبيرة ، وإلى مجلس الملك ، وتبوأوا بأموالهم ونفوذهم مكانة قوية فى الدولة

والمجتمع ، وكان أحبار الكنيسة ينظرون إليهم بعين الريب ، ويعتبرونهم شراً من اليهود الخلص أنفسهم ، ويتهمونهم بالإلحاد والزيغ ، ومزاولة شعائرهم القديمة سراً . ولما تفاقم الإتهام من حولهم صدر فى سنة ١٤٦٥ فى عهد الملك هنرى الرابع ملك قشتالة أمر ملكى إلى الأساقفة ، بالاستقصاء والبحث فى دوائرهم ، وتتبع هذا اللون من المروق والزيغ ومعاقبة المارقين ، وتلا ذلك موجة من الإضطهاد اتخذت صورة المحاكمات الدينية ، وأحرق عدد من أولئك المتنصرين . ولكن قشتالة التى شغلت يومئذ بمشاكلها الداخلية ، لم تعن بأمر المتنصرين ولم تزعجهم . وهنا تدخل البابا سكستوس الرابع ، وحاول أن يدخل نظام التحقيق فى قشتالة ، فأرسل إليها مبعوثاً بابوياً مزوداً بكل السلطات ، للتحقيق والقبض على المارقين ومعاقبتهم . ولكن فرديناند وإيزابيلا وقفا فى وجه هذه المحاولة حرصاً على سلطانهما ، وحداً من سلطان الكنيسة ، وأغضت إيزابيلا مدى حين عن تحريض الأحبار ، على مطاردة الكبراء المنتمين إلى أصل يهودى ، إذ كانت تثق بهم وبصادق نياتهم وغيرتهم فى خدمة الدولة والعرش .

على أن هذه المقاومة لم تلبث طويلا . ذلك أن كل الظروف كانت تمهد لظفر السياسة الكنسية ، فلم تلبث أن غلبت مساعى الأحبار ، وقبل الملكان إنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة ، ليضطلع بمثل المهام الخطيرة التى يضطلع بها فى أراجون . وهنا يقال إن الفضل فى إقناع الملكة إيزابيلا بتحقيق هذه الفكرة يرجع إلى القس توماس دى تركويمادا رئيس دير الآباء الدومنيكان فى سانت كروس بسقوبية ، وقد كان معترف الملكة وله عليها نفوذ قوى ، فقيل إنه استطاع أن يحصل منها قبل اعتلائها العرش ، على وعد بأنها متى ظفرت بالملك ، فانها تكرس حياتها لسحق الكفر وحماية الكثلكة ، وأنه كان أكثر العاملين على إقناعها بالموافقة على إنشاء ديوان التحقيق . وفى سنة ١٤٧٨ أرسل فرديناد وإيزابيلا سفيرهما إلى البابا ، للحصول على المرسوم البابوى ، وصدر المرسوم بالفعل فى نوفمبر من هذا العام ، بالتصريح بانشاء ديوان التحقيق فى قشتالة وتعيين المحققين « لمطاردة الكفر ومحاكمة المارقين » واتخذت الخطوة الحاسمة لتنفيذ المرسوم فى سبتمبر سنة ١٤٨٠ ، حيث ندب المحققون الثلاثة الأول ، وأنشئت محكمة التحقيق الأولى فى إشبيلية . وهكذا بدأ ديوان التحقيق الإسبانى نشاطه المروع فى قشتالة .

— ٣ —

وبدأ الديوان أعماله فى إشبيلية بإصدار قرارات يحث فيها كل شخص أن يساعد الديوان ، فى البحث عن الملحدين والكفرة ، وكل من فى عقيدتهم زيغ ، وفى جمع الأدلة على إدانتهم ، وفى التبليغ عنهم بأية وسيلة ، وانقضت العاصفة بالأخص على اليهود المتنصرين ، وكانت منهم طائفة كبيرة فى إشبيلية ؛ فلم يمض عام حتى بلغت ضحاياهم ألوفاً أحرق منهم عدد كبير ، وعوقب الكثيرون بالسجن والغرامات الفادحة ، والمصادرة والتجريد من الحقوق المدنية.

وحاول كثير من المتنصرين النجاة بالفرار إلى ضياع الأشراف ، فصدر أمر ملكى بتسليم الهاربين إلى محكمة التحقيق ، وهدد الأشراف بفقد وظائفهم والنفى من الكنيسة ، إذا تخلوا عن تنفيذ الأمر . وحاول بعض أكابر المتنصرين فى الوقت نفسه تدبير مؤامرة ، لمقاومة محكمة التحقيق والفتك بأعضائها ، ولكن المؤامرة اكتشفت وقبض على كثير منهم ، وقضى بإعدام البعض حرقاً ، وبذا سحقت كل مقاومة لنشاط الديوان الجديد .

واتسع نشاط الديوان بسرعة ، واستصدر الملكان من البابا مرسوماً بتعيين سبعة من « المحققين » الجدد (فبراير سنة ١٤٨٢) ، وأنشئت على أثر ذلك محاكم التحقيق فى قرطبة وجيان وسقوبية وطليطلة وبلد الوليد ، وشمل نشاط الديوان سائر أنحاء المملكة الإسبانية (قشتالة وأراجون) .

وكان فرديناند وإيزابيلا يرميان إلى أن تسبغ الصفة القومية على ديوان التحقيق ، وأن يكون سلطانه مستمداً من العرش ، أكثر مما هو مستمد من البابويه . ولتحقيق هذه الغاية رؤى أن ينظم الديوان على أسس جديدة . وكان الديوان قد غدا فى الواقع أداة هامة مرهوبة الجانب ، ولابد لهذه الأداة من سلطة عليا تقوم بالتوجيه والإرشاد ومن ثم فقد صدر المرسوم البابوى فى سنة ١٤٨٣ بانشاء مجلس أعلى لديوان التحقيق (Suprema) له اختصاص مطلق فى كل ما يتعلق بشئون الدين ، ويتألف من أربعة أعضاء منهم الرئيس ، وأطلق على منصب الرئيس منصب المحقق العام Inquisitor-General وصدر المرسوم البابوى فى اكتوبر سنة ١٤٨٣ بتعيين القس توماس دى تركويمادا معترف الملكين ، فى هذا المنصب الخطير ، وخول فى الوقت نفسه سلطة مطلقة فى وضع دستور جديد للديوان المقدس .

وكان تركويمادا حبرا شديد التعصب، وافر البأس والعزم ، فبذل فى تنظيم الديوان وتوطيد سلطانه جهوداً عظيمة ، وبث إليه روحاً من الصرامة . وكان جل غايته أن يجعل من ديوان التحقيق الإسبانى أداة قومية تعمل وفقاً لحاجات اسبانيا ، وقد وفق فى تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد . وبدىء بوضع دستور الديوان الجديد فى سنة ١٤٨٥ ، على يد جمعية من المحققين العامين عقدت فى إشبيلية ، ووضعت طائفة من القرارات واللوائح ، ثم عقدت بعد ذلك جمعية أخرى فى بلد الوليد سنة ١٤٨٨ ووضعت عدة لوائح جديدة ، وعقدت جمعية ثالثة فى آبلة سنة ١٤٩٨ . وتولى المجلس الأعلى (السوبريما) بعد ذلك صياغة اللوائح وتنقيحها . وكان هذا التنظيم عظيم الأثر فى تطور ديوان التحقيق الإسبانى . ذلك أنه غدا من ذلك الحين محكمة قومية مستقلة ، وغدا سلطة يخافها أعظم العظماء فى اسبانيا ، ويرتجف لذكرها الفرد العادى ، وأضحى نشاطها الرهيب ، وقضاؤها المدمر ، عنصراً بارزاً فى التاريخ الإسبانى ، يقوم بدوره الفعال فى دفع اسبانيا إلى شفا المنحدر ، الذى لبثت تتردى فى غمره زهاء ثلاثة قرون .

ولبث تركويمادا فى منصب المحقق العام حتى توفى فى سنة ١٤٩٨ . وفى عهده اشتد نشاط محاكم التحقيق واتسعت أعمالها . وكان هذا القس المتعصب بالرغم من تقشفه ، يعتبر بعد العرش أعظم سلطة فى اسبانيا ، ويعيش فى قصور باذخة وله حرس كبير من الفرسان والمشاة . وكان من جراء شدته وعسفه أن ندب البابا سنة ١٤٩٤ إلى جانبه خمسة من المحققين العامين ، يتمتع كل منهم بنفس سلطته . ولما توفى خلفه فى منصب المحقق العام ديجوديزا أسقف جيان ، واستمر فى منصبه حتى سنة ١٥٠٧م .

— ٤ —

ونقدم الآن عرضاً موجزاً لإجراءات ديوان التحقيق . وسنرى أنها بأصولها وتفاصيلها أبعد ما يكون عن مبادئ المنطق والعدالة ، وأشد مايكون عسفاً وقسوة وهمجية .

تبدأ قضايا الديوان أو محاكمه الفرعية ، بالتبليغ أو مايقوم مقامه ، كورود عبارة فى قضية منظورة تلقى شبهة على أحد ما . ولا فرق بين أن يكون التبليغ من شخص

معين أو يكون غفلا . فى الحالة الأولى يدعى المبلغ ويذكر أقواله وشهوده ، وتعتبر أقوال المبلغ وشهوده « تحقيقاً تمهيدياً » . كذلك يمكن التبليغ بواسطة « الإعتراف » الذى يتلقاه القسس ، ولهم أن يبلغوا عما يقعون عليه من حالات الإشتباه فى العقائد ، وذلك بالرغم مما يقتضيه الإعتراف من الكتمان . ويقسم المبلغون الشهود يميناً بالكتمان ، ولا توضح لهم الوقائع التى يسألون عنها بل يسألون بصفة عامة ، عما إذا كانوا قد رأوا أو سمعوا شيئاً يناقض الدين الكاثوليكى أو حقوق الديوان . ويقوم الديوان فى الوقت نفسه باجراء التحريات السرية المحلية عن المبلغ ضده . ثم تعرض نتيجة التحقيق التمهيدى على « الأحبار المقررين » ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكباً لجريمة الكفر أو تلقى عليه فقط شبهة ارتكابها . وقرارهم يحدد الطريقة التى تتبع فى سير القضية . ويقسم المقررون يمين الكتمان أيضاً ، وكان معظم أولئك المقررين من القسس الجهلاء المتعصبين ، ومن ثم فقد كانت أخلاقهم وآراؤهم ، بل ذمتهم وشرفهم مثاراً للريب ، وكان رأيهم الإدانة دائماً إلا فى أحوال نادرة .

وعلى أثر صدور هذا التقرير ، يصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ ضده وزجه إلى سجن الديوان السرى . وكانت سجون الديوان المخصصة لاعتقال المتهمين بالكفر أو الزيغ ، وهى المعروفة بالسجون السرية ، غاية فى الشناعة والروعة ، تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب ، عميقة مظلمة رطبة تغص بالحشرات والجرذان . ويصفد المتهمون بالأغلال(١) . ويقول لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسبانى إن أفظع ما فى أمر هذه السجون هو أن من يزج إليها ، يسقط فى الحال فى نظر الرأى العام ، وتلحقه وصمة لاتلحقه من أى سجن آخر مدنى أو دينى ، وفيها يسقط فى غمار حزن لايوصف وعزلة عميقة دائمة ، ولايعرف إلى أى مدى وصلت قضيته ، ولاينعم بتعزية مدافع عنه ، غير أن لورنتى ينفى تصفيد المتهمين بالأغلال الثقيلة فى أرجلهم وأيديهم وأعناقهم ، ويقول إن هذا الإجراء لم يكن يتبع إلا فى أحوال نادرة(٢) . ويقول الدكتور

---

(١) Dr. Lea: History of the Inquisition of Spain, V. I. Chap. IV

(٢) Don S. A. Llorente: Histoire Critique de l'Inquisition d'Espagne

وهو مؤلف نقدى ضخم ويمتاز بكون مؤلفه اسبانى وهو حبر خدم ديوان التحقيق أعواماً طويلة

لى : «كان القبض الذى يجريه ديوان التحقيق فى ذاته عقوبة خطيرة . ذلك أن أملاك السجين كلها تصادر وتصفى على الفور ، وتقطع جميع علائقه بالعالم حتى تنتهى محاكمته . وتستغرق المحاكمة عادة من عام إلى ثلاثة ، لايعرف السجين أوأسرته خلالها شيئاً عن مصـــيره ، وتدفع نفقات سجنه من ثمن أملاكه المصفاة ، وكثيراً ما تستغرقه المحاكمة »(١) .

ولايخطر المتهم بالتهم المنسوبة إليه ، ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات فى ثلاثة أيام متوالية ، تعرف بجلسات الرأى أو الإنذار ، وفيها يطلب إليه أن يقرر الحقيقة ، ويوعد بالرأفة إذا قرر وفق ما ينسب إليه ، وينذر بالشدة والنكال إذا كذب أو أنكر لأن «الديوان المقدس» لايقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته ، وهى طريقة غادرة محيرة . فاذا اعترف المتهم بما ينسب إليه ولو كان بريئاً ، اختصرت الإجراءات وقضى عليه بعقوبة أخف ، ولكنه إذا اعترف بأنه كافر مطبق ، فانه لاينجو من عقوبة الموت ، مهما كانت الوعود التى بذلت له بالرأفة والعفو .

فاذا أبى المتهم الإعتراف بعد الجلسات الثلاث ، وضع النائب له قرار الإتهام طبقاً لما ورد فى التحقيق من الوقائع ، وذلك مهما كانت الأدلة المقدمة من الركاكة والضعف . بيد أن أفظع مايحتويه القرار هو إحالة المتهم على التعذيب ، وغالبـــاً ما يطلب النائب هذه الإحالة ، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم بما ينسب إليه ، لأنه يفترض دائماً أنه أخفى أو كذب فى اعترافه . وتصدر المحكمة قرار التعذيب مجتمعة بهيئة غرفة مشورة . وكان قرار التعذيب فى العصور الأولى يصدر عقب الاشتباه والقبض فوراً . وقد استعمل التعذيب فى محاكم التحقيق للحصول على الإعتراف ، منذ منتصف القرن الثالث عشر . وكان التعذيب فى قشتالة إجراء يسوغه القضاء العادى ، وكان يعتبر وسيلة مشروعة لنيل الإعتراف ، فلم يكن غريباً أن يدمجـه ديوان التحقيق فى دستوره . وقد نوه كثير من المؤرخين بروعة الإجراءات والوسائل التى كانت تلجأ إليها محاكم التحقيق فى توقيع العذاب . ويعلق عليها دون لورنتى بقوله : « لست أقف لأصف ضروب التعذيب التى كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين ، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين ، ولكنى أصرح أن

---

(١) Dr. Lea: The Moriscos of Spain

أحداً منهم لايمكن أن يتهم بالمبالغة فيما روى . ولقد تلوت كثيراً من القضايا ، فارتجفت لها اشمئزازاً وروعاً ، ولم أر فى « المحققين » الذين التجأوا إلى تلك الوسيلة إلا رجالا بلغ جمودهم حد الوحشية » (١) . بيد أن مؤرخاً حديثاً لديوان التحقيق هو الدكتور لى يرى فى هذه الأقوال مبالغة ، ويقول لنا إن ديوان التحقيق لم يكن فى إجراءاته الخاصة بالتعذيب ، أكثر قسوة أو إرهاقاً من القضاء العادى ، وان ديوان التحقيق الرومانى كان فى إجراءاته أشد قسوة وفظاعة من الديوان الإسبانى (٢) .

وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة فى العصور الوسطى ، تستعمل فى محاكم التحقيق ومنها تعذيب الماء ، وهو عبارة عن إيثاق المتهم فوق أداة تشبه السلم وربط ساقيه وذراعيه إليها ، مع خفض رأسه إلى أسفل ، ثم توضع فى فمه من زلعة جرعات كبيرة ، وهو يكاد يختنق ، وقد يصل ما يتجرعه إلى عدة لترات . وتعذيب « الجاروكا » وهو عبارة عن ربط يدى المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ، ورفعه وخفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه ؛ وتعذيب الأسياخ المحمية للقدم ، والقوالب المحمية للبطن والعجز ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، وتمزيق الأرجل وفسخ الفك ، وغيرها من الوسائل البربرية المثيرة .

ولم يك ثمة حدود مرسومة لروعة التعذيب وآلامه . ولما كان التعذيب يعتبر خطراً لا تؤمن عواقبه نظراً لاختلاف المتهمين فى قوة البنية والاحتمال المادى والعقلى ، فانه لم يك ثمة قواعد معينة تتبع فى إجراء التعذيب ، بل كان الأمر يترك لتقدير القضاة وحكمتهم وضمائرهم (٣) . ولا يحضر التعذيب سوى الجلاد والأحبار المحققون ، والطبيب إذا اقتضى الأمر ، ولا يخطر المتهم بأسباب إحالته على التعذيب ، ولا يسئل ليقرر وقائع معينة ، بل يعذب ليقرر ما شاء ، ويمكن الطعن فى القرار بطريق الاستئناف أمام المجلس الأعلى (السوبريما) إلا فى أحوال استثنائية . ولكن الطعن لايقبل ولا ينظر ، حيثما كان القانون صريحاً فى وجوب اجراء التعذيب . وقد يأمر الطبيب بوقف التعذيب إذا رأى حياة المتهم فى خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى

---

(١) Llorente: ibid.

(٢) Dr Lea : The History of the Inquisition ; V. III. Ch. VII.

(٣) Dr Lea : ibid; V. III; p. 22

عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه ، فاذا اعترف المتهم واعتبر القضاة اعترافه صحيحاً ، بمعنى أنه يتضمن عنصر التوبة ، كف عن تعذيبه ، وإذا استطاع المتهم احتمال العذاب وأصر على الإنكار ، لم يفده ذلك شيئاً ، لأن القضاة يتخذون غالباً من الوقائع المنسوبة للمتهم أدلة على الإدانة ، ويحكم عليه طبقاً لهذا الاعتبار . ويجب أن يؤيد المعترف ما قاله وقت التعذيب ، باعتراف حر يقرره فى اليوم التالى ، وذلك حتى يؤكد صحة الإعتراف فإذا أنكر أو غير شيئاً أعيد إلى التعذيب .

وبعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم ممزقاً دامياً إلى قاعة الجلسة ، ليجيب عن التهم التى توجه إليه لأول مرة ، ويسأل عند تلاوة كل تهمة عن جوابه عنها مباشرة ، ثم يسأل عن دفاعه . وكان مبدأ الدفاع أمراً مقرراً من الوجهة النظرية ، فان كان له دفاع ، اختارت المحكمة له محامياً من المقيدين فى سجل الديوان للدفاع عنه ، وقد يسمح للمتهم باختيار محام من الخارج فى بعض الأحوال الاستثنائية ؛ ويقسم المحامى اليمين بأن يؤدى مهمته بأمانة ، وألا يعرقل الإجراءات بسوء نية ، وأن يتخلى عن موكله إذا تبين له فى أية مرحلة من مراحل الدعوى ، أن الحق ليس فى جانبه . على أن الدفاع لم يكن فى الغالب سوى ضرب من السخرية ، ولم يكن عملا مأمون العاقبة ، ولم يكن يسمح للمحامى أن يطلع على أوراق القضية الأصلية ، أو يتصل بالمتهم على انفراد ، بل تقدم إليه خلاصة التحقيق مرفقة بقرار الإحالة وقرار الإتهام . وكان المحامى الذى يبدى فى تأدية مهمته غيرة خاصة ، يخاطر بأن يقع تحت سخط الديوان .

وبعد المرافعة واستجواب المتهم ، تحال القضية على الأحبار المقررين ليبدوا فيها رأيهم من جديد . وكانت هذه خطوة حاسمة فى الواقع ، لأنها تمهيد إلى الحكم النهائى . ويصدر الأحبار المقررون قرارهم ، وقلما كان يختلف عن القرار الأول . فاذا كان الحكم بالإدانة ، كان للمتهم فرصة الإستئناف أمام المجلس الأعلى (السوبريما) . بيد أنها كانت على الأغلب فرصة خائبة ، إذ قلما كان المجلس الأعلى ينقض حكماً من الأحكام . وكان للمتهم أيضاً أن يلتمس العفو من الكرسى الرسولى . وكانت الخزانة البابويه تغنم من هذه الإلتماسات أموالا طائلة ، فكانت فرصة لا يستفيد منها سوى ذوى الغنى الطائل .

وقلما كان يصدر حكم البراءة أو « الإقالة » ، إذ أن أقل شك فى براءة المتهم براءة مطلقة ، كان يوجب اعتباره مذنباً من النوع الخفيف de Levi ، وعندئذ تصدر عليه عقوبات تتناسب مع ذنبه ، ويقضى عليه أن يتطهر من كل شبهة للكفر وفقاً لإجراءات معينة . وإذا قضى بالبراءة وهو ما يندر وقوعه أطلق سراح المتهم ، وأعطيت له شهادة لطهارته من الذنوب ، وهى كل ما يعوض به ، عما أصابه فى شخصه وفى شرفه وماله ، من ضروب الأذى والألم .

وأما إذا قضى بالإدانة فان الحكم لايبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ . وهو إجراء من أشنع الإجراءات الجنائية التى عرفت ، فيؤخذ المتهم من السجن دون أن يدرى مصيره الحقيقى ، ويجوز رسوم الإيمان « الأوتو دافى » Auto-da-fé وهى الرسوم الدينية التى تسبق التنفيذ ، وخلاصتها أن يلبس الثوب المقدس ، ويوضع فى عنقه حبل وفى يده شمعة ، ويؤخذ إلى الكنيسة ليجوز رسوم التوبة ، ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ ، وهنالك يتلى عليه الحكم لأول مرة . وقد يكون الحكم فى حالة التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة أو بالإعدام حرقاً فى حالة « الكفر الصريح » ، وقد يكون فى حالة الذنوب الخفيفة ، بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة ، وهو ما يسمى حكم « التوفيق » . وكانت أحكام الإعدام هى الغالبة فى عصور الديوان الأولى فى قضايا الكفر . وكان التنفيذ يقع فى ساحات المدن الكبيرة ، وفى احتفال رسمى يشهده الأحبار والكبراء بأثوابهم الرسمية ، وقد يشهده الملك . وكان يقع على الأغلب جملة فينفذ حكم الحرق فى عدد من المحكوم عليهم ، قد يبلغ العشرات أحياناً ، وينتظم الضحايا فى موكب (الأوتو دافى) Auto-da-fé التى اشتهرت فى اسبانيا منذ القرن الخامس عشر ، والتى كانت بالرغم من مناظرها الرهيبة من الحفلات العامة ، التى تهرع لشهودها جموع الشعب . ومما يذكر فى ذلك ، أن فرديناند الكاثوليكى كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة ، وكان يسره أن يشهده حفلات الإحراق (الاوتو دافى) وكان يمتدح الأحبار المحققين كلما نظمت حفلة منها(١).

وكان قضاء محاكم التحقيق بطيئاً ، يبث اليأس فى النفوس ، وكان الأمر يترك لهوى القضاة فى تحديد مواعيد دعوة المتهم ، والسير باجراءات الدعوى ، وكانت

---

(١) Dr. Lea: ibid; V. I.

الإجراءات والمرافعات تستغرق وقتاً طويلا ، وقد تستغرق الأعوام أحياناً ، وقد يموت المتهم فى سجنه قبل أن يصدر الحكم فى قضيته .

وكان دستور ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين . وتصدر الأحكام فى حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء ، فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق ، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم ، لتحرق فى موكب الأوتو دافى .

وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده ، فيقضى بحرمانهم من تولى الوظائف العامة ، وامتهان بعض المهن الخاصة ، وبذا يؤخذ الأبرياء بذنب المحكوم عليه(١) .

— ٥ —

هذا استعراض موجز لإجراءات تلك المحاكم الكنسية الشهيرة ، التى سودت بقضائها المروع صحف التاريخ الإسبانى زهاء ثلاثة قرون .

وقد بث ديوان التحقيق منذ قيامه بقضائه وأساليبه ، حوله جواً من الرهبة والروع . ولما ذاع بطشه وعسفه ، فر كثير من النصارى المحدثين من يهود ومسلمين ، حتى اضطرت الحكومة إلى أن تصدر فى سنة ١٥٠٢ ، قراراً يحرم على ربان أى سفينة وأى تاجر ، أن ينقل معه نصرانياً محدثاً دون ترخيص خاص ، وقبض بهذه الصورة على كثيرين من النصارى المحدثين ، فى مختلف الثغور الإسبانية ، وأحيلوا إلى محاكم التحقيق .

وكان أعضاء محاكم التحقيق يتمتعون بحصانة خارقة ، وسلطان مطلق تنحنى أمامه أية سلطة ، وتحمى أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة . وكان من جراء هذه السلطة المطلقة ، وهذا التحلل من كل مسئولية ، أن ذاع فى هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة ، والقبض على الأبرياء دون حرج ، بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامى ، لايتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملء جيوبهم ، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد ، لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته ، وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف

---

(١) رجعت فى معظم ما ورد عن دستور ديوان التحقيق واجراءاته إلى كتابى « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » الفصل الأول ص ٢٤ — ٣٢ .

من هذا المورد ، هذا بينما يموت أصحاب هذه الأموال الطائلة فى السجن جوعاً (١) .

وكان يبلغ من عسف الديوان أحياناً أن يبسط حكم الأرهاب فى بعض المناطق ، وهذا ما حدث فى قرطبة على يد المحقق العام لوسيرو الذى يعتبر من أشد المحققين قسوة وإجراماً . ففى عهده ذاعت جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات ، وتعالت الصيحة بالشكوى من هذا العدوان الفظيع ، الذى يجرى باسم الديوان المقدس ، وفى ظله ، والذى يصم اسم الديوان والحكومة ، واستغاث كبراء قرطبة بالملك ، وجرت فى الموضوع تحقيقات طويلة انتهت بالقبض على المحقق العام وعزله(٢) .

وكان العرش يعلم بأمر هذا الآثام المثيرة ، التى تصم سمعة الديوان والمحققين . ولا يستطيع دفعاً لها ، لما بلغه الديوان من السلطان الذى لا يناهضه سلطان آخر . ولأن العرش كان يرى فيه فى الوقت نفسه ، أصلح أداة لتنفيذ سياسته فى إبادة الموريسكيين . وفى الوصية التى تركها فرديناند الكاثوليكى عند وفاته فى يناير سنة ١٥١٦ ، لحفيده شارل الخامس ، ما يلقى ضياء على هذه الحقائق . ففيها يحث على حماية الكثلكة والكنيسة ، واختيار المحققين ذوى الضمائر الذين يخشون الله ، لكى يعملوا فى عدل وحزم ، لخدمة الله وتوطيد الدين الكاثوليكى ، كما يجب أن يضطرموا حماسة لسحق طائفة محمد (٣) .

ولما توفى فرديناند ، كان المحقق العام هو الكردينال كنيس مطران طليطلة ، الذى أبدى من الحماسة فى مطاردة المسلمين وتنصيرهم ، ما سبقت الإشارة إليه . وقد حاول كنيس أن يطهر قضاء الديوان وسمعته ، فعزل كثيراً من المحققين الذين لا يُرغب فيهم ، ولكنه لم يعش طويلا ليتم برنامجه فى الإصلاح ، فعادت المساوىء القديمة أشد مما كانت ، وسار الديوان فى قضائه المدمر وأساليبه المثيرة ، لا يلوى على شىء . ولما جلس شارل الخامس على العرش كتب إليه مجلس قشتالة يقول : إن سلام المملكة وتوطيد سلطانه ، يتوقفان على تأييده لديوان التحقيق . ولم يرشارل بعد فترة من التردد ، إلا أن ينزل عند هـذا النصح ، وأن يفسح الطريق لسلطان

---

(١) Lea: ibid; V. I. p. 190 - 192

(٢) Dr Lea: ibid: V. I. p. 210

(٣) Dr Lea: ibid; cit. Mariana; V. I. p. 215

الديوان القاهر ، وذهبت كل الجهود للحد من عسف الديوان وعيثه سدى ، وتوطد سلطان الديوان بقشتالة مدى قرون ثلاثة ، كانت فى الواقع أخطر ما فى حياة الشعب الإسبانى (١) .

— ٦ —

وقد رأينا كيف أنشىء ديوان التحقيق الإسبانى فى الأصل ، لمطاردة الكفر وحماية الكثلكة من شبه المروق والزيغ ، وكان إنشاؤه فى قشتالة قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وكان اليهود الذين تمتعوا عصوراً بالحرية والأمن ، فى ظل الحكم الإسلامى ، أول ضحايا سياسية الإرهاق والمحو التى رسمتها اسبانيا الجديدة . ذلك أنهم ما كادوا ينتقلون إلى الحكم الجديد ، حتى شهرت عليهم السياسة الإسبانية حربها الصليبية ، وأُمروا باعتناق النصرانية ، وفُرض النفى والمصادرة عقوبة للمخالفين ، فأذعن كثير منهم إشفاقاً على الوطن والمال ، وهلك كثير منهم فى سجون الديوان المقدس ومحارقه ، أو شردوا فى مختلف الأقطار بعد التجريد والحرمان . بل لم ينج المتنصرون منهم ، من المطاردة والإرهاق لأقل الشبه حسبما قدمنا . ولقيت طوائف المدجنين من بقايا الأمة الأندلسية ، وهى التى بقيت فى ظل الحكم النصرانى ، نفس المصير المحزن . وبدأ ديوان التحقيق نشاطه فى قشتالة منذ سنة ١٤٨٠ ، قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وأقيمت محارقه الأولى فى إشبيلية عاصمة المملكة . فلما سقطت غرناطة ، وطويت بسقوطها صفحة الدولة الإسلامية فى الأندلس ، ووقع ملايين المسلمين فى قبضة اسبانيا النصرانية ، ولما أكره المسلمون على التنصير ، واستحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طوائف الموريسكيين حسبما أسلفنا ، ألفى ديوان التحقيق فى هذا المجتمع النصرانى المحدث أخصب ميدان لنشاطه ، وغدت محاكم التحقيق يد الكنيسة القوية فى تحقيق غايتها البعيدة . ذلك أن هذه المحاكم الشهيرة كانت تضطلع بمهمة مزدوجة دينية وسياسية معاً ، فكانت تعمل باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة ، وكان للسياسة الإسبانية بعد ظفرها النهائى باخضاع الأمة الأندلسية أمنية أخطر وأبعد مدى ، هى القضاء على بقايا هذه الأمة المسلمة ، وسحق دينها وكل خواصها الجنسية والاجتماعية ، وإدماجها فى المجتمع النصرانى . ولم تشأ السياسة

---

(١) Lea: ibid; V. I. p. 250

الإسبانية أن تترك تحقيق هذه الغاية لفعل الزمن والتطور التاريخى . بل رأت نزولا على وحى الكنيسة وتوجيهها المباشر . أن تعجل باجراءات التنصير والقمع ، وأن تذهب فى ذلك إلى حدود من الإسراف والغلو ، هى التى أسبغت على مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين صبغتها المفجعة ، كما أسبغت على السياسة الإسبانية المعاصرة وصمة عار ، لم يمحها إلى اليوم كر الأجيال والعصور .

وقد اضطلع ديوان التحقيق الإسبانى بأعظم قسط من هذه الإجراءات الهمجية ، التى أريد بها تنفيذ حكم الإعدام فى أمة بأسرها ، وأخضعت غرناطة لقضاء ديوان التحقيق منذ سنة ١٤٩٩ ، أعنى مذ أكره المسلمون على التنصير ، ولكنها جُعلت من اختصاص محكمة التحقيق فى قرطبة ، وهكذا بدأ الديوان المقدس أعماله فى غرناطة ، بحماسة يذكيها احتشاد الضحايا من حوله . ولم تغفل الرواية الإسلامية أن تشير إلى محارق ديوان التحقيق ، أو إحراق المسلمين بتهمة المروق أو الزيغ ، ولم يجد المسلمون الذين آثروا البقاء فى الوطن القديم وأكرهوا على التنصير واعتناق الدين الجديد ، ملاذاً أو عاصما من الإضطهاد والمطاردة . ذلك أن الموريسكيين أو العرب المتنصرين لبثوا دائماً موضع البغض والريب ، وأبت اسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها ، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن باخلاصهم لدينهم الجديد ، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم ، وترى فيهم دائماً منافقين مارقين . وهكذا كانت السياسة الإسبانية ، كما كانت الكنيسة الإسبانية ، أبعد من أن تقنع بتنصير المسلمين ، وإنما كانت ترمى إلى إبادتهم ، ومحو آثارهم ودينهم وحضارتهم وكل ذكرياتهم .

ومن ثم فقد لبث الموريسكيون ، شغلا شاغلا للكنيسة وللسياسة الإسبانية ، فهم عنصر بغيض فى المجتمع الإسبانى ، وهم خطر على الدولة وعلى الوطن ، وهم بالرغم من ردتهم مازالوا خونة مارقين ، ومازالوا أعداء للدين فى سريرتهم . وكان يذكى هذا البغض والتحامل ضد الموريسكيين كل تذمر من جانبهم . فلما دفعهم اليأس إلى الثورة فى مفاوز البشرات ، ولما آنست السياسة الإسبانية أن هذه البقية الممزقة من الأمة الأندلسية القديمة ، مازالت تجيش برمق من الحياة والكرامة ، رأت أن تضاعف إجراءات القمع والمطاردة ، ضد هذا الشعب المهيض الأعزل ، حتى لا ينبض بالحياة مرة أخرى .

وكانت ثورة البشرات نذير فورة جديدة ، من هجرة الموريسكيين إلى ما وراء البحر ؛ فجازت منهم إلى إفريقية جموع عظيمة كما قدمنا ، ولكن الكثرة الغالبة منهم بقيت فى الوطن القديم ، هدفاً للاضطهاد المنظم ، والقمع الذريع المدنى والدينى ؛ فالى جانب الأوامر الملكية بمنع الهجرة ، وحظر التصرف فى الأملاك أوحمل السلاح وغيرها من القوانين المقيدة للحقوق والحريات ، كان ديوان التحقيق من جانبه ، يشـدد الوطأة على الموريسكيين ، ويرقب كل حركاتهم وسكناتهم ، ويغمرهم بشكوكه وريبه ، ويتخذ من أقل الأمور والمصادفات ذرائع لاتهامهم بالكفروالزيغ ، ومعاقبتهم بأشد العقوبات وأبلغها . وقد نقل إلينا الدون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسبانى ، وثيقة من أغرب الوثائق القضائية ، تضمنت طائفة من القواعد والأصول التى رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين ، فى تهمة الكفر والمروق . وإليك ما ورد فى تلك الوثيقة الغريبة :

« يعتبر الموريسكى أو العربى المتنصر قد عاد إلى الإسلام ، إذا امتدح دين محمـد ، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً ، وليس إلا رسولا ، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه ، ويجب على كل نصرانى أن يبلغ عن ذلك ، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع ، بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية ، ومنها أن يأكل اللحم فى يوم الجمعة ، وهو يعتقد أن ذلك مبـاح ، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثياباً أنظف من ثيـابه العادية ؛ أو يستقبل المشرق قائلا بسم الله ، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها ، أويرفض أكل تلك التى لم تذبح ، أو ذبحتها امرأة ، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية ، أو يعرب عن رغبته فى اتباع هذه العادة ، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا فى الله وفى رسوله محمد ، أو يقسم بأيمان القرآن ، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ؛ ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) ، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، أو يقوم بالوضوء والصلاة ، بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سورا من القرآن ، أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية ، أو ينشد الأغانى العربية ، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية ، أو أن يستعمل النساء الخضاب فى أيديهن أو شعورهن ؛ أويتبع

قواعد محمد الخمس ، أو يمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد ، أو يغسل الموتى ويكفنهم فى أثواب جديدة ، أو يدفنهم فى أرض بكر ، أو يغطى قبورهم بالأغصان الخضراء ، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبى ورسول الله ، أو يقول إن الكعبة أول معابد الله ، أو يقول إنه لم ينصر إيماناً بالدين المقدس ، أو إن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين . . .الخ »(١)

كانت هذه الشبه وأمثالها ، تتخذ ذريعة للتنكيل بالموريسكيين ، بالرغم من تنصرهم وانتمائهم إلى دين سادتهم الجدد . ومن الطبيعى أن يكون موقف المسلمين الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أدق وأخطر ، وكانت قد بقيت منهم جماعات كبيرة فى غرناطة وبلنسية وغيرها ، يعيشون فى غمرة من الجزع الدائم ، وكانت محارق ديوان التحقيق تلتهم الكثير من هؤلاء وهؤلاء ، لأقل الشبه والوشايات . ولقد كان الإسراف فى مطاردة المسلمين والموريسكيين ، نذير السخط فالثورة ، ولكن الثورة أخمدت ، ولم تعدل السياسة الإسبانية عن مسلكها ، وضاعفت محاكم التحقيق إجراءات القمع والتنكيل . وقد انتهت إلينا عن تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الموريسكيين وثيقة عربية ذات أهمية خاصة ، كتبها فيما يظهر أندلسى متنصر (موريسكى) إلى بايزيد الثانى سلطان الترك العثمانيين ، يستغيث به ويستصرخه ، لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له فى شعر ركيك ولكن قوى التعبير ، ماتنزله اسبانيا النصرانية برعاياها الجدد ، وما يصيب المتنصرين من عسف ديوان التحقيق ، ورائع مطاردته وعقوباته . وإليك بعض ما ورد فى تلك القصيدة المؤثرة ، فى وصف أنواع الاضطهاد والعسف ، التى نزلت بالعرب المتنصرين ، وذلك بعد ديباجة نثرية قصيرة ، وديباجة شعرية طويلة فى تحية السلطان بايزيد :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرنا بها ... ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة
وكل كتاب كان فى أمر ديننا ... ففى النار القوة بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ... ولا مصحفاً يخلى به للقراءة

---

(١) Don Antonio Llorente : Histoire Critique de l'Inquistion d'Espagne
وأيضاً . Dr. Lea: The Moriscos; p. 130-131

ومن صام أوصلى ويعلم حاله ... ففى النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجىء منا لموضع كفرهم ... يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ... ويجعله فى السجن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسدون صيامنا ... بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ... ولا نذكرنه فى رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه ... فأدركتهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم ... بضرب وتغريم وسجن وذلة
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت ... بغير رضا منا وغير إرادة
فآهاً على تبديل دين محمد ... بدين كلاب الروم شر البرية
وآهاً على تلك الصوامع علقت ... نواقيسهم بها نظير الشهادة
وآهاً على تلك البلاد وحسنها ... لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعبادة الصليب معاقلا ... وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى نفتدى ... ولا مسلمين نُطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا ... إليه لحادت بالدموع الغزيرة
فياويلنا يابؤس ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وثوب المذلة(١)

وهذه الأبيات تنم بالرغم من ركاكتها عن دقة مدهشة ، فى تتبع أعمال السياسة الإسبانية ، لمطاردة العرب المتنصرين ، وفى وصف إجراءات محاكم التحقيق وعقوباتها . والظاهر أن صاحبها كان من الكبراء المتصلين بالشئون العامة . والمرجح أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان بايزيد الثانى ، عقب ثورة البشرات وما تلاها من إجراءات القمع المشددة ضد العرب المتنصرين ، وذلك حوالى سنة ١٥٠٥ ، وقد توفى السلطان بايزيد الثانى سنة ١٥١٢ ، فلا بد أن تكون الرسالة قد وجهت إليه قبل ذلك . ونحن نعرف أنها لم تكن أول رسالة من نوعها ، وجهها مسلمو الأندلس والعرب المتنصرون إلى قصور قسطنطينية ومصر والمغرب ، فقد أشرنا فيما تقدم إلى سفارة مولاى الزغل سلطان غرناطة إلى بلاط مصر وبلاط قسطنطينية ، يستغيث بهما ويستصرخهما

(١) أورد لنا المقرى فى أزهار الرياض تلك القصيدة بأكملها ، وهى طويلة فى نحو مائة بيت (ج ١ ص ١٠٩ — ١١٥) .

لإنجاده، وإلى ماقام به بلاط مصر من توجيه سفارته إلى فرديناند الخامس، يحذره من المضى فى إرهاق المسلمين، وينذره باضطهاد النصارى الذين يعيشون فى المملكة المصرية، وما كان من تكرار نذيره إلى ملك اسبانيا حينما اشتدت وطأة التنصير على مسلمى الأندلس؛ ولكن تدخل مصر وقسطنطينية على هذا النحو لم يغن شيئاً، وهذا ما يشير إليه صاحب القصيدة المذكورة فى قوله مخاطباً السلطان بايزيد:

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم ... فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة ... علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت إرسال مصر إليهم ... وما نالهم غدر وهتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا ... رضينا بدين الكفر من غير قهرة
لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم ... علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا ... نقول كما قالوه من غير نية

وقد كانت السياسة الإسبانية تتخذ من هذه الرسائل، التى يوجهها العرب المتنصرون إلى إخوانهم المسلمين فيما وراء البحر، كلما تفاقمت آلامهم ومحنتهم، ذريعة للاشتداد فى مطاردتهم، واعتبارهم خطراً على سلامة الدولة، لأنهم يأتمرون بها مع ملوك الدول الإسلامية أعداء اسبانيا النصرانية.

الفصل الثالث

ذروة الاضطهاد وثورة الموريسكيين

نظرة اسبانيا الى الموريسكيين • سياسة الرفق فى عهد شارل الخامس • عود الاضطهاد • قرار المحكمة الملكية فى ظلامة المسلمين • تعليق المؤرخ كوندى • ثورة المسلمين فى سر قسطة وبلنسية • تنصير المسلمين فى أراجون • القوانين والقرارات المرهقة • مساعى الموريسكيين فى بلنسية وغرناطة • تحريم الهجرة الى الثغور • التردد بين الشدة والرفق فى عهد شارل الخامس • ولده فيليب الثانى • التنصير يعم الموريسكيين • تحريض الكنيسة لفيليب الثانى • تحريم السلاح على الموريسكيين • تحريم استعمال اللغة العربية والثياب العربية • اعلان القانون فى غرناطة • سخط الموريسكيين • فشل السعى الى التخفيف • اضطراب الخواطر فى غرناطة • العزم على الثورة • خطة ابن فرج لاضرامها قصيدة عربية فى وصف آلام الموريسكيين • استغاثتهم بأمراء المغرب • نذير الانفجار • محاولة ابن فرج لاثارة غرناطة • ارتداده الى الهضاب الجنوبية • انتشار الثورة • فتك الموريسكيين بالنصارى • فرناندو دى ڤالور أو محمد ابن أمية سلطان الموريسكيين • الفتك بالنصارى فى منطقة البشرات ، أهبة الاسبان لقمع الثورة • مسير المركيز منديخار لمقاتلة الموريسكيين • هزيمة الموريسكيين وفرار محمد بن أمية • معركة دامية أخرى • الفتك بالموريسكيين فى غرناطة • عود محمد بن أميه • استغاثته بسلطان الترك • تشريد الموريسكيين فى البيازين • مصرع محمد ابن أمية • ابن عبو أو مولاى عبد الله يخلفه فى الرياسة • غارات الموريسكيين على أجواز غرناطة • تعيين دون خوان قائدا عاما لغرناطة • مسيره الى مقاتلة الثوار • المعارك الطاحنة بين الفريقين • الحكومة الاسبانية تجنح الى اللين • محاولات الاسبان لعقد الصلح • تصميم مولاى عبد الله على القتال • اجتياح الاسبان للمناطق الثائرة • فيليب الثانى يصدر قرارا بنفى الموريسكيين • الحوادث الدموية • قوانين جديدة مرهقة • مصرع مولاى عبد الله • انهيار الثورة الموريسكية •

لبث الموريسكيون فى عهد فرديناند الخامس زهاء عشرين عاماً ، يتراوحون بين الرجاء واليأس ، ويرزحون تحت غمر المطاردة المنظمة ، وكان هذا الشعب المهيض الذى أدخل قسراً فى حظيرة النصرانية ، والذى أنكرته مع ذلك اسبانيا سيدته الجديدة ، وأنكرته الكنيسة التى عملت على تنصيره ، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة ، وأن يتقبل مصيره المنكود باباء وجلد . ولكن اسبانيا النصرانية ، لبثت ترى فى هذه

البقية الباقية من الأمة الأندلسية ، عدوها القديم الخالد، وتتصور أن هذا المجتمع المهيض الأعزل، الذى أحكمت أغلالها فى عنقه ، مايزال مصدر خطر دائم على سلامتها وطمأنينتها ، ومن ثم كان هذا الإمعان فى مطاردته وإرهاقه ، بمختلف الفروض والقيود والمغارم ، وفى انتهاك عواطفه وحرماته ، وفى تعذيبه وتشريده ، وكان يلوح أن ليس لهذا الإستشهاد الطويل المؤثر من آخر سوى الفناء ذاته .

فلما توفى فرديناند الكاثوليكى (١) وخلفه حفيده شارل الخامس (الإمبراطور شارلكان) سنة ١٥١٦ ، هبت على الموريسكيين ريح جديدة من الأمل ، ورجوا أن يكون العهد الجديد خيراً من سابقه . وأبدى الملك الجديد فى الواقع شيئاً من اللين والتسامح ، نحو المسلمين والموريسكيين ، وجنحت محاكم التحقيق إلى نوع من الاعتدال فى مطاردتهم ، وكفت عن التعرض لهم فى أراجون بسعى النبلاء والسادة ، الذين يعمل المسلمون فى ضياعهم ؛ ولكن هذه السياسة المعتدلة لم تدم سوى بضعة أعوام ، وعادت العناصر الرجعية فى البلاط وفى الكنيسة ، فغلبت كلمتها ؛ وصدر مرسوم جديد فى ١٢ مارس سنة ١٥٢٤ يحتم تنصير كل مسلم بقى على دينه ، وإخراج كل من أبى النصرانية من اسبانيا ، وأن يعاقب كل مسلم أبى التنصير أو الخروج فى المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة ، وأن تقلب جميع المساجد الباقية إلى كنائس .

عندئذ استغاث المسلمون بالإمبراطور ، والتمسوا عدله وحمايته ، على يد وفد منهم بعثوه إلى مدريد ، ليشرح للمليك ظلامتهم وآلامهم (سنة ١٥٢٦) . فندب الإمبراطور محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق ، برياسة المحقق العام لتنظر فى ظلامة المسلمين ، ولتقرر بالأخص ما إذا كان التنصير الذى وقع على المسلمين بالإكراه ، يعتبر صحيحاً ملزماً ، بمعنى أنه يحتم عقاب المخالف بالموت ، أم يطبق القرار الجديد عليهم كمسلمين . وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة ، بأن التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لاتشوبه شائبة ، لأنهم سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه ، فكانوا بذلك أحراراً فى قبوله . ويعلق المؤرخ كوندى وهو اسبانى نصرانى على ذلك القرار بقوله : « وهكذا اعتبر التنصير الذى فرضه

---

(١) لما توفى فرديناند دفن فى غرناطة فى قبر ضخم ، ودفنت من قبله زوجه الملكة إيزابيلا أيضا فى غرناطة ، وذلك تنويها بظفر اسبانيا وظفر النصرانية .

القوى على الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشئاً لصفة لا يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها » (١) . وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكى بأن يرغم سائر المسلمين الذين نصروا كرهاً ، على البقاء فى اسبانيا ؛ باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم ، فاذا ارتدوا عن النصرانية . قضى عليهم بالموت والمصادرة ، وقضى الأمر فى الوقت نفسه بأن تحول جميع المساجد الباقية فى الحال إلى كنائس .

فكان لهذه القرارات لدى المسلمين أسوأ وقع ، وما لبثت الثورة أن نشبت فى معظم الأنحاء التى يقطنها المسلمون ، فى أحواز سرقسطة وفى منطقة بلنسية وغيرهما ، وأخمدت هذه الثورات المحلية الضئيلة تباعاً . ولكن بلنسية كان لها شأن آخر . ذلك أنها كانت تضم حشداً كبيراً من المسلمين ، يبلغ زهاء سبعة وعشرين ألف أسرة (٢) ، وكان وقوعها على البحر يمهد للمسلمين سبل الإتصال باخوانهم فى المغرب ، ومن ثم فقد كانت دائماً فى طليعة المناطق الثائرة ، وكانت الحكومة الإسبانية تنظر إليها باهتمام خاص ؛ فلما فرض التنصير العام أبدى المسلمون فى بلنسية مقاومة عنيفة ؛ ولجأت جموع كبيرة منهم إلى ضاحية « بناجوازيل » (بنى وزير) واضطرت الحكومة أن تجرد عليهم قوة كبيرة مزودة بالمدافع ، وأرغم المسلمون فى النهاية على التسليم والخضوع ، وأرسل إليهم الإمبراطور إعلان الأمان على أن ينصروا ، وعدلت عقوبة الرق إلى الغرامة (٣) .

وفى باقى ولايات أراجون ، أشفق السادة والنبلاء على مصالحهم وضياعهم من التلف ، إذا اضطهد المسلمون ومزقوا كما حدث فى بلنسية ، فأوضحوا للإمبراطور خطأ هذه السياسة ، وأكدوا له أن المسلمين فى أراجون جماعة هادئة عاملة ذلولة ، لم ترتكب جرماً قط ، ولم تبدر منهم خطيئة دينية أوسياسية ، ومعظمهم زراع فى أراضى الملك والسادة ، ومنهم صناع مهرة ، فاخراجهم من أراجون خسارة فادحة ، ولا داعى لإرغامهم على التنصير ، لأن ذلك لا يعنى إخلاصهم للدين الجديد ،

---

(١) كوندى : الترجمة الانجليزية ج ٣ .

(٢) الدون لورنتى فى كتابه السالف الذكر .

(٣) Dr Lea : The Moriscos ; p. 91 & 92

ومن الخير أن يتركوا فى سلام ؛ ولكن مساعى السادة فى هذا السبيل ذهبت عبثاً، وأصر الإمبراطور على أن يطبق التشريع الجديد على جميع مسلمى أراجون ، وأصدر أوامره إلى ديوان التحقيق أن يقوم بتلك المهمة، فأذعن المسلمون إلى التنصير راغمين ، وتم بذلك تنصيرهم جميعاً (سنة ١٥٢٦) .

شارل الخامس (الإمبراطور شارلكان)

وتوالت الأوامر والقوانين المرهقة ، فصدر قانون يحظر على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والحلى والأحجار الكريمة ، وحتم على كل مسلم بقى على دينه أن يحمل شارة زرقاء فى قبعته ، وحظر عليهم حمل السلاح إطلاقاً وإلا عوقب المخالفون بالجلد ، وأمروا بأن يسجدوا فى الشوارع متى مر كبير الأحبار . واستصدر أسقف بلنسية أمراً يحتم على الموريسكيين فى غرناطة أن يغيروا ملابسهم العربية ، وأن يتخذوا القشتالية لغة لهم ، وألا يتخاطبوا علناً بلغتهم العربية ، وشدد فى تنفيذ هذا الأمر المرهق ، وأنشئت فى غرناطة محكمة تحقيق خاصة لمعاقبة المخالفين ، واشتدت

المطاردة فى جميع الأنحاء . وفى بلنسية صدر قرار بأن يغادر المسلمون الأراضى الإسبانية من طريق الشمال ، وحظر على السادة أن يبقوهم فى ضياعهم وإلا عوقبوا بالغرامة الفادحة ، فعاد المسلمون فى بلنسية إلى الثورة ، وقاوموا جند الحكومة حيناً ، ولكن الثورة ما لبثت أن أخمدت ، وتقدم المسلمون خاضعين على يد وفد منهم مثل فى البلاط ، يعرضون الدخول فى النصرانية ، على أن تحقق لهم بعض المطالب والظروف المخففة ، فلا يمتد إليهم قضاء ديوان التحقيق ، وأن يحتفظوا بلغتهم وبعض حقوقهم فى الزواج والميراث طبقاً لتقاليدهم ، وأن يسمح لهم بحمل السلاح وتخفيض الضرائب . ولكن مجلس الدولة رأى أن يطبق عليهم سائر الأوامر ، التى طبقت على الموريسكيين فى غرناطة وغيرها ، وأن يسمح لهم بالاحتفاظ بلغتهم وأزيائهم مدى عشرة أعوام فقط ، وأن يمنحوا بعض الإمتيازات فيما يتعلق بالزواج ودفع الضرائب ، وكانت هذه المنح أفضل ما يمكن نيله فى هذه الظروف ، فأقبل المسلمون فى منطقة بلنسية على التنصير أفواجاً ، عدا أقلية صغيرة آثرت الثورة ، ومزقها جند الإمبراطور بعد قليل ، وألفت محاكم التحقيق غير بعيد ، فى مجتمع الموريسكيين فى بلنسية ميداناً خصباً لنشاطها .

وحذا الموريسكيون فى غرناطة حذو إخوانهم فى بلنسية ، فسعوا لدى البلاط فى تخفيف الأوامر والقوانين المرهقة التى فرضت عليهم ، وانتهزوا فرصة زيارة الإمبراطور لغرناطة ، فقدموا إليه على يد ثلاثة من أكابرهم ، هم الدون فرديناند بنجاس والدون ميشيل داراجون وديجولويز بنشارا ، وهم من سلالة أمراء غرناطة الذين نصروا منذ الفتح ، مذكرة يشرحون فيها ظلامتهم ، وما يعانونه من آلام المطاردة والإرهاق المستمر ، فندب الإمبراطور لجنة محلية للتحقيق فى أمر الموريسكيين ، وصدرت عدة أوامر ملكية بالعفو عن الموريسكيين فيما تقدم من الذنوب ، فاذا عادوا طبقت عليهم أشد القوانين والفروض ، فأذعن الموريسكيون لكل ما فرض عليهم ، ولكنهم افتدوا من الإمبراطور بمبلغ طائل من المال ، حق ارتداء ملابسهم القومية ، وحق الإعفاء من المطادرة إذا اتهموا بالردة(١) .

وكان الإمبراطور شارلكان حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين ، قد وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين النصارى فى الحقوق والواجبات ، ولكن هذه المساواة

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos; p. 214 & 215

لم تحقق قط . وشعر العرب المتنصرون منذ الساعة الأولى . أنهم ما زالوا موضع الريب والإضطهاد ، وفرضت عليهم فروض وضرائب كثيرة لايخضع لها النصارى ، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيئاً فشيئا ، وتترى ضدهم السعايات والإتهامات ، وقد غدوا فى الواقع أشبه بالرقيق منهم بالرعايا الأحرار . ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة ، وفشت فيهم هذه الرغبة ، صدر قرار فى سنة ١٥٤١ ، يحرم عليهم تغيير مساكنهم ، كما حرم عليهم النزوح إلى بلنسية ، التى كانت دائماً طريقهم المفضل إلى ركوب البحر ، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من أى الثغور إلا بترخيص ملكى نظير رسم فادح . وكانت السياسة الإسبانية تخشى دائماً اتصال الموريسكيين بمسلمى المغرب ، وكان ديوان التحقيق يسهر على حركة الهجرة ويعمل على قمعها بمنتهى الشدة ، ومع ذلك فقد كانت الأنباء تأتى من سفراء اسبانيا فى البندقية وغيرها من الثغور الإيطالية ، بأن كثيراً من الموريسكيين الفارين ، يمرون بها فى طريقهم إلى إفريقية والشرق الإسلامى(١).

وهكذا لبثت السياسة الإسبانية أيام الإمبراطور شارلكان (١٥١٦ — ١٥٥٥) إزاء الموريسكيين ، تتردد بين الإقدام والإحجام ، واللين والشدة . بيد أنها كانت على وجه العموم أقل عسفاً وأكثر اعتدالا ، منها أيام فرديناند وإيزابيلا . وفى عهده نال الموريسكيون كثيراً من ضروب الإعفاء والتسامح الرفيقة نوعاً ، ولكنهم لبثوا فى جميع الأحوال موضع القطيعة والريب ، عرضة للارهاق والمطاردة ، ولبثت محاكم التحقيق تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل .

— ٢ —

على أن هذه السياسة المعتدلة نوعاً لم يتح لها الاستمرار فى عهد ولده وخلفه فيليب الثانى (١٥٥٥ — ١٥٩٨) . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغاضت منهم كل مظاهر الإسلام والعروبة ؛ ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد ، كان لايزال يجثم فى قراره هذه النفوس الأبية الكليمة ، ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية فى اكتساب شىء من ولائها المغصوب ، وكان الموريسكيون يحتشدون جماعات صغيرة وكبيرة فى بسائط غرناطة ، وفى منطقة البشرات الجبلية ،

(١) Dr. Lea : ibid ; p. 187 & 189

تتوسطها الحاميات الإسبانية والكنائس ، لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية واجتماعية وثيقة بثغور المغرب ، وهو ما كانت ترقبه السلطات الإسبانية دائماً بكثير من الحذر والريب .

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القديمة ، مازالت تربط هذا الشعب الذى زادته المحن والخطوب اتحاداً ، وتعلقاً بتراثه القومى والروحى ؛ وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق ، الذى لم تنجح تعاليمها فى النفاذ إلى أعماق نفسه ، بكثير من البغضاء والحقد . فلما تولى فيليب الثانى ألفت فرصتها فى إذكاء عوامل الاضطهاد والتعصب ، التى خبت نوعاً فى عهد أبيه شارل الخامس . وكان هذا الملك المتعصب حبرا فى قرارة نفسه ، يخضع لوحى الأحبار والكنيسة ، ويرى فى الموريسكيين ماتصوره الكنيسة والسياسة الرجعية ، عنصراً بغيضاً خطراً دخيلا على المجتمع الإسبانى ، فلم تمض أعوام قلائل على تبوئه الملك ، حتى ظهرت بوادر التعصب والتحريض ضد الموريسكيين ، فى طائفة من القوانين والفروض المرهقة .

وكانت مسألة السلاح فى مقدمة المسائل ، التى كانت موضع الإهتمام والتشدد. وقد عنيت السياسة الإسبانية منذ البداية بتجريد الموريسكيين من السلاح ، واتخذت أيام فرديناند إجراءات لينة نوعاً ، فكان يسمح بحمل أنواع معينة من السلاح المنزلى كالسكين وغيرها ، وذلك بترخيص ورسوم معينة . ولكن الحكومة خشيت بعد ذلك عواقب هذا التسامح ، فأخذت تشدد فى الترخيص ، وجرد المسلمون فى بلنسية من سلاحهم جملة ، وقيل لهم حينما أذعنوا للتنصير أنهم سيعاملون كالنصارى فى سائر الحقوق والواجبات ويرد لهم سلاحهم ، ولكن الحكومة لم تف بعهدها . وفى سنة ١٥٤٥ صدر قرار بمنع حمل السلاح كافة ، ولكنه نفذ بشىء من اللين . وفى سنة ١٥٦٣ ، فى عهد فيليب الثانى ، صدر قانون جديد يحرم حمل السلاح على الموريسكيين ، إلا بترخيص من الحاكم العام ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فأثار صدوره سخط الموريسكيين ، وكان السلاح ضرورياً للدفاع عن أنفسهم فى محلاتهم المنعزلة النائية .

بيد أن قانون تحريم السلاح ، لم يكن سوى مقدمة لقانون أقسى وأشد إيلاماً ، هو القانون الخاص بتحريم استعمال اللغة العربية ، وارتداء الثياب العربية على الموريسكيين ؛

وقدلبثت اللغة والتقاليد العربية فى الواقع للموريسكيين أوثق الروابط بماضيهم وتراثهم ، وكانت عماد قوتهم المعنوية ، ومن ثم كانت عناية السياسة الإسبانية بالعمل على محوها بطريق التشريع الصارم ، والقضاء بذلك على آخر الروابط التى تربط الموريسكيين ، بماضيهم وتراثهم القومى . وقد فكر بعض أحبار الكنيسة أن يتعلم القسس الذين يقومون بحركة التنصير اللغة العربية ، لكى يستطيعوا إقناع الموريسكيين بلغتهم ، والنفاذ إلى أعماق نفوسهم ، ولكن فيليب الثانى لم يوافق على هذا الرأى ، وآثر أن تعلم القشتالية لأبناء الموريسكيين منذ طفولتهم ؛ وكانت السياسة الإسبانية قد حاولت تنفيذ مشروعها منذ عهد الإمبراطور شارلكان ، فصدر فى سنة ١٥٢٦ قانون يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية وارتداء الثياب العربية ، ولكنه لم ينفذ بشدة ، وأجيز للموريسكيين استعمال اللغة والثياب القومية ، نظير ضريبة معينة ، واستمر هذا المنح سارياً حتى عهد فيليب الثانى ، وكان يجمع من هـذه الضريبة مبلغ طائل . ولكن فيليب الثانى كان ملكا شديد التعصب ، كثير التأثر بنفوذ الأحبار ، فلم يلبث أن استجاب لتحريضهم ، وأمر فى سنة ١٥٦٦ أن يجدد القانون القديم بتحريم اللغة والثياب العربية ، وهكذا حاول بطريق التشريع أن يسدد الضربة الأخيرة للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية ، فأصدر هذا القانون الهمجى الذى لم يسمح بصدور مثله فى تاريخ المجتمعات المتمدنة .

ويقضى هذا القانون بأن يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية ، ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد بأن يكتب العربية أو يتخاطب بها ، سواء بصفة عامة أو بصفة خاصة ، وكل معاملات أو عقود تجرى بالعربية تكون باطلة ، وتسلم جميع الكتب العربية إلى السلطات فى ظرف ثلاثين يوماً ، ويحرم على الموريسكيين أن يتخذوا أسماء عربية أو يرتدوا الثياب العربية ، ويحظر التحجب على النساء ، ويلزمن بارتداء الثياب الأوربية المكشوفة ، وذلك فى ظرف عام ؛ ويجب أن تجرى رسوم الزواج والخطبة وفقاً للتقاليد المسيحية ، وأن تبقى المنازل مفتوحة أثناء الإحتفال بها ، وكذلك يوم الجمعة وأيام الأعياد ، ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا مايقع بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة ؛ ويحرم إنشاد الأغانى القومية أو مزاولة الرقص العربى ، كما يحرم الخضاب بالحناء ، وتهدم الحمامات العامة والخاصة . وفرضت

الملك فيليب الثانى

(عن صورة تسيانو المحفوظة بمتحف مدريد)

على المخالفين عقوبات فادحة ، تختلف من السجن إلى النفى والإعدام ؛ وكان إحراز الكتب والأوراق العربية ولا سيما القرآن ، يعتبر فى نظر السلطات من أقوى الأدلة على الردة ، ويعرض المتهم لأقسى أنواع العذاب والعقاب .

أعلن هذا القانون المروع فى غرناطة فى يوم أول يناير سنة ١٥٦٧ ، وهو اليوم الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحتفل به فى كل عام ، وعلق فى ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة ، فوقع لدى الموريسكيين وقع الصاعقة ، وفاضت قلوبهم الكسيرة سخطاً وأسى ويأسا ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فحطمت الحمامات تباعاً ، واجتمع زعماء الموريسكيين وتباحثوا فيما يجب عمله إزاء هذه المحنة الجديدة ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لإلغاء هذا القانون أو على الأقل لتخفيف وطأته ، فقرروا التظلم للعرش . وحمل رسالتهم إلى فيليب الثانى ، وإلى وزيره الطاغية اسبينوسا ، سيد اسبانى نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وكان يعطف على هذا الشعب المنكود ، ويرى خطر السياسة التى اتبعت لإبادته ؛ ولكن وساطته ذهبت عبثاً ، وحملت سياسة العنف والتعصب فى طريقها كل شىء ، ونفدت الأحكام الجديدة فى المواعيد التى حددت لها ، ولم تبد السلطات فى تنفيذها أى رفق أو مهادنة (١) .

ولم يحظ بلمحة من الرفق سوى الموريسكيين فى بلنسية ، وكان زعيمهم وكبير أشرافهم كوزمى بن عامر من المقربين إلى البلاط ؛ فسعى للتخفيف عنهم ، وكللت مساعيه بالنجاح فى بعض النواحى ، وهو أن يعامل الموريسكيون بالرفق فى حالة الإتهام بالردة ، ولاتنزع أملاكهم بتهمة المروق ، وذلك على أن يدفعوا إتاوة سنوية قدرها ألفان وخمسمائة مثقال لديوان التحقيق (٢) .

وأما فى غرناطة فقد بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة ، والذود عن أنفسهم إزاء هذا العسف المضنى ، أو الموت قبل أن تنطفىء فى قلوبهم وضمائرهم ، آخر جذوة من الكرامة والعزة ، وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضى

---

(١) Prescott: Philip II of Spain; V. III. p. 12 - 29 وكذلك Lea : The Moriscos p. 150, 151 & 230 - 234

(٢) Lea : ibid ; p. 126

المجيد والتراث العزيز ، وكانت نفوسهم ماتزال تضطرم ببقية من شغف النضال والدفاع عن النفس ، وكان يرون فى المناطق الجبلية القريبة ملاذاً للثورة ، ويؤملون أن يصلوا بالمقاومة إلى الغاء هذا القانون الهمجى أو تخفيفه .

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية . ومن الأسف اننا لم نتلق عن هذه المرحلة المؤسية والأخيرة من تاريخ الأمة الأندلسية ، شيئاً من الروايات العربية ، وهى تقف كما رأينا عند محنة التنصير الأولى عقب سقوط غرناطة ، فلابد لنا هنا من أن نرجع إلى الرواية النصرانية دون سواها .

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فعولوا على الثورة ، موثرين الموت على ذلك الإستشهاد المعنوى الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولا فى غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة منهم تحتشد فى ضاحية « البيازين » . وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى فرج بن فرج ؛ وكان فرج صباغاً بمهنته ، ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية كان رجلا جريئاً وافر العزم والحماسة ، يضطرم بغضاً للنصارى ، ويتوق إلى الإنتقام الذريع منهم ؛ ولاغرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج وهم كما رأينا من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الإسلامية . وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرات ، وثيق الصلة بمواطنيه ، فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم ، تزحف سراً إلى غرناطة ، وتجوز إليها من ضاحية البيازين ، ثم تفاجئ حامية الحمراء وتسحقها ، وتستولى على المدينة ، وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدس » من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ ، إذ يشغل النصارى يومئذ باحتفالاتهم وصلواتهم . ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية ، فاتخذت التحوطات لدرئه ، وعززت حامية غرناطة وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكيون إزاء هذه الأهبة أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى .

ووضع أديب من زعماء الثورة يدعى باسمه المسلم محمد بن محمد بن داود ، قصيدة ملتهبة يصف فيها آلام بنى وطنه ، ويستمد فيها الغوث والعون من الله ونبيه ، فضبطت ، وأرسلت إلى البلاط مع ترجمتها القشتالية ، وإليك ما ورد فى هذه القصيدة التى تعتبر كأنها صرخة ألم أخيرة لشعب شهيد :

تفتتح القصيدة بحمد الله والثناء عليه والتنويه بقدرته ، وخضوع جميع الناس والأشياء لحكمه ، ثم يقول أن استمعوا إلى قصة الأندلس المحزنة ، وهى تلك الأمة العظيمة ، التى غدت اليوم ضعيفة مهيضة ، يحيط بها الكفرة من كل صوب ، وأضحى أبناؤها كالأغنام الذين لاراعى لهم .

وفى كل يوم نسام سوء العذاب ، ولا حيلة لنا سوى المصانعة ، حتى ينقذنا الموت مما هو شر وأدهى .

ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية وعبادة الصور ، وهى مسخ للواحد القهار ، ولا يجرؤ أحد على التذمر أو الكلام . وإذا ما قرع الناقوس التى القس عظته بصوت أجش ، وفيها يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير ، ثم تنحنى الجماعة أمام الأوثان دون حياء ولا خجل . . . . . .

ثم يصف وسائل إرهاقهم والتضييق عليهم ، من التسجيل والتفتيش وغيرها ، وما يفرض عليهم من الضرائب الفادحة ، وكيف تؤدى عن الحى والميت ، والكبير والصغير والغنى والفقير ، وكيف يرهقهم القضاة الظلمة ، ولا يفلت من ظلمهم كائن ، وكيف يلقى بهم فى السجن ، ويرغمون على التنصير بالاعتقال والتعذيب ، وكيف تهشم أوصال الفرائس ، ثم تحمل إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد .

وكيف تكدس المظالم على رؤوسهم تكديساً ، ويسومهم الخسف أصاغر النصارى ، وكل منهم يفتن فى ضروب الإضطهاد .

ثم يقول : ولقد علقوا يوم العيد (عيد سقوط غرناطة) ، فى ميدان باب البنود ، قانوناً جديداً ، وأخذوا يدهمون الناس فى نومهم ، ويزمعون تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا .

ونحن إذ نيأس من عدل الإنسان نستغيث بالنبى ، معتمدين على ثواب الاخرة ، وقد حثنا شيوخنا على الصلاة والصوم ، وأن نقصد وجه الله ، فهو الذى يرحمنا فى نهاية الأمر » (١) .

واستمر الموريسكيون على عزمهم وأهبتهم ، ووجهوا بعض الكتب خفية ، إلى أمراء الثغور فى المغرب ، يطلبون إليهم الغوث والعون ، فوقع كتاب منها فى يد

---

(١) أورد الدكتور لى ترجمة هذه القصيدة بالانجليزية : The Moriscos p. 434

حاكم غرناطة ؛ وتقول الرواية القشتالية إنه كان موجهاً من أحد زعماء البيازين ، إلى مسلمى الثغور المغربية ، يستحلفهم فيه الغوث بحق روابط الدين والدم ، ويقول : «لقد نخرتنا الهموم وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة . إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل ، ولقد كتبنا إليكم فى ليال تفيض بالعذاب والدمع ، وفى قلوبنا قبس من الأمل ، إذا كانت ثمة بقية من الأمل فى أعماق الروح المعذب » ؛ ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية ، فلم يلب داعى الغوث سوى جماعة من المتطوعين ، الذين نفذوا سراً إلى إخوانهم فى البشرات ، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين ، الذين كانوا حرباً عواناً على الثغور والسفن الإسبانية فى ذلك العصر .

وفى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ وقع حادث كان نذير الانفجار ، إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الإسبانيين فى طريقهم إلى غرناطة ، ووثبت جماعة منهم فى نفس الوقت بشرذمة من الجند ، كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق ، ومثلت بهم جميعاً . وفى الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه ، ونفذ إلى المدينة ليلا ، وحاول تحريض مواطنيه فى « البيازين » على نصرته ، ولكنهم أبوا أن يشتركوا فى مثل هذه المغامرة الجنونية . ولقد كان موقفهم حرجاً فى الواقع ، لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية ، وهم أعيان الطائفة ولهم فى غرناطة مصالح عظيمة ، يخشون عليها من انتقام الإسبان . بيد أنهم كانوا يؤيدون الثورة : يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم ؛ فارتد ابن فرج على أعقابه واجتاز شعب جبل شُلير (سييرانفادا) إلى الهضاب الجنوبية ، فيما بين بلش (فيليز) وألمرية فلم تمض بضعة أيام حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية فى أنحاء البشرات ، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج ، ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم ، ففتكوا بهم ومزقوهم شر تمزيق .

— ٣ —

اندلع لهيب الثورة فى أنحاء الأندلس ، ودوت بصحيحة الحرب القديمة ، وأعلن الموريسكيون استقلالهم ، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت . وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله ، ويكون رمز ملكهم القديم ، فوقع اختيارهم على فتى من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دى كردوفا أو دى ڤالور . وكان هذا الإسم

النصرانى القشتالى ، يحجب نسبة عربية إسلامية رفيعة . ذلك أن فرناندو دى ڤالور كان ينتمى فى الواقع إلى بنى أمية ، وكان سليل الملوك والخلفاء ، الذى سطعت فى ظلهم الدولة الإسلامية فى الأندلس ، زهاء ثلاثة قرون . وكان فتى فى العشرين ، تنوه الرواية القشتالية المعاصرة بوسامته ونبل طلعته ، وكان قبل انتظامه فى سلك الثوار مستشاراً ببلدية غرناطة ، ذا مال ووجاهة . وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التى انتدب لها ، وكان يضطرم حماسة وجرأة وإقداماً ؛ فى الحال غادر غرناطة سراً إلى الجبال ، ولجأ إلى شيعته آل ڤالور فى قرية بزنار ، فهرعت إليه الوفود والجموع من كل ناحية ، واحتفل الموريسكيون بتتويجه فى التاسع والعشرين من ديسمبر (سنة ١٥٦٨) فى احتفال بسيط مؤثر ، فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلة ، فصلى عليها الأمير متجهاً صوب مكة ، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزاً بالخضوع والطاعة ؛ وأقسم الأمير أن يموت فى سبيل دينه وأمته ، وتسمى باسم ملوكى عربى هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة ، واختار عمه الملقب بالزغوير قائداً عاماً لجيشه ، وقد كان صاحب الفضل الأكبر فى اختياره للرياسة ، وبعث ابن فرج على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرات ، ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس ، واتخذ مقامه فى أعماق الجبال فى مواقع منيعة ، وبعث رسله فى جميع الأنحاء ، يدعون الموريسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم .

ووقعت نقمة الموريسكيين بادىء ذى بدء ، على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم فى أنحاء البشرات ، ولاسيما القسس وعمال الحكومة ، وكان هؤلاء يقيمون فى محلات متفرقة سادة قساة ، يعاملون الموريسكيين بمنتهى الصرامة والزراية ، وكان القسس بالأخص سبب بلائهم ومصائبهم ، ومن ثم فقد كانوا ضحايا الثورة الأولى . وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى فى تلك الأنحاء ومزقوهم تمزيقا ، وقتلوا القسس وعمال الحكومة ، ومثلوا بهم أشنع تمثيل ؛ وكانت حسبما تقول الروايات القشتالية مذبحة عامة ، لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ . وذاعت أنباء المذبحة الهائلة فى غرناطة ، فوجم لها الموريسكيون والنصارى معاً ، وكل يخشى عواقبها الوخيمة ؛ وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاماً لمواطنيهم ، وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة ، فتسقط المدينة

فى أيديهم ، وعندئذ يحل بهم النكال الرائع . بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن أمية ، فتقول إنه لم يحرض على هـذه المذابح ، ولم يوافق عليها ، بل لقد ثار لها وحاول أن يحول دون وقوعها ، وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة ، فنزل راضياً واندمج فى صفوف المجاهدين . وهنا يختفى ذكره ولا يبدو على مسرح الحوادث بعد(١).

— ٤ —

وكانت غرناطة فى أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً ، وكان حاكمها المركيز منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى . بيد أنه لم يكن يقدر مدى الإنفجار الحقيقى ، فغصت غرناطة بالجند ، ووُضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة ، رغم احتجاجاتهم وتوكيدهم بأن لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم ؛ وخرج منديخار من غرناطة بقواته فى ٢ يناير سنة ١٥٦٩ ، تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تنديلا ، وعبر جبل شلير (سييرانفادا) ، وسار توا إلى أعماق البشرات حيث يحتشد جيش الثوار . وكان محمد بن أمية متحصناً بقواته فى آكام بوكيرا الوعرة ، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم ، قد حذقوا حرب الجبال ومفاجآتها ، فما كاد الاسبان يقتربون حتى انقضوا عليهم ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، ارتد الموريسكيون على أثرها إلى سهول باترنا ، وتخلف كثيرون منهم ولا سيما النساء ، ففتك الإسبان بهم فتكا ذريعاً ، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو ، وأن يخلدوا إلى السكينة ، وبعث إليهم بعض المسالمين من مواطنيهم . وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم ، ولكن المتطرفين من أنصاره ولاسيما المتطوعين المغاربة ، رفضوا الصلح ؛ فاستؤنفت المعارك ، ورجحت كفة الاسبان ، وهزم الموريسكيون مرة أخرى ، وفر محمد بن أمية ، وأسرت أمه وزوجه واخواته ، وأصيب الإسبان بهزيمة شديدة فى آكام « جواخاريس » ، ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد ، وقتل الإسبان من تخلف منهم أشنع قتل ، وكان ممن تخلف منهم زعيم باسل يدعى « الزمار » أسره الاسبان مع إبنته الصغيرة ، وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذبوه عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً ، ثم مزقت أشلاؤه . وهكذا كانت أساليب الإسبان ومحاكم التحقيق إزاء العرب المتنصرين .

---

(١) Dr. Lea: The Moriscos p. 237 وكذلك ؛ Prescott : Philip II; V. III. Ch. II.

واختفى محمد بن أمية مدى حين فى منزل قريبه « ابن عبو » ، وكان من أنجاد الزعماء أيضاً ، وطارده الإسبان دون أن يظفروا به . على أن هذه الهزائم لم تنل من عزم الموريسكيين ، فقد احتشدوا فى شرق البشرات فى جموع عظيمة ، وأخذوا يهددون ألمرية ، فسار إليهم المركيز « لوس ڤيليس » على رأس جيش آخر ، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ومزق الموريسكيون ، وفتك الإسبان كعادتهم بالأسرى ، وقتلوا النساء والأطفال قتلا ذريعاً .

ووقعت فى نفس الوقت فى غرناطة مذبحة مروعة أخرى ، فقد كان فى سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين ، اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة ، فأذاع الإسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لإنقاذ السجناء ، بمؤازرة مواطنيهم فى البيازين ، وعلى ذلك صدر الأمر باعدام السجناء ، فانقض الجند عليهم وذبحوهم فى مناظر مروعة من السفك الأثيم .

وكان لهذه الحوادث الأخيرة أثر فى إذكاء الثورة ، وكان نذيراً جديداً للموريسكيين بأن الموت فى ساحة الحرب خير مصير يلقون ، فسرى إليهم لهب الثورة بأشد من قبل ، وطافت بهم صيحة الإنتقام ، فانقضوا على الحاميات الإسبانية المبعثرة فى أنحاء البشرات ومزقوها تمزيقاً ، وهزموا قوة إسبانية تصدت لقتالهم ، واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل ، وعاد محمد بن أمية ثانية إلى تبوئ عرشه الخطر ، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ما كانوا ، وبعث أخاه عبدالله إلى قسطنطينية بطلب العون من سلطانها ؛ ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين بالرغم من تكررها منذ سقوط غرناطة ، ولم يلبها غير إخوانهم المجاهدين فى إفريقية ، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة ، أن تجوز إلى الشواطىء الإسبانية ، ومنهم فرقة من الترك المرتزقة ، وأن تهرع إلى نصرة المنكوبين .

وهكذا عاد النضال إلى أشده ، وخشى الإسبان من احتشاد الموريسكيين فى البيازين ضاحية غرناطة ، فصدر قرار بتشريدهم فى بعض الأنحاء الشمالية . وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الأسر التعسة ، وفُرق فيها بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات ، فى مناظر مؤثرة تذيب القلب ، وسار المركيز لوس ڤيليس فى نفس الوقت إلى مقالة الموريسكيين ، فى سهول المنصورة على مقربة من أراضى مرسية ،

ونشبت بينه وبينهم وقائع غير حاسمة ، ولم يستطع متابعة القتال لنقص فى الأهبة والمؤن ؛ وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة كانتا سبباً فى اضطراب الخطط المشتركة ، واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعى إلى مدريد ، وأقيل من القيادة ، واتخذت مدريد خطوتها الحديدة الحاسمة فى هذا الصراع الذى لا رحمة فيه ولا هوادة .

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم فى هضاب الأندلس وسهولها ، وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع فى المعسكر الموريسكى حادث خطر ، هو مصرع محمد بن أمية . وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ، وكانت عوامل الخلاف والحسد ، تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة . وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه ورقيق شمائله كثيراً من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه ، الحقد فى نفوس نفر من ضباطه . وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله فتقول ، إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجو الجوازيل (الوزير) له عشيقة حسناء تسمى زهرة ، فانتزعها محمد منه قسراً ، فحقد عليه وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطاباً إلى القائد العام « ابن عبو » يحرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكان ثمة منهم فرقة فى المعسكر الموريسكى ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر ابن أمية وقتلوه ، بالرغم من احتجاجه وتوكيد برائته ، واستقبل الجند الحادث بالسكون . وفى الحال اختار الزعماء ملكاً جديداً هو ابن عبو ، فتسمى بمولاى عبدالله محمد ، وأعلن ملكاً على الأندلس بنفس الإحتفال المؤثر الذى وصفناه ، وكان مولاى عبدالله أكثر فطنة وروية وتدبرا ، فحمل الجميع على احترامه ، واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشاً مدرباً قوامه زهاء عشرة آلاف ، بين مجاهد ومرتزق ومغامر .

وفى أواخر أكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاى عبدالله بجيشه صوب « أورجيه » وهى مفتاح غرناطة ، واستولى عليها بعد حصار قصير ، فذاعت شهرته وهرع الموريسكيون فى شرق البشرات إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ، وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة « لاڤيجا » ، وقد

كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى ؛ وكان فيليب الثانى حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية ، وعجز القادة المحليين عن قمعها ، قد عين أخاه الدون خوان (جون) قائداً عاماً لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون خوان اشتداد ساعد الموريسكيين اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج فى أواخر ديسمبر على رأس جيشه ، وسار صوب وادى آش ، وحاصر بلدة « جليرا » وهى من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكى ، منهم فرقة تركية ، فهاجمها الإسبان عدة مرات وصوبوا عليها نار المدافع بشدة ، فسقطت فى أيديهم بعد مواقع هائلة ، أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل عدد من الأكابر الإسبان وضباطهم ، ودخلها الإسبان دخول الضوارى المفترسة ، وقتلوا كل من فيها ولم يفروا النساء والأطفال ، وكانت مذبحة رائعة (فبراير سنة ١٥٧٠) ، وتوغل الدون خوان بعد ذلك فى شعب الجبال حتى سيدون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى « الحبقى » تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الإسبان فى سيدون ومزقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرعب والخلل فى صفوفهم ، وقتل منهم عدد كبير ، ولم يستطع الدون خوان أن يعيد النظام إلا بصعوبة ؛ فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى أندرش فى مايو سنة ١٥٧٠ .

وهنا رأت الحكومة الإسبانية أن تجنح إلى شىء من اللين ، خشية عواقب هذا النضال الرائع ، فبعث الدون خوان رسله إلى الزعيم « الحبقى » يفاتحه فى أمر الصلح ، وصدر أمر ملكى بالوعد بالعفو التام عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم فى ظرف عشرين يوماً من إعلانه ، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم ، فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ، ماعدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت . فلم يصغ إلى النداء أحد . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً أن اسبانيا النصرانية لاعهد لها ولا ذمام ، وأنها غير أهل للوفاء ، فعاد الدون خوان إلى استئناف المطاردة والقتال ، وانقض الإسبان على الموريسكيين محاربين ومسالمين ، يمعنون فيهم قتلا وأسراً ، وسارت قوة بقيادة دون سيزا إلى شمال البشرات ، واشتبكت مع قوات مولاى عبد الله فى معارك غير حاسمة ، وسارت مفاوضات الصلح فى نفس الوقت

عن طريق الحبقى ؛ وكان مولاى عبدالله قدرأى تجهم الموقف ، ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعاً ، والقوة الغاشمة تجتاح فى طريقها كل شئ ، فمال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثن القوة القاهرة ، واتفق المفاوضون أن يتقدم الحبقى إلى الدون خوان باعلان خضوعه ، وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين ، وتكفل الحكومة الإسبانية حمايتهاً لهم أينما ارتأت مقامهم. وفى ذات مساء سار الحبقى فى سرية من فرسانه إلى معسكر الدون خوان فى أندرش ، وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود .

ولكن هذا الصلح لم يرض بالأخص مولاى عبد الله وباقى الزعماء ، لأنهم لمحوا فيه نية اسبانيا النصرانية فى نفيهم ونزعهم عن أوطانهم ، ففيم كانت الثورة إذاً وفيم كان النضال ؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز ، الذى نشأوا فى ظلاله الفيحاء ، والذى يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف ، وارتاب مولاى عبد الله فى موقف الحبقى ، إذ رآه يروج لهـذا الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه لمعسكره بالحيلة وهنالك أعدم سراً .

ووقف الدون خوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاى عبد الله ، فأعلن إليه أن يترك الموريسكيين أحراراً فى تصرفاتهم . بيد أنه يأبى الخضوع مابقى فيه رمق ينبض ، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه ، على أن يحصل على مُلك اسبانيا بأسره ، والظاهر مولاى عبد الله كانت قد وصلته أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله ، وعادت الثورة إلى إضطرامها حول رندة ، وأرسل مولاى عبد الله أخاه الغالب ليقود الثوار فى تلك الأنحاء ، وثارت الحكومة الإسبانية لهذا التحدى ، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت ، فسار الدون خوان فى قواته إلى وادى آش ، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دون ركيصانص إلى شمال البشرات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الإسبان فى طريقهم كل شىء ، وامعنوا فى التقتيل والتخريب ، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف فى وجه هذا السيل فمزقت تباعاً ، وهدم الإسبان الضياع والقرى والمعاقل ،

وأتلفت الأحراش والحقول ، حتى لا يبقى للثائرين مثوى أو مصدر للقوت ، وأخذت الثورة تنهار بسرعة ، وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم فى إفريقية ، ولم يبق أمام الإسبان سوى مولاى عبد الله وجيشه الصغير . بيد أن مولاى عبد الله لبث معتصما بأعماق الجبال يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف .

وفى ٢٨ اكتوبر سنة ١٥٧٠ ، أصدر فيليب الثانى قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد ، ومصادرة أملاكهم العقارية ، وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها ، ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط ، وجمع الموريسكيون المسالمون من غرناطة وبسطة ووادى آش ، وسيقوا إلى الكنائس أكداساً ، يحيط بهم الجند فى كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتتوا فى مختلف أنحاء قشتالة وليون..

ووقعت أثناء تنفيذ هذا القرار مناظر دموية حيث ، جنح رجال الحكومة فى بعض الأنحاء ولاسيما فى رندة ، إلى نهب المنفيين والقتك بالنساء والأطفال . ولما سمع الموريسكيون المعتصمون بالجبال هذه الأنباء ، انحدروا إلى السهل ، وقتلوا كثيراً من الجند المثقلين بالغنائم . وكان مصير المنفيين موئلماً ، إذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض ، وعانى الذين سلموا منهم مرارة غربة جديدة موئلة ، ونص على وجوب وضعهم تحت الرقابة الدائمة ، وتسجيلهم وتسجيل مساكنهم فى سجلات خاصة ، وعين لهم حيث وجدوا مشرفاً خاصاً يتولى شئونهم ، وحرم عليهم أن يغيروا مساكنهم إلا بتصريح ملكى ، وحرم عليهم بتاتاً أن يسافروا إلى غرناطة ، وفرضت على المخالفين عقوبات شديدة تصل إلى الموت ؛ وهكذا شرد الموريسكيون فى غرناطة أفظع تشريد ، وانهار بذلك مجتمعهم القوى المتماسك فى الوطن القديم (١) .

ولم يبق إلا أن يسحق مولاى عبد الله وجيشه الصغير ، وكان هذا الأمير المنكود يرى قواه وموارده تذوب بسرعة ، وقد انهار كل أمل فى النصر أو السلم الشريف ، بيد أنه لبث مختفياً فى أغوار الجبال مع شرذمة من جنده المخلصين . وفى مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للاسبان ، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره فى بعض المغائر ، وهنالك استطاعوا إغراء ضابط مغربى من خاصته

---

(١) Dr. Lea: The Moriscos p. 256, 257 & 265

يدعى جونزالفو « الشنيس » . وكان الشنيس يحقد عليه لأنه منعه من الفرار إلى المغرب ؛ وأغدق الإسبان له المنح والوعود ، وقطعوا له عهداً بالعفو الشامل ، وضمان النفس والمال ، وأن ترد إليه زوجته وابنته الأسيرتان ، إذا استطاع أن يسلمهم مولاى عبد الله حياً أو ميتاً . وكان الإغراء قوياً مثيراً ، فدبر الضابط الخائن خطته لاغتيال سيده ، وفى ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه ، فقاوم مولاى عبدالله ما استطاع ، ولكنه سقط أخيراً مثخناً بجراحه ، فألقى الخونة جثته من فوق الصخور لكى يراها الجميع ، ثم حملوها إلى غرناطة ، وهناك استقبلها الإسبان فى حفل ضخم ، ورتبوا موكباً أُركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل كأنما هى إنسان حى ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام ، فقطع رأسها ثم جرت فى شوارع غرناطة مبالغة فى التمثيل والنكال ، ومزقت أربعاً ، وأحرقت بعد ذلك فى الميدان الكبير ، ووضع الرأس فى قفص من الحديد ، رفع فوق سارية فى ضاحية المدينة تجاه جبال البشرات (١) .

* * *

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت ، وخبت آخر جذوة من العزم والنضال ، فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة ، على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت ريح من الرهبة والإستكانة المطلقة ، على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، فى ظل العبودية الشاملة والإرهاق المطلق ، حقبة أخرى .

---

(١) Dr. Lea: The Moriscos p. 262 وكذلك Prescott: Philip II; V.III. Ch. IV & VI

الفصل الرابع

توجس السياسة الإسبانية

وعصر الغارات البحرية الإسلامية

الموريسكيون قوة أدبيـة واجتماعية • بعض ماقيل فى وصفهم • تعلقهم بتراثهم الروحى . نشـاط ديوان التحقيق فى مطاردتهم • قضيـه موريسكية شهيرة • عدد الموريسكيين • ما يقوله عنهم سفير البندقيـة • أقوال الـكاتب سيرفانتس • براعتهم الاقتصادية • تخوف السياسة الاسبانية من وجودهم • صلات الموريسكيين بمسلمى افريقية والترك • دسائس ومؤامرات مزعومة • غارات البحارة المجاهدين على الشواطىء الاسبانية • البحر الأبيض المتوسط مسرح القرصان منذالعصور الوسطى • ظهور المغامرين المسلمين فى هذه المياه • ظهور البحـارة الترك والموريسكيين • النزعة الانتقاميـة فى هذه الغـارات • تحوط اسبانيا ضد الغارات • غارات المجاهدين المغاربة • معاونة الموريسكيين للبحـارة المغيرين • ظهور أوروج وخير الدين • استيلاء خير الدين على الجزائر والثغور المغربية • غاراته المتواليـة على الشواطىء الاسبانية • غارات طرغود حلف خيرالدين • غارات البحارة التونسيين • انزعاج اسبانياولوم الموريسكيين اتسـاع نطاق الغـارات فى البحر الأبيض • انتشـار تجارة الرقيق • حوادث المغرب الأقصى • فرار الأمير الشيخ الى اسبانيا واستغاثته بفيليب الثالث • الموريسكيون يحرضون مولاى زيدان ملك المغرب على غزو اسبانيـا • استيلاء الإسبـان على ثغر العرائش • مقتل الشيخ وانتهاء مغامرته • الكفاح بين مولاى زيدان واسبانيا •

كان انهيار الثورة الموريسكية وسحق الموريسكيين ، خاتمة عهد من الكفاح المرير بين شعب مهيض أعزل ، يحاول أن يحتفظ بشخصيته وكرامته وحقه فى الحياة ، وبين القوة الغاشمة ، التى تريد أن تسحق فى بقية الأمة المغلوبة ، كل أثر للحياة الحرة الكريمة . ولكن الثورة الموريسكية كانت من جهة أخرى ، نذيراً عميق الأثر للسياسة الإسبانية . ذلك أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تجريدهم من كل مظاهـر القوة المـادية ، قوة أدبية واجتماعية يخشى بأسها . وكان هذا الشعب المستكين الأعزل مايزال رغم ضعفه وذلته ، يملأ جنبات الجزيرة بفنونه ونشاطه المنتج ، ويحتل مكانة

بارزة فى الشئون الاقتصادية . وكانت الكنيسة ما تزال تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض، على مجتمع لم تطمئن لولائه وصدق إيمانه . وقد وصف المطران جويريرو الموريسكيين فى سنة ١٥٦٥ بقوله : « إنهم خضعوا للتنصير ، ولكنهم لبثوا كفرة فى سرائرهم ، وهم يذهبون إلى القداس تفادياً للعقاب ، ويعملون خفية فى أيام الأعياد ، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد ، ويستحمون حتى فى ديسمبر ، ويقيمون الصلاة خفية ، ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعاً للقانون ، ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان أولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية ، وتذهب عرائسهم إلى الكنيسة فى ثياب أوربية ، فاذا عدن إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية ، واحتفل بالزواج طبقاً للرسوم العربية »(١) .

والظاهر أن هذه الأقوال تنطوى على كثير من الصدق . ذلك أن الأمة الموريسكية المهيضة ، بقيت بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والإرهاق ، متعلقة بتراثها الروحى القديم . وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبذ دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهم مسلمين فى سرائرهم ، يزاولون شعائرهم القديمة خفية ، ويكتبون الأدعية والمدائح النبوية بالقشتالية ، أو بلغة هى مزيج من الإسبانية والعربية تكتب بأحرف لاتينية . وقد انتهى إلينا الكثير من هذه الأدعية والمدائح الإسلامية الموريسكية ، وكثير منها يفيض بالخرافات والأساطير المقدسة حول سيرة النبى العربى . بيد أنها تدلى بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من إخلاص راسخ لدينها القديم ، وان التبست عليهم أصوله وشعائره بمضى الزمن .

وقد لبث ديوان التحقيق على نشاطه ضد الموريسكيين طوال القرن السادس عشر ، ولم يفتر هذا النشاط حتى أواخر هذا القرن ، مما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة بقيت بالرغم من كر الأعوام وتوالى المحن ، دفينة فى قلب الشعب المضطهد ، تنضح آثارها من آن لآخر . يدل على ذلك ماتسجله محفوظات الديوان ، من أن قضايا الموريسكيين أمام محاكم التحقيق ، بلغت فى سنة ١٥٩١ ، ٢٩١ قضية ، وبلغت فى العام التالى ١١٧ قضية ، وظهر فى حفلة « الأوتو دافى » التى أقيمت فى ٥ سبتمبر سنة ١٦٠٤ ثمانية وسبعون موريسكياً ، نفذت فيهم الأحكام ، وظهر فى حفلة ٧ يناير

---

(١) Dr. Lea: The Moriscos; p. 213 & 214

سنة ١٦٠٧ ثلاثة وثلاثون موريسكياً ، واستعمل العذاب فى محاكمتهم خمس عشرة مرة ، وكان الإتهام يوجه أحياناً إلى الموريسكيين جملة ، على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات الموريسكية ، فقد حدث مثلا فى سنتى ١٥٨٩ و ١٥٩٠ ، أن سجلت فى قرية مسلاته الموريسكية بالقرب من بلنسية مائة قضية ، وسجلت فى قرية كارليت مائتان ، واتهم أربعون أسرة بصوم شهر رمضان .

والواقع أنه كان من الصعب ، على من بقيت فى نفوسهم جذوة أخيرة من دين الآباء ، ولم يخمدها تعاقب جيلين أو ثلاثة من النصرانية المفروضة ، أن يكونوا دائماً بمنجاة من الإتهام ، ولهذا كان الشعب الموريسكى بأسره أينما وجد ، عرضة للاتهام بالحق وبالباطل . وإذا كانت ثمة فترات يهدأ فيها نشاط محاكم التحقيق ، فذلك يرجع بالأخص إلى استعمال الرشوة مع المأمورين ، أو الحصول على براءات الحصانة بالمال . وتوضع لنا قضية بنى عامر زعماء الموريسكيين فى بلنسية هذه الحقيقة أتم وضوح .

كانت أسرة بنى عامر من أعرق الأسر المسلمة القديمة ، التى أكرهت على التنصير ، وكان زعماؤها إخوة ثلاثة ، هم : دون كوزمى ودون خوان ودون هرناندو بنى عامر ، ومنزل الأسرة فى بنجوازيل (بنى وزير) ضاحية بلنسية . وكان الثلاثة من ذوى المكانة والنفوذ ، يسمح لهم بحمل السلاح وامتيازات أخرى ، محرمة على الموريسكيين . ففى مايو سنة ١٥٦٧ صدر قرار محكمة التحقيق باتهامهم ، وتقرر القبض عليهم ، ولكن بعد أن وافقت المحكمة العليا (سوبريما) نظراً لخطر مكانتهم ، فاختفى الإخوة الثلاثة حيناً ؛ ولكن الدون كوزمى قدم نفسه للسلطات فى يناير سنة ١٥٦٨ ، وقرر فى التحقيق أنه يعتقد أنه نصر طفلا ، ومع ذلك فانه لا يعتبر نفسه نصرانياً بل مسلماً ، وأنه جرى خلال حياته على مراعاة الشعائر الإسلامية ، ولم يذهب إلى المعترف إلا خضوعاً للأوامر ، على أنه ينبغى أن يكون فى المستقبل نصرانياً ، وأن يؤدى ما يطلبه المحققون إليه ، ولم يقدم دون كوزمى خلال محاكمته أى دفاع ، ولكنه أفرج عنه فى ١٥ يوليه بضمان قدره الفى دوقة ، على أن يبقى فى بلنسية ولا يبرحها ؛ ومع ذلك فقد سافر دون كوزمى إلى مدريد ، وحصل على عفو عنه وعن أخويه من الملك والمحكمة العليا ، نظير فداء قدره سبعة آلاف دوقة ،

واستطاع فوق ذلك بنفوذه القوى ، أن يحصل للموريسكيين فى بلنسية على قرار التوفيق الصادر فى سنة ١٥٧١ حسبما قدمنا .

وفى سنة ١٥٧٧ جددت التهم القديمة ضد بنى عامر ، وقبض على كوزمى وأخيه خوان ، وحوكم كوزمى وشرح للمحكمة عقيدته الدينية ، وهى مزيج من الإسلام والنصرانية ، وعقدت الجلسات الأولى ، ولكن القضية أوقفت قبل أن يصل التحقيق إلى مرحلة التعذيب ، مما يدل على أن بنى عامر استطاعوا بالرغم من سوء حالتهم المالية يومئذ ، ان يحصلوا على براءتهم وإطلاق سراحهم بدفع مبلغ آخر من المال (١) .

وهكذا نرى أن الموريسكيين استطاعوا بالرغم من العسف المنظم ، الذى فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، أن يحتفظوا فى قرارة نفوسهم الكليمة ، ببقية راسخة من تراثهم الروحى القديم .

هذا من ناحية الدين والعقيدة ؛ وأما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الموريسكيون يكونون مجتمعاً متماسكا متضامناً ، قوياً بنشاطه ودأبه وذكائه ، وقد بلغ عددهم فى أواخر القرن السادس عشر وفقاً لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس ، وقدر البعض الآخر عددهم يومئذ باربعمائة الف نفس ، وهو عدد ضخم بالنسبة لمجموع سكان اسبانيا فى ذلك الحين ، وهو لم يتعد الثمانية ملايين . ووصفهم سفير البندقية فى سنة ١٥٩٥ ، أى بعد قرن من سقوط غرناطة ، بأنهم شعب ينمو باضطراد فى العدد والثروة ، وأنهم لايذهبون إلى الحرب ، ولكن يكرسون نشاطهم للتجارة واجتناء الربح . وذكر الكاتب الإسبانى الكبير سيرفانتيس(٢) فى بعض رسائله أن الموريسكيين يتكاثرون وكلهم يتزوج ، ولا يدخلون أولادهم قط فى سلك الكهنوت أو الجيش ، ويقتصدون فى الإنفاق ويكتنزون المال ، فهم الآن أغنى الطوائف فى اسبانيا . وأما عن الناحية الاقتصادية ، فقد قيل إن الموريسكيين كانوا يحتكرون تجارة الأغذية ، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار

---

(١) Dr. Lea: History of the Inquisition; V. III p. 362 - 365

(٢) بجويل سير فانتس دى ساڤدرا (١٥٤٧ — ١٦١٦) من أعظم كتاب اسبانيا وشعرائها ، وهو مؤلف قصة الفروسية الشهيرة « دون كيشوتى دى لامانشا »

البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والخبازون وأصحاب الفنادق وغيرهم ، وهم لا يشترون العقارات احتفاظاً بحرية استعمال أموالهم ، وقد كان ذلك من أسباب غناهم وقوتهم الإقتصادية (١) .

كانت اسبانيا النصرانية إذاً ، أبعد من أن تطمئن إلى مجتمع العرب المتنصرين ، فقد كانوا فى نظر الكنيسة أبدا كفرة مارقين ، وكانت الدولة من جانبها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع الدخيل ومطاردته ، فهى تخشى أن يعود إلى الثورة ، وهى تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمى إفريقية ومع سلطان الترك ، وهى مازالت تحلم بتطهير اسبانيا من الآثار الأخيرة للشعب الفاتح ، والقضاء إلى الأبد على تلك الصفحة من تاريخ اسبانيا .

* * *

والواقع أن صلات الموريسكيين مع أعداء اسبانيا ، لبثت شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية . وقد كانت الممالك والإمارات المغربية فى الضفة الأخرى من البحر ، على استعداد دائماً لأن تصغى إلى هذا الشعب المنكود ، سليل إخوانهم الأمجاد فى الدين ، وأن تعاونه كلما سنحت الفرص . وكان سلاطين الترك يتلقون من الموريسكيين صريخ الغوث من آن لآخر ، وكانت المنافسة بين الترك واسبانيا يومئذ على أشدها ، فى مياه البحر الأبيض المتوسط ، وكانت طوائف الموريسكيين تعيش على مقربة من الثغور الشرقية والجنوبية . وأكثر من ذلك أن السياسة الإسبانية كانت تخشى دسائس فرنسا خصيمتها القوية يومئذ ، وتخشى تفاهمها المحتمل مع الموريسكيين . وكانت هذه الظروف كلها تحمل اسبانيا النصرانية ، على أن تعتبر الموريسكيين خطراً قومياً يجب التحوط منه ، والعمل على درئه بكل الوسائل .

وتسوق الرواية الإسبانية إلينا دلائل هذا الخطر فى حوادث كثيرة . ففى سنة ١٥٧٣ وقعت السلطات الإسبانية على أنباء مفادها أن أمراء تلمبسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة « المرسى الكبير » فى مياه بلنسية ، يعاونهم الموريسكيون فيها بالثورة ، ولذا بادرت السلطات بنزع السلاح من الموريسكيين فى بلنسية . وقيل بعد ذلك إن هذه الحملة المغربية كانت ستقترن بغزوة فرنسية لأراجون

---

(١) Dr. Lea: The Moriscos p. 204 & 210

ينظمهـا حاكم بيارن الفرنسي ، وان سلطان الترك وسـلطان الجزائر كلاهما يؤيد المشروع ، وان أساطيل الغزو كانت تزمع النزول مياه برشلونة وفى دانية ، وفيما بين مرسية وبلنسية ، وأن الفضل فى فشل هذا المشروع كله يرجع إلى حزم الدون خوان ونزع سلاح الموريسكيين . ومما يدل على أن اسبانيا لبثت حيناً على توجسها من فرنسا ودسائسها لدى الموريسكيين ، ما تسوقه الرواية الإسبانية من أن هنرى الرابع ملك فرنسا ، كانت له فى ذلك مشاريع خطرة ، ترمى إلى غزو اسبانيا من ناحية بلنسية ، حيث يوجد حشد كبير من الموريسكيين ، وان زعماء الموريسكيين وعدوا بإضرام نار الثورة ، وتقديم عدد كبير من الجند ، ولم يطلبوا سوى السلاح ، وكان من المنتظر أن تقوم الثورة الموريسكية فى سنة ١٦٠٥ ، ولكن المؤامرة اكتشفت فى الوقت المناسب ، وانهار مشروع الغزو . وهذه الروايات العديدة التى جمعها « ديوان التحقيق » الإسبانى على يد أعوانه وجواسيسه ، تنقصها الأدلة التاريخية الحقة (١) .

على أن الخطر الحقيقى ، كان يتمثل فى غارات المجاهدين من خوارج البحر المسلمين ، على الثغور والشواطىء الإسبانية . وتملأ سير هذه الغارات فراغاً كبيراً فى الرواية الإسبانية ، وتسبغ عليها الرواية صفة الإنتقام للأندلس الشهيدة . وقـد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، واستمرت دهراً بعد إخراج العرب المتنصرين من اسبانيا . ويشير المقرى مؤرخ الأندلس إلى مغزى هذه الغارات البحرية بعد إخراج الموريسكيين ، فيقول إنهم انتظموا فى جيش سلطان المغرب وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن (٢) .

ويجب أن نذكر أن مياه البحر الأبيض المتوسط شرقه وغربه ، كانت خلال العصور الوسطى ، دائماً مسرحاً سهلا للأساطيل الإسلامية . فمنذ أيام الأغالبـة والفاطميين ، ومنذ خلافة قرطبة ثم المرابطين والموحدين ، كانت الأساطيل الإسلامية تجوس أواسط البحر الأبيض وغربيه ، وكانت الدول الإسلامية الأندلسية والمغربية ، ترتبط مع الدول النصرانية الواقعة فى شمال هذا البحر ، مثل البندقية وجنوة وبيزة ،

---

(١) Dr. Lea: The Moriscos; p. 281-284 & 280-288

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٧ . وقد أنجز المقرى كتابه سنة ١٦٣٠ .

بمعاهدات ومبادلات تجارية هامة ، وكان التسامح يسود يومئذ علائق المسلمين والنصارى ، وتغلب المصالح التجارية والمعاملات المنظمة ، على النزعات الدينية والمذهبية .

وقد كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال «القرصنة» ، توجد فى هذه العصور دائماً ، إلى جانب نشاط الأساطيل الرسمية . وكان البحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور مسرحاً لهذه المغامرات ، وكان معظم خوارج البحر (القرصان) يومئذ من النصارى ، من الأمم التى غزت البحر فى عصور متقدمة ، مثل اليونان وأهل سردانية وجنوة ومالطة . وفى أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات فى البحر الأبيض المتوسط ، واستمر النصارى عصوراً زعماء هذه المهنة . ولم تكن ثمة بحريات منظمة تقوم بمطاردة أولئك الخوارج . وكانت المغانم الوفيرة من الإتجار فى الرقيق ، والبضائع المهربة ، وافتداء الرقيق ، تذكى عزمهم ، وتدفع إليهم بسيل من المغامرين من سائر الأمم . ولما ظهرت الأساطيل الكبرى منذ القرن الرابع عشر ، ضعف أمر أولئك المغامرين . ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين ، ولكنهم لم يظهروا فى هذا الميدان إلا منذ القرن الخامس عشر ، حينما ضعف أمر الأندلس والدول المغربية وسادتها الفوضى ، واضطربت العلائق البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية . وكانت الشواطىء المغربية تقدم إليهم المراسى الصالحة . ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على قسطنطينية ، زاد نشاط المغامرين المسلمين فى البحر . وكان سقوط غرناطة واضطهاد الإسبان للمسلمين ، إيذاناً بتطور هذه المغامرات البحرية ، ونزول الأندلسيين والموريسكيين المنفيين إلى ميدانها ، واتخاذها مدى حين صورة الجهاد والإنتقام القومى والدينى ، لما نزل بالأمة الأندلسية الشهيدة من ضروب العسف والإرهاق (١) .

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية ، عقب استيلاء الإسبان على غرناطة ، وإكراههم للمسلمين على التنصير . ففى ذلك الحين غادر الأندلس آلاف من الأندلسيين المجاهدين ، أنفوا العيش فى الوطن القديم ، فى مهاد الذلة والاضطهاد ، تحت نير الاسبان ، وعبروا البحر إلى عدوة المغرب ، وقلوبهم

---

(١) Lane - Poole : The Barbary Corsairs. p. 26 & 27

تفيض حقداً ويأساً ، واستقروا فى بعض القواعد الساحلية ، مثل وهران والجزائر وبجاية ، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد فى سبيل الله ، والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم ، وظلموا أمتهم ، وانتهكوا حرمة دينهم . وكان البحر يهيئ لهم هذه الفرصة ، التى لم تهيؤها لهم الحرب البرية . وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة ، التى تحميها وتحجبها الصخور العالية ، أصبح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين والقرصان المغيرين . وكانت الجزائر وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والإقلاع ، وكانت هـذه الغارات البحرية تعتمد بالأخص على عنصر المفاجأة ، وتنجح فى معظم الأحيان فى تحقيق غاياتها .

ويصف بيترو مارتيرى هذه الغارات باسهاب ويقول إن فرديناند الخامس أمر فى سنة ١٥٠٧ ، للتحوط ضد هذه الغارات باخلاء الشاطىء الجنوبى ، من جبل طارق إلى ألمرية ، لمدى فرسخين إلى الداخل . ثم صـــدرت مراسم متعددة تحظر على الموريسكيين السفر على أبعاد معينة من الشواطىء ، ولكن هذا التحوط لم يغن شيئاً واستمرت الغارات على حالها . وكان اللوم يلقى فى ذلك منذ البداية على الموريسكيين ولا سيما أهل بلنسية . وكان الموريسكيون كلما اشـتدت عليهم وطأة الاضطهاد والمطاردة ، اتجهوا إلى إخوانهم فى المغرب ، يستصرخونهم للتدخل والانتقام . وكان المجاهدون المغاربة ، يغيرون فى سفنهم على الشواطىء الإسبانية ، ويخطفون النصارى الإسبان ، ويجعلونهم رقيقاً يبـاع فى أسواق المغرب ، وكان الموريسكيون يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الوثيقة ، عن أحوال الشواطىء ومواضع الضعف فيها ، ويمدونها بالأقوات والمؤن . وكانت هذه الحملات تجهز فى أحيـان كثيرة لنقل الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وقد استطاعت خلال القرن السادس عشر ، أن تنقل منهم إلى الشواطىء الإفريقية جماعات كبيرة .

وقد ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر فى الميدان ، عنصر جديد أذكى موجة الغارات البحرية فى هذه المياه . ذلك أن البحارة الترك ، وعلى رأسهم الأخوان الشهيران أوروج وخير الدين [1] ، اندفعوا من شرقى البحر الأبيض إلى غربيـة ، فى طلب المغامرة والكسب . وفى سنة ١٥١٧ سار أوروج فى قوة برية وبعض السفن إلى الجزائر واستولى عليها . ولمـا قتل فى العـام التالى فى معركة نشبت بينه وبين

(١) ويعرف كلاهما فى الرواية الأوربية « بارباروسا » أو ذو اللحية الحمراء .

الإسبان ، استولى أخوه خير الدين على الجزائر ، ثم استولى على معظم الثغور المغربية الساحلية ، وعينه السلطان سليم حاكماً على هذه الأنحاء ، وأمده بالسفن والجند . وتألق نجم خير الدين من ذلك الحين ، واضحى اسمه يقرن بأعظم أمراء البحر فى هذا العصر . وكان من معاونيه نخبة من أمهر الربابنة الترك ، مثل طرغود الذى خلفه فى الرياسة فيما بعد ، وصالح ريس ، وسنان اليهودى ، وايدين ريس وغيرهم من المغامرين ، الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة . وبسط أولئك البحارة الترك سلطانهم على معظم جنبات البحر الأبيض المتوسط ، واشتهروا بغاراتهم على الشواطىء الإيطالية والإسبانية ، والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من المغاربة والموريسكيين . وكان من أهم الغارات التى نظمها خير الدين على الشواطىء الإسبانية غارة وقعت فى سنة ١٥٢٩ ؛ وذلك أن جماعة من الموريسكيين فى بلنسية فاوضوه لكى ينقلهم خلسة إلى عدوة المغرب ، فأرسل عدة سفن بقيادة نائبيه إيدين ريس ، وصالح ريس إلى المياه الإسبانية ، ورست السفن المغيرة ليلا عند أوليفا أمام مصب نهر « ألتيا » ، على مقربة من دانية ، ونزلت منها إلى البر قوة استطاعت أن تجمع من الأنحاء المجاورة نحو سبّائة من الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وهنا فاجأت السفن المغيرة عدة من السفن الإسبانية الكبيرة ، وطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية (البليار) . ولكن سفن « القرصان » انقلبت فجأة من الدفاع إلى الهجوم ؛ وانقضت على السفن الإسبانية وأغرقت بعضها ، وأسرت البعض الآخر ، وسارت سالمة إلى الجزائر تحمل الموريسكيين الفارين ، وعدداً من أكابر الإسبان أخذوا أسرى ، ومعها عدة من السفن الإسبانية الفخمة (١) . وتوالت بعوث خير الدين وغاراته على الشواطىء الإسبانية ، وتتابعت الفرص لدى الموريسكيين ، للفرار والهجرة رفق السفن المغيرة ، حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين منهم إلى شواطئ المغرب نحو سبعين ألفاً (٢) .

وفى سنة ١٥٥٩ قام أمير البحر التركى طرغود ، الذى خلف خير الدين فى الرياسة ، بغارة كبيرة على الشواطئ الإسبانية ، واستطاع أن يحمل معه الى

---

(١) راجع كتاب الأستاذ لاين بول The Barbary Corsairs فى الفصول الأول والثانى والثالث ، حيثما يورد كثيراً من التفاصيل الشائقة ، عن هذه الغارات البحرية ، وعن مغامرات أوروج وخير الدين .

(٢) Lane-Poole: ibid; p. 59

وخمسمائة موريسكى ؛ وفى سنة ١٥٧٠ ، استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين فى باليرا . وفى سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر إلى ثغر بلنسية وحمل ألفين وثلاثمائة . وفى العام التالى استطاعت السفن المغيرة أن تحمل جميع سكان مدينة كالوسا . وبلغت الغارات البحرية التى وقعت على الشواطىء الإسبانية بين سنتى ١٥٢٨ و ١٥٨٤ ثلاثاً وثلاثين . هذا عدا الغارات المحلية التى كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الموريسكيين المهاجرين . وقد وصف لنا الكاتب الإسبانى الكبير سيرفانتيس هذه الغارات البحرية المروعة فى صور مثيرة شائقة ، ولا غرو فقد كان هو إحدى ضحاياها (١) .

ووقعت فى سنة ١٦٠٢ غارة كبيرة ، قام بها بحار مغامر يدعى مراد الريس على ثغر لورقة ، وحمل عدداً من الأسرى ؛ وكثرت الغارات فى الأعوام التالية على الشاطىء الجنوبى ، وظهر فيما بعد أن منظمها بحار إنجليزى مغامر ، يحشد فى سفنه نواتية من المغاربة ، وكان يعيث فى الشواطىء الأندلسية ويقتنص الأسرى النصارى ، ويبيعهم عبيداً فى أسواق المغرب .

وكانت ثغور تونس فى ذلك الوقت نفسه ، فى أيام حاكمها عثمان داى (سنة ١٠٠٧ — ١٠١٩هـ) ، ملاذاً لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، كانت تتكرر غاراتهم على الشواطىء الإسبانية بلا انقطاع . وكان من أشهر أولئك البحارة المغامرين يومئذ ، عمر محمد باى الذى اشتهر بجرأته وبراعته ، وقد قام بعدة غارات جريئة على شواطىء اسبانيا الجنوبية ، وكان فى كل مرة يعود مثقلا بالغنائم والسبى (٢).

وهكذا لبثت الغارات البحرية عصراً ، تزعج الحكومة الإسبانية ، وقد زاد عددها واشتد عيثها ، بالأخص منذ منتصف القرن السادس عشر ؛ وكان هذا غريباً فى الواقع ، إذ كانت اسبانيا يومئذ سيدة البحار ، وكانت أساطيلها الضخمة ، تجوب مياه الأطلنطيق حتى بحر الشمال وجزائر الهند الغربية ، وتسيطر على مياه البحر الأبيض الغربية . بيد أنها لم تستطع أن تقمع هذه الغارات الصغيرة المفاجئة ، التى كانت يقوم بها على الأغلب جماعات مجاهدة ، من القرصان المغاربة ، فى سفن

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain; p. 363

(٢) كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١٩٢ .

صغيرة ، تدفعهم روح من المغامرة والاستبسال . وكان اللوم يلقى فى ذلك دائماً على الموريسكيين ، ولا سيما سكان الثغور منهم ، فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيرة بالمعلومات ، ويزودونها بالمؤن والعون ، ويعينون لها موضع الرسو والإقلاع ، وقد كانت تأتى هى الأغلب لمعاونتهم على الفرار إلى ثغور المغرب ، وقد كان الموريسكيون بالرغم من اضطهادهم ، والتشدد فى مراقبتهم ، على اتصال دائم بمسلمى إفريقية وأمراء المغرب جميعاً .

وهكذا لبثت هذه الغارات البحرية عصراً ، تزعج الحكومة الإسبانية . وكان اقترانها خلال القرن السادس عشر بنضال الموريسكيين ، عنصراً بارزاً فى تنظيمها وتوجهها ، وكانت فكرة الإنتقام للأمة الشهيدة ، تجثم فى معظم الأحيان وراء هذه الغارات المخربة . ولما تم نفى الموريسكيين من الأراضى الإسبانية حسبما نفصل بعد ، زادت هذه الفكرة وضوحاً واشتدت وطأة الغارات ، بما انتظم فى صفوف المجاهدين من المنفيين ، وغدت سلا بالأخص مركزاً لأولئك المبعدين ، ومنها توجه أقوى الحملات المغيرة على الشواطىء الإسبانية (١) .

ولبث البحارة الترك عصراً ، يتزعمون هذه الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموريسكيين ؛ ثم أخذت هذه الغارات تفقد مغزاها القديم بمضى الزمن ، وتنقلب إلى حملات ناهبة ، تنظم على الشواطىء الإيطالية كما تنظم على الشواطىء الإسبانية ؛ وترمى قبل كل شىء إلى تغذية أسواق المغرب والشرق الأدنى ، بأسراب الرقيق . وكان يشترك مع البحارة الترك والمغاربة ، مغامرون من الإفرنج من سائر الأمم . وألفى الباشوات أو الدايات الترك ، الذين بسطوا حكمهم منذ أواخر القرن السادس عشر على طرابلس وتونس والجزائر ، فى هذه الحملات الناهبة ، فرصة سانحة للغنم ، فكانوا يمدون الرؤساء والزعماء بصنوف العون ، عند الحط والإقلاع فى ثغورهم ، وكان الرؤساء من جانبهم ، يقدمون إلى خزينة الباشا أو الداى عشر الغنائم . واسترق بهذه الطريقة عشرات الألوف من النصارى ، واستمرت هذه الغارات بعد ذلك عصراً (٢)

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) استمرت غارات القرصان فى البحر الأبيض المتوسط طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت بعض الدول الأوربية تعمل على تشجيعها لمضايقة البعض الآخر ، والأضرار بتجارتها =

وحدثت فى تلك الآونة التى اشتدت فيها الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية ، فى أوائل عهد فيليب الثالث ، فى عدوة المغرب أحداث أخرى ، زادت فى توجس السياسة الإسبانية ، من مساعى الموريسكيين فى استعداء مسلمى إفريقية . ذلك أن الحرب الأهلية نشبت فى مراكش ، بين السلطان زيدان بن المنصور وأخيه الشيخ المأمون ، وتعددت المعارك بينهما ، وانتهت بهزيمة الشيخ . ففر الشيخ مع أسرته وأمه الخيزران إلى اسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثالث ، وتعهد بتقديم ثغر العرائش إلى اسبانيا نظير معاونته . وكان ذلك فى أوائل سنة ١٦٠٨ (١٠١٧ هـ) [١] . وهنا أرسل الموريسكيون فى بلنسية ، رسلهم إلى مولاى زيدان ، يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها ، وأنهم على استعداد لأن يقدموا له مائتى ألف مقاتل ، متى أقدم على الغزو واحتلال أحد الثغور الإسبانية الهامة ؛ ولكن السلطان زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يحارب خارج بلاده [٢] . واستجاب فيليب الثالث لدعوة الشيخ ، وأرسل معه بعض سفنه إلى شاطىء المغرب ، واستولى الإسبان على ثغر العرائش ، فاشتد السخط على الشيخ ، وانفض عنه كثير من أنصاره ، وما زال الشيخ فى مغامراته حتى قتل على مقربة من تطاون (تيطوان) سنة ١٠٢٢هـ (١٦١٣ م) ، وانتهى بذلك أمره [٣] . واستمر السلطان زيدان حتى وفاته فى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧ م) أعنى بعد نفى الموريسكيين بنحو تسعة عشر عاماً ، فى كفاح دائم مع اسبانيا ، وحدث خلال هذا الكفاح ذات مرة ، أن غنمت السفن الإسبانية فى مياه المغرب ، مركباً لمولاى زيدان شحنت بالتحف ، وبها ثلاث آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة [٤] ، وحملت هذه الكتب إلى اسبانيا ، وضمت فيما بعد إلى مجموعة الكتب الأندلسية بقصر الاسكوريال

= ومنذ القرن السابع عشر تعمل انجلترا وهولنده وفرنسا على مقاومة هذه الحملات البحرية الجريئة والقضاء عليها ، وذلك بمهاجمة الشواطىء المغربية وتدمير ثغورها ، ولا سيما تونس والجزائر . على أنها لم تنقطع نهائياً إلا بعد أن غزت فرنسا الجزائر واستولت عليها فى سنة ١٨٣٠

(١) راجع الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٢ .

(٢) Dr. Lea: The Moriscos; p. 289 - 290

(٣) الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٦ .

(٤) الاستقصاء ج ٣ ص ١٣٠ .

الفصل الخامس

مأســـــاة النفى

قضية الموريسكيين مشكلة قومية لاسبانيا • استحالة العرب المنتصرين الى شعب جديد • تشعب الآراء حول التخلص منهم • ولاية فيليب الثالث • مشروع دوق دى ليرما للقضـــاء على الموريسكيين • مقترحات المطران ربيرا • مجلس الدولة يبحث مشروع نفى الموريسكيين • مقترحات اللجنة الملكية • قرار مجلس الدولة • الاستعـــداد للتنفيذ • صـــدور مرسوم النفى النهـــائى • ما يحتويه المرسوم من الأحكام • موقف الموريسكيين • تظلم المدجنين • بدء التنفيذ فى بلنسية • الرحيل الى وهران وتلمسان • المنفيون من لقنت • مقاومة الموريسكيين فى بعض الأنحـــاء • اعلان قرار النفى فى قشتالة • احصاءات عن المنفيين • اعلان قرار النفى فى غرناطة • اعلانه فى باقى الجهـــات • تفرق المنفيين فى مختلف الثغور • الاعتـــداء على المنفيين • عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا • رواية المقرى عن مأساة النفى • روايات عربية أخرى • آثار الموريسكيين الأخيرة فى اسبانيا •

تلك هى البواعث والظروف التى حملت اسبانيا النصرانية ، على التوجس من العرب المتنصرين ، واعتبارهم خطراً قومياً يجب العمل على درئه والتخلص منه . وكان هذا التوجس يزيد على كر الأعوام ، وتذكيه الحوادث المتوالية : ثورات الموريسكيين ولاسيما ثورة غرناطة الكبرى ، وغارات القرصان على الشواطىء الإسبانية ، وصلات الموريسكيين الدائمة بمسلمى إفريقية وبلاط قسطنطينية ؛ وسواء أكان هذا الخطر حقيقياً يهدد سلامة اسبانيا ، أم كان للتحامل والبغض أثر فى تصوره ، فقد غدت قضية العرب المتنصرين ، غير بعيد فى نظر السياسة الإسبانية ، مشكلة قومية خطيرة يجب التذرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجعها .

وكانت السياسة الإسبانية ، تعتزم منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، أن تتخذ خطوتها الحاسمة ، فى شأن الموريسكيين . وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة ، واستحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، لاتكاد تربطه بالماضى المجيد سوى ذكريات غامضة . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا

أبناء فريش ومُضر بحكم القوة والإرهاق ، نصارى يشهدون القداس فى الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل ، وأبت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، أن تضمهم إلى حظيرتها القومية . وكانت ماتزال ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية وغرناطة ، وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة ، وكانوا مايزالون رغم العسف والإرهاق ، والاضطهاد والتشريد والذلة ، قوة أدبية واجتماعية خطيرة ، وعنصراً بارزاً فى إنتاج اسبانيا القومى ، ولا سيما فى الصناعات والفنون . ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم وخضوعهم ، بعد أن فشلت بوسائلها الهمجية البغيضة فى كسب محبتهم وولائهم . وكان ديوان التحقيق من جهة أخرى ، ومن ورائه الأحبار والكنيسة ، يعتبرهم بالرغم من تنصرهم ، أبدا وصمة فى نقاء النصرانية ، ويتصور الإسلام دائماً يجرى كالدم فى عروقهم .

وقد تضاربت آراء الساسة والأحبار الإسبان ، فى شأن الخطوة الحاسمة التى يجب اتخاذها ، للقضاء على خطر الموريسكيين . ورأى بعض أكابر الأحبار أن خطر الموريسكيين لا يزول إلا بالقضاء على الموريسكيين أنفسهم . وكان مما اقترحه المطران ربيرا أن يُقضى عليهم بالرق ، وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل فى السفن ومناجم الهند ، حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة ؛ وذهب البعض الآخر إلى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة ، أو قتل البالغين منهم ، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيداً ، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثانى أن يجمع الموريسكيون ، ويحملوا على السفن ثم يغرقوا فى عرض البحر (١). واستمرت السياسة الإسبانية حينا تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية ، حتى توفى فيليب الثانى (سنة ١٥٩٨) وخلفه ولده فيليب الثالث . وكان هذا الملك الفتى ، ضعيف الرأى والإرادة ، يتأثر كأبيه بنفوذ الأحبار ، ويخضع لوحى وزيره وصفيه الدوق دى ليرما . وكان الدوق من أشد أنصار فكرة القضاء على الموريسكيين ، وقد أشار بها منذ سنة ١٥٩٩ ، ووضع لتنفيذها مشروعاً ، خلاصته أن الموريسكيين إنما هم عرب ، ويجب أن يعدم الشبان والكهول منهم ، مابين الخامسة عشرة والستين ، أو أن يسترقوا ويرسلوا للعمل

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos, p. 296-299

فى السفن ، وتنزع أملاكهم . أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين ، فينفوا إلى المغرب ، وأما الأطفال فيؤخذوا ويربوا فى المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ يعمل سراً لحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين فى اسبانيا .

وفى سنة ١٦٠١ قدم المطران ربيرا إلى الملك ، مذكرة يقول فيها إن الدين هو دعامة المملكة الإسبانية ، وأن الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وأن كل وسيلة للرفق بهم قد فشلت ، وأن اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، إلى أخطار كثيرة ، وتتكبد فى رقابتهم ، والسهر على حركاتهم ، وإخماد ثوراتهم ، كثيراً من الرجال والمال . ثم يقترح أن تؤلف محكمة سرية من الأحبار ، تقضى بردة الموريسكيين وخيانتهم ، ثم تحكم علناً بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، وأنه لا ضير على الملك فى ذلك ولا حرج . ولكن مشروع المطران لم ينفذ ، لأن مجلس الدولة كان يرى أن يسير فى تحقيق غايته سراً ، وألا تصطبغ اجراءاته فى ذلك بالصبغة الدينية .

ومضت بضعة أعوام أخرى ، والفكرة تبحث وتختمر وتتوطد ، حتى كانت حوادث المغرب فى أواخر سنة ١٦٠٧ ، وما نسب للموريسكيين من صلة بمولاى زيدان ومشاريعه لغزو اسبانيا ، وعزمهم على الثورة . عندئذ بادر مجلس الدولة بالإجتماع فى أواخر يناير سنة ١٦٠٨ ، واستعرضت جميع الآراء والمشاريع السابقة ، وبحثت جميع الاقتراحات ؛ وكرر المطران ربيرا اقتراحه بوجوب نفى الموريسكيين إلى المغرب ، وقال بأن النفى أرفق ما يمكن عمله ، وأيد رأيه معظم الأعضاء الآخرين ، وذكروا أن نفى الموريسكيين أصبح ضرورة لا مفر منها ، لأنهم يتكاثرون بسرعة ، بينما يتناقص عدد النصارى القدماء . وبحثت تفاصيل المشروع ووسائله ، وما يجب اتخاذه من التحوطات لضمان تنفيذه ، خصوصاً وقد بدأت أنباء المشروع تتسرب إلى الموريسكيين ، وظهرت بينهم أعراض الهياج فى سرقسطة وبلنسية . وكانت الخطوة التالية أن عُهد بدرس المشكل كله ، إلى لجنة خاصة على رأسها الدوق دى ليرما ، ووضعت هذه اللجنة أسس المشروع التمهيدية بعد كبير جدل ؛ وخلاصتها أن يمنح الموريسكيون شهراً لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا إلى حيث شاءوا ، فمن جاز منهم إلى إفريقية منح السفر الأمين ، ومن جاز إلى أرض نصرانية أوصى به خيراً ،

ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المدة، عوقب بالموت والمصادرة؛ ولم يعترض أحد على هذه الأسس فى ذاتها ، على أن هذه الأسس الرفيقة نوعاً لم يؤخذ بها .

وفى يناير سنة ١٦٠٩ بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريراً ينصح فيه بوجوب نفى الموريسكيين ، لأسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرّض اسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراكش وغيرها ، وقيام الأدلة على أن الموريسكيين جميعاً خونة مارقون ، يستحقون الموت والرق ، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم ، وتكتفى بنفيهم من أراضيها. وتقرر أن ينفذ المشروع كله فى خريف هذا العام، وأرسلت الأوامر إلى حكام صقلية ونابولى وميلان ، باعداد جميع السفن الممكنة لنقل الموريسكيين ، وجميع القوات اللازمة لحراستهم ، واجتمعت منذ أوائل الصيف فى مياه ميورقة ، عشرات من السفن المطلوبة ، وسارت أهبة التنفيذ بسرعة ونشاط .

وهكذا انتهت السياسة الإسبانية بعد فترة من التردد ، إلى اتخاذ خطوتها الحاسمة فى القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين ، وتحقيق أمنيتها القديمة ، فى « تطهير » اسبانيا نهائياً من آثار الإسلام وآثار العرب ، ومحو تلك الصفحة الأخيرة لشعب عظيم تالد.

— ٢ —

وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ أعلن قرار (مرسوم) النفى النهائى للموريسكيين أو العرب المتنصرين ، فساد بينهم الروع والإضطراب ، واليك نصوص هذا القرار الشهير فى صحف المآسى والاستشهاد :

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين ، واتصالهم بأعداء اسبانيا ، واخفاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأى الملك من نفيهم جميعاً إلى بلاد البربر (المغرب) . وبناء على ذلك فانه يجب على جميع الموريسكيين من الجنسين ، أن يرحلوا مع أولادهم ، فى ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى إلى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ، وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم إلى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة باطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن ، وأنه يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الأيام الثلاثة فى أماكنهم رهن إشارة المأمورين ، ومن وجد متجولا

بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الإعدام فى حالة المقاومة . وقد منح الملك للسادة كل الأملاك العقارية والأمتعة الشخصية التى لم تحمل ، فاذا عمد أحد إلى إخفاء الأمتعة أو دفنها ، أو أضرم النار فى المنازل أو المحاصيل ، عوقب جميع سكان الناحية بالموت . ونص القرار على استبقاء ستة فى المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم فى صون المنازل ، ومعامل السكر ، ومحصول الأرز ، وتنظيم الرى ، وإرشاد السكان الجدد ، وهؤلاء يختارهم السادة ، من بين الأسر الأكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية . أما الأطفال فاذا كانوا دون الرابعة ، فانه يسمح لهم بالبقاء إذا شاءوا (كذا) ورضى آباؤهم أو أولياؤهم ، وإذا كانوا دون السادسة ، سمح لهم بالبقاء إذا كانوا من أبناء النصارى القدماء ، (أعنى من غير العرب المتنصرين) ، وسمح كذلك بالبقاء لأمهم الموريسكية ، فاذا كان الأب موريسكياً والأم نصرانية أصيلة ، نفى الأب وبقى الأولاد الذين دون السادسة مع أمهم . كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصارى مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » إذا زكاهم القسس . وحظر القرار إخفاء الهاربين أو حمايتهم . ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ستة أعوام . كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء ، أن يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل ، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم . وأخيراً نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة ، لكى يشرحوا لإخوانهم كيف تم النقل إلى المغرب على أحسن حال .

وقع قرار النفى على الموريسكيين وقع الصاعقة ، وسادهم الوجوم والذهول . وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، ونهكت قواهم ، ونضبت مواردهم . وكانت الحكومة الإسبانية قد اتخذت عدتها للطوارىء ، وحشدت قواتها فى جميع الأنحاء الموريسكية ، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم فى بلنسية ، وقرروا أنه لا أمل فى المقاومة وأنه لا مناص من الخضوع ، واستقر الرأى على أن يذهبوا جميعاً ، وألا يبقى منهم أحد ، حتى ولا نسبة الستة فى المائة التى سمح ببقائها ، وأن من بقى منهم اعتبر مرتداً مارقاً . ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية ، وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة فى المناطق الجبلية للمقاومة ، وعاثت فى الأنحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر ، فأخمدت حركاتهم بسرعة وقتل منهم عدد جم .

الملك فيليب الثالث

(عن صورة فيلاسكيس)

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفى . وقالوا إنهم اعتنقوا النصرانية طوعاً قبل التنصير الإجبارى، وغدوا نصارى واسبانيين قبل كل شئ ؛ فصدر الأمر إلى الأساقفة ببحث ظلامتهم ، وأن يسمح بالبقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والإخلاص (١) .

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين فقد هرعت إلى اتخاذ أهبة الرحيل ، وأخذوا فى بيع ما تيسر بيعه من المتاع ، وتدفقت السلع على الأسواق ، من الماشية والحبوب والسكر والعسل والملابس والأثاث وغيرها ، لتباع بأبخس الأثمان . وبدىء بتنفيذ قرار النفى فى الجهات التى نشر فيها أولا ، وهى أعمال بلنسية منذ أوائل اكتوبر (سنة ١٦٠٩) . وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة ، وقدرت بثمانية وعشرين الف نفس ، حملوا إلى ثغر وهران فى الضفة الأخرى من البحر ، وقد كان يومئذ بيد الاسبان ، ثم نقلوا إلى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، وهنالك استظلوا بحماية السلطان ؛ وعاد البعض منهم إلى اسبانيا ليروى عن رحيل الراحلين ، وكيف وصلوا فى أمن وسلام . ومع ذلك فقد آثر معظم المهاجرين السفر بأجر ، على سفن غير التى عينتها الحكومة ، لنقل المهاجرين وإطعامهم دون أجر ؛ واضطرت الحكومة تلقاء ذلك ، أن تستدعى عدداً كبيراً من السفن الحرة ، إلى مياه بلنسية ؛ ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألف ، معظمهم من الموسرين والمتوسطين ؛ ورحل المنفيون من ثغر دانية على عزف الموسيقى ونشيد الأغانى ، وهم يشكرون الله على العود إلى أرض الآباء والأجداد ؛ ولما سئل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، أجاب بأنهم كثيراً ما سعوا إلى شراء قارب أو سرقته ، للفرار إلى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر ، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجاناً ، لا ننتهزها للعود إلى أرض الأجداد ، حيث نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك ، وهنالك نعيش أحراراً مسلمين لا عبيد أكما كنا ؟ .

وكانت الجنود تحرس المنفيين فى معظم الأحوال ، حماية لهم من جشع النصارى الإسبان الذين انتظموا فى عصابات لمهاجمة المنفيين ونهبهم وقتلهم أحيانا . وفضلا

---

(١) Dr. Lea: History of the Inquisition in Spain; V. III. p. 399

عن ذلك فان تنفيذ قرار المنفى لم يجر دائماً فى يسر وسهولة ، فقد رأينا أن كثيراً من الموريسكيين فى المناطق الجبلية أبوا الخضوع للأوامر لعدم ثقتهم فى ولاء الحكومة ، وفضلوا المقاومة حتى الموت ، واحتشدوا بالأخص فى « وادى أجوار » حيث اجتمع منهم زهاء خمسة عشر ألفا ، وفى مويلا دى كورتيس حيث اجتمع نحو تسعة آلاف . فبادرت قوات الحكومة بمحاصرة وادى أجوار وفتكت بالموريسكيين العزل ، وقتلت منهم بضعة آلاف ، ومات كثير منهم من الجوع والبرد . وأخيراً سلم من بقى منهم وحملوا قسرا إلى ميناء السفر ، وسبى الجند منهم كثيراً من النساء والأطفال ، باعوهم رقيقاً ، ولم يصل منهم إلى شواطىء المغرب سوى القليل . وفى مويلا دى كورتيس لم يبق منهم عند الإبحار سوى ثلاثة آلاف ؛ ولبثت فلولهم تقاوم مستميتة ، وتبث الإضطراب نحو عام حتى قضى عليها (١) .

وصدر قرار النفى فى قشتالة فى ١٥ سبتمبر سنة ١٦٠٩ . ولكن أجل تنفيذه حتى ينفذ أولا فى بلنسية ، ولم ينفذ بالفعل إلا فى أواخر ديسمبر ، ومنح الموريسكيون فيه شهراً للسفر بنفس الشروط التى تضمنها قرار النفى فى الأندلس ؛ وسافر منهم فى اتجاه الشمال إلى حدود فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة ، وسافر إلى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر إلى الأراضى النصرانية ، وذلك لكى يحتفظوا بأولادهم الصغار ، ولكن تسرب الكثير منهم إلى الثغور المغربية .

وبلغ عدد المنفيين فى الثلاثة أشهر الأولى زهاء مائة وخمسين ألفاً ، وسافر منهم ألوف كثيرة من الأغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وقصدت جموع كثيرة من الموريسكيين فى أراجون قدرت بنحو خمسة وعشرين الفا ، إلى ولاية ناڤار الفرنسية ، ودخل فرنسا من قشتالة نحو سبعة عشر الفا ، وسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الجارون ، بشرط بقائهم على دين الكثلكة وأن تهيىء السفن لمن أراد السفر منهم إلى شواطىء المغرب .

أما فى غرناطة وأنحاء الأندلس ، فقد أعلن قرار النفى فى ١٢ يناير سنة ١٦١٠ بعد أن عدلت بعض أحكامه ، وفيه يمنح الموريسكيون للرحيل ثلاثين يوماً ، ويباح لهم أن يبيعوا سائر أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها ، على أن يقتنى به عروض أو بضائع

---

(١) Dr. Lea: History of the Inqusition; Vol. III. p. 397 & 398

اسبانية ، ولا يسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقد أو الذهب أو الحلى ، إلا مايكفى نفقات الرحلة بالبر والبحر . وأما الأملاك العقارية فتصادر لجهة العرش . وقداستقبل الموريسكيون فى الأندلس قرار النفى بالاستبشار والرضى ، ويقدر من نزح منهم إلى المغرب ، سواء على سفن الحكومة أو السفن الحرة ، بنحو مائة ألف نفس ، وقد نزح معظمهم إلى مراكش .

ثم توالى إعلان قرار النفى ، فى جميع الجهات التى تضم مجتمعات موريسكية ، فى سائر أنحاء المملكة الإسبانية . فى قطلونية وأراجون فى مايوسنة ١٦١٠ ، ثم فى إشبيلية واسترامادوره ، ثم فى مرسية وغيرها . وتأخر تنفيذه فى مرسية نحو أربعة أعوام حتى يناير سنة ١٦١٤ ، وخرج من مرسية زهاء خمسة عشر الفا ، واتجهت جموع كثيرة من الشمال إلى الثغور الجنوبية .

واتجهت بعض الجماعات منهم إلى الثغور الإيطالية مباشرة ، أو عن طريق فرنسا ، ومنها أبحرت إلى مصر والشأم وقسطنطينية (١) . وبلغ السلطان أحمد سلطان الترك ، ما أصاب الكثير منهم فى أرض فرنسا من الإعتداء والنهب ، فأرسل إلى ملكتها (وهى يومئذ مارى دى مديتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر) يحتج على هذا الإيذاء ، ويطلب حماية المنفيين (٢) . وكان بين هؤلاء الذين اتجهوا نحو المشرق ، بعض طوائف اليهود الأندلسيين ، ولاسيما طائفة « الحسديم » التى ما زالت تقيم حتى اليوم فى قسطنطينية ، ويقيم بعضها فى مصر .

ونفذ قرار النفى فى كل مكان بصرامة ووحشية ، واستمرت السفن شهوراً بل أعواماً تحمل أكداساً من تلك الكتلة البشرية المعذبة ، فتلقى بها هنا ، وهنالك ، فى مختلف الثغور الإفريقية ، فى غمر من المناظر المروعة المفجعة .

وقد رويت روايات كثيرة محزنة عن مصير بعض جماعات المنفيين ، فإن الذين نزلوا منهم فى وهران ليسيروا منها إلى داخل البلاد المغربية ، اعتدت عليهم بعض العصابات الناهبة ، لما كان معروفاً من أنهم يحملون أموالا وحلياً نفيسة ، وسبى كثير من نسائهم . وقد كان منهم فى الواقع كثير من الأغنياء والأشراف القدماء ،

---

(١) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 364

ولاسيما من أهل إشبيلية ؛ وكتب الكونت أجويلار حاكم وهران ، أن كثيرين منهم بقوا فى وهران ، خوفاً من اعتداء الأعراب ، وقيل إن ثلثى القادمين إلى وهران أو أكثر من ذلك ، هلكوا من المرض أو نتيجة الاعتداء ، ومن ثم فان كثيرين منهم عادوا إلى اسبانيا ، والتمسوا إلى السلطات أن يبقوا نصارى وأن يكونوا عبيداً . وقد ألغى هؤلاء بعض الأسر التى قبلت استرقاقهم ، واعترض على ذلك رجال الدين ، وصدرت الأوامر برفض نزولهم إلى الشواطىء الإسبانية ؛ ولكن كثيرين تسربوا إلى أنحاء بلنسية وغيرها ، وبقوا فى اسبانيا رغم جميع الجهود التى بذلت لإخراجهم (١) .

وقد اختلف المؤرخون أيما اختلاف ، فى تقدير عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تطبيقاً لقرار النفى ، ويقول ناڤاريتى وهو من أعظم مؤرخى اسبانيا ، إنه قد نفى من اسبانيا فى مختلف العصور ، نحو مليونين من اليهود ، وثلاثة ملايين من الموريسكيين . ويقدر آخرون المنفيين من الموريسكيين بأربعمائة ألف أو تسعمائة ألف ، ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ « ديوان التحقيق » بمليون ، ويقدرهم المستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن عدد من نفى من الموريسكيين لا يمكن أن يتجاوز نصف مليون ، وقد كان مجموعهم فى أواخر القرن السادس عشر لايتجاوز ستمائة ألف حسبما قدمنا . ويقدر من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفى بنحو مائة ألف نفس (٢) .

وقد عاد معظم الموريسكيين ، الذين نفوا إلى إفريقية والمشرق ، إلى الإسلام دين الآباء والأجداد ، ولم تخمد مائة عام من التنصير المغصوب ، والإرهاق المستمر جذوة الإسلام فى نفوسهم ، وقد لبث على كر العصور متغلغلا فى أعماق سرائرهم.

وبذلك ينتهى الفصل الأخير من مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وتطوى إلى الأبد صفحة شعب ، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر الحضارات .

---

(١) Lea : The Moriscos ; p. 363 & 364 . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) راجع : Lea : The Moriscos ; p. 259

وتقدم إلينا الرواية الغربية ، تفاصيل ضافية عن مأساة الموريسكيين ، منذ بدايتها إلى نهايتها ، وتخصها بكثير من التعليق والنقد . ولكن الرواية الإسلامية مقلة فى هذا الموطن ، شأنها فى تاريخ الأندلس منذ سقوط غرناطة ، فهى لا تعنى بتتبع مصير العرب المتنصرين ، كما تعنى الرواية الغربية ، ولا تقدم إلينا عن مأساة النفى سوى إشارات موجزة .

وقد صدر قرار النفى كما قدمنا فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، وهو يوافق جمادى الثانية سنة ١٠١٨هـ . ولكن الرواية الإسلامية تضع تاريخ القرار فى سنة ١٠١٦ هـ أو ١٠١٧هـ ، وهو تحريف واضح .

قال المقرى مؤرخ الأندلس ، وقد كان معاصراً للمأساة : « إلى أن كان إخراج النصارى إياهم (أى العرب المتنصرين) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشرة وألف فخرجت ألوف بفاس . وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى فى الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة . وأما الذين خرجوا بنواحى تونس ، فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جراراً وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد فى البحر ، ماهو مشهور الآن . وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذه الحال . ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى ، وإلى مصر والشأم وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت » (١) .

وقال ابن دينار التونسى ، وقد كتب بعد المأساة بنحو سبعين عاماً ، فى أخبار سنة ١٠١٧هـ : « وفى هذه السنة والتى تلتها ، جاءت الأندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب اسبانية ، وكانوا خلقاً كثيراً ، فأوسع لهم عثمان داى فى البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا ، فاشتروا الهناشير ، وبنوا فيها ، واتسعوا فى البلاد ، فعمرت بهم ، واستوطنوا فى عدة أماكن ، وعمروا

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

نحو عشرين بلداً ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات ، وصاروا يعتبرون من أهل البلاد » (١) .

وقال صاحب الخلاصة النقية ، وهو من الكتاب المتأخرين : « وفى سنة ست عشرة وألف ، قدمت الأمم الجالية من جزيرة الأندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داى كنفه ، وأباح لهم بناء القرى فى مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية ، واغتبط بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم » (٢) .

وهذه النصوص الموجزة ، هى كل ما تقدم إلينا الرواية الإسلامية عن نفى العرب المتنصرين . وقد لبثت رواية المقرى عن المأساة ، مصدراً لكل ما كتبه الكتاب المتأخرون (٣) . وربما كان هذا النقص راجعاً إلى أنه لم يعن أحد من كتاب المغرب المعاصرين ، باستيفاء التفاصيل الضافية المؤثرة عن المأساة ، أو لعله قد ضاع ما كتبه المعاصرون عنها فيما ضاع ، مما كتب عن المراحل الأخيرة لتاريخ الأندلس والعرب المتنصرين ، ولم تصلنا منه على يد المقرى سوى لمحات يسيرة .

وهكذا بذلت اسبانيا كل ما وسعت لإخراج البقية الباقية ، من فلول الأمة الأندلسية ، ولم تدخر وسيلة بشرية للقضاء على آثار الموريسكيين إلا اتخذتها . ومع ذلك فان آثار الموريسكيين لم تنقطع بعد النفى بصورة نهائية . فقد رأينا أن كثيرين من المنفيين قد عادوا إلى اسبانيا ، فراراً مما لقوا فى رحيلهم من ضروب الإعتداء المفزع ، وأسلموا أنفسهم رقيقاً يقتنى . كذلك كانت ثمة جماعات من الأسرى المسلمين ، من مغاربة وغيرهم ، ممن يؤخذون فى المعارك البحرية مع المغيرين ، يباعون رقيقاً فى اسبانيا ، ويفرض عليهم التنصير . ومع أنه صدر قرار يحظر وجودهم فى العاصمة الإسبانية ، فانه كان من الصعب إخراجهم من المملكة ، نظراً لما ترتب لأصحابهم عليهم من الحقوق . وكان البعض منهم يفلح فى ابتياع حريته ، ويعيد حياة الموريسكيين سراً ، وأخيراً توجست الحكومة الإسبانية من وجودهم ، فصدر فى سنة ١٧١٢ قرار بنفيهم ، خلال المدد التى يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم إلى إفريقية .

---

(١) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس (تونس) ص ١٩٣ .

(٢) الخلاصة النقية (تونس) ص ٩١ .

(٣) راجع الاستقصاء ج ٣ ص ١٠١ ، حيث تنقل هذه النصوص .

وقد كان من المستحيل بعد ذلك كله ، أن يبقى فى البلاد أحد من الموريسكيين أو سلالتهم ، وقد كانت ذكراهم أو أشباحهم ، تثير حولها أيما توجس وتعصب . وكان من المتعذر أن يفلت أحد منهم من بطش ديوان التحقيق . وكان الديوان المقدس أبدا على أهبته لضبط أية قضية ضد موريسكى مختف أو عبد متنصر ، لكن هذه القضايا كانت نادرة مما يدل على انقراض هذا العنصر بمضى الزمن . بيد أن أسرى المعارك البحرية الذين كانوا يكرهون على التنصير ، كان بعضهم ينبذ النصرانية خفية ، وكان معظم هؤلاء من الموريسكيين الذين عادوا إلى الإسلام ، وخرجوا إلى الجهاد فى البحر ، وكان ديوان التحقيق طوال القرن السابع عشر يجد بينهم فرائس من آن لآخر . وعلى الجملة فان آثار الموريسكيين والإسلام لم تعف نهائياً من اسبانيا ، وقد لبث كثير من الأسر والأفراد الموريسكيين ، الذين اندمجوا فى المجتمع الإسبانى ، على صلاتهم الخفية بالماضى البعيد ، وقد ضبطت خلال القرن الثامن عشر أمام محاكم التحقيق بعض قضايا لموريسكيين ، كانوا يجرون شعائر الإسلام خفية ، وضبط فى سنة ١٧٦٩ مسجد صغير فى قرطاجنة ، أنشأه المتنصرون المحدثون ، مما يدل على أنه كانت ماتزال ثمة آثار ضئيلة للموريسكيين والإسلام .

ولا تقدم إلينا محفوظات ديوان التحقيق منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أى ذكر للموريسكيين ، أو الإسلام والمسلمين ، مما يدل على أن الآثار الأخيرة لمأساة الموريسكيين قد غاضت ، وأسبل عليها الزمن عفاءه إلى الأبد (١) .

على أن يقال أخيراً إنه مازالت ثمة إلى اليوم ، فى بلنسية وفى غرناطة ومقاطعة لامنشا ، جماعات من الإسبان تغلب عليها تقاليد الموريسكيين فى اللباس والعادات ، ويجهلون الطقوس النصرانية الخالصة (٢) .

والحقيقة أنه يصعب على الباحث أن يعتقد أن اسبانيا النصرانية ، قد استطاعت حقاً بكل ما لجأت إليه من الوسائل المغرقة ، أن تقضى نهائياً على آثار السلالة العربية والحضارة الإسلامية ، بعد أن لبثت ثمانية قرون تغمر النصف الجنوبى لشبه الجزيرة ،

---

(١) Lea : The Moriscos p. 391 & 392

(٢) Lea ; ibid ; p. 365

فان تاريخ الحضارة يدلنا على أنه من المستحيل ، أن تجتث آثار السلالات البشرية ، خصوصاً متى لبثت آماداً مختلفة متداخلة ، وعلى أن حضارة أمة من الأمم إنما هى خلاصة لتفاعل الأجيال المتعاقبة ، وفى وسع مؤرخ الحضارة أن يلمس فى تكوين المجتمع الإسبانى الحاضر ، وفى خصائصه وتقاليده ، وفى حياته الإجتماعية ، وفى حضارته على العموم ، كثيراً من الخلال والظواهر ، التى ترجع فى روحها إلى تراث العرب والحضارة الإسلامية .

الفصل السادس

تأملات وتعليقات عن آثار المأساة

مأساة الموريسكيين وعلاقتها بانحطاط اسبانيا • آثار نفي الموريسكيين المخربة • ركود الزراعة وخراب الضياع الكبيرة • تأثر محاكم التحقيق • ذيوع العملة الزائفة • تقرير مجلس الدولة عن الاضطراب الاقتصادى • تعليقات الدكتور لى • خطأ السياسة الاسبانية • آراء التفكير الاسبانى • تأييد الأحبار لسياسة الابادة • حملة دون لورنثى عليها • رأى الكردينال ريشليو • آراء المؤرخين الاسبان فى مأساة النفى • آراء المؤيدين لوقوعها • تعليقات بعض المنكرين لها • أقوال جانر ولافونتى وبكاتوستى • تعليقات النقد الحديث • أقوال الدكتور لى • أقوال العلامة سكوت • أقوال المستشرق الاسبانى كوندى • تعليق المستشرق لاين بول •

تلك هى قصة الموريسكيين أو العرب المتنصرين : قصة مؤسية تفيض بألوان الإستشهاد المحزن ، ولكن تفيض فى نفس الوقت بصحف من الإباء والبسالة والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب . وقد لبثت السياسة البربرية التى اتبعتها اسبانيا النصرانية واتبعها ديوان التحقيق الإسبانى ، إزاء العرب المتنصرين على كر العصور ، مثار الإنكار والسخط ، يدمغها المفكرون الغربيون ، والإسبان أنفسهم ، حتى يومنا بأقسى النعوت والأحكام .

ويرى النقد الحديث ، أن العمل على إبادة الموريسكيين ، كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها ؛ ولم تنهض اسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة ، بل انحدرت منذ نفى الموريسكيين ، من أوج عظمتها التى سطعت فى عصر شارلكان وفيليب الثانى ، إلى غمرة التدهور والإنحلال التى مازالت تلازمها حتى عصرنا .

بل ترجع عوامل هذا الإنحلال ، إلى ماقبل مأساة الموريسكيين ببعيد ، أو بعبارة أخرى إلى السياسة التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، نحو الأمة الأندلسية ، منذ بداية عصر الغلبة والفتح ، فى أوائل القرن الثالث عشر . فقد كانت القواعد والولايات الإسلامية الزاهرة ، تسقط تباعاً فى يد اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت

تفقد فى نفس الوقت أهميتها العمرانية والإقتصادية ، إذ كانت العناصر الإسلامية الذكية النشيطة من السكان ، تغادرها إلى القواعد الإسلامية الباقية ، فراراً من عسف النصارى ، وتغادرها حاملة أموالها وفنونها وصنائعها ، تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الإقتصادى . واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين ، حتى سقطت غرناطة ، واحتشدت البقية الباقية من الأمة الأندلسية فى المنطقة الجنوبية ، وفى بعض القواعد الأندلسية القديمة ، مثل بلنسية ومرسية ، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده ، جموع غفيرة من المسلمين إلى إفريقية ، واستحالت الأمة الأندلسية غير بعيد ، إلى شعب مهيض ممزق هو شعب الموريسكيين أو العرب المتنصرين . ومع ذلك فقد لبثت هذه الأقلية الأندلسية المضطهدة ، عاملا خطيراً فى اقتصاد اسبانيا القومى ، وفى ازدهار زراعتها وتجارتها وفنونها وصناعاتها . وكان الموريسكيون يحملون الكثير من تراث الأمة المغلوبة ، وإلى نشاطهم ودأبهم ، يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التى يملكها السادة الإقطاعيون . فلما اشتد بهم الإضطهاد والعسف ، وأخذت يد الإبادة تعمل لتمزيق طوائفهم ، وسحق نشاطهم وقتل مواهبهم ؛ ولما اتخذت اسبانيا النصرانية أخيراً خطوتها الحاسمة باخراجهم ، كانت الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها ، فانحط الإنتاج الزراعى الذى برع الموريسكيون فيه ، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدى الماهرة ، وكسدت التجارة التى كان الموريسكيون من أنشط عناصرها ، وركدت ريح الصناعة ، وعفت كثير من الصناعات التالدة التى كانوا أساتذتها ، وغاضت الفنون الرفيعة التى استأثروا بها منذ أيام الدولة الإسلامية . وأحدثت هذه العوامل بمضى الزمن نتائجها المخربة ، فتناقص عدد السكان ، وانكمشت المدن الكبيرة ، وذوى عمرانها ، وتضاءلت موارد الخزينة العامة ، وشلت جهود الإصلاح والتقدم ، ولم يمض على إخراج الموريسكيين زهاء قرن ، حتى أصبح سكان المملكة الإسبانية كلها ستة ملايين ، وكان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة سبعة ملايين ، وفقدت معظم المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة أربعة أخماس سكانها ، وعم الفقر والخراب مئات المناطق والمدن ، وخيم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال .

وإذا كان النقد الحديث ، ينوه بخطورة السياسة التى اتبعتها اسبانيا ، فى إبادة

الأمة الأندلسية ونفى الموريسكيين . كعامل قوى الأثر فيما أصاب اسبانيا من أسباب الدمار والبؤس والانحطاط ، التى لم تبرأ منها حتى عصرنا . فانه يعتمد فى هذا الرأى على طائفة من النتائج المادية والأدبية ، التى ترتبت على « النفى » وحرمان اسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية ، التى كانت تتمتع بها الأمة الأندلسية .

وقد ظهرت هذه الآثار المخربة ، بالأخص فى محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور إيراد الضياع الكبيرة ، وإيراد الكنائس والأديار ، دليلا على ما أصاب قوة اسبانيا المنتجة ، الزراعية والصناعية ، بسبب نفى طائفة كبيرة ، من أنشط طوائف السكان وأغزرهم إنتاجاً . وكان من الحقائق المعروفة أن السكان الإسبان ، كانوا يبغضون الأعمال الزراعية والفنية ، ويعتبرونها أمراً شائناً ، وان الإسبانى لا يربى أولاده لمزاولة العمل الشريف ، وأن أولئك الذين لا يجدون عملا فى الجيش أو الحكومة ، يلتحقون بالكنيسة . ويبدى المؤرخ الإسبانى الكبير ناقاريتى أسفه لوجود أربعة آلاف مدرسة فى عصره ، يتعلم فيها أبناء الفلاحين ، بينما تهجر الحقول ، ولأن أولئك الذين لا يجدون منهم عملا فى الكنيسة لنقص تعليمهم ، يحترفون التسول أو التشرد أو السرقة . وقد كتب سفراء البندقية فى القرن السادس عشر إلى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق ، ويصفون الإسبان بأنهم زراع وعمال كسالى ، يحتقرون العمل اليدوى ، حتى أن ما يمكن تلافيه فى البلاد الأخرى فى شهر ، يعمله الإسبان فى أربعة أشهر (١) .

وقد كان النبلاء والأحبار ، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون فى تعهد أراضيهم وفلاحتها ، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم ، فلما وقع النفى جمد النشاط الزراعى ، وخلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان ، ولاسيما فى منطقة بلنسية ، واضطر النبلاء إلى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنيه وقطلونية ؛ ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ فى غلات الضياع الكبيرة ، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الأراضى التى نزعت ، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها ؛ وحاق بهم الضيق حتى اضطر العرش إلى منح كثيرين منهم نفقات سنوية من خاصة

---

(١) Lea : The Moriscos ; p. 379-381

أمواله ، هـذا فضلا عما أصاب طوائف السكان الأخرى ، التى كانت تتصل بالموريسكيين فى المعاملات والتبادل من العسر والضيق .

وكما انحط دخل الكنائس والأديار ، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيراً من دخله ، مما كان يصيبه من مصادرة أموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة ، واضطرت الحكومة أن تعول كثيراً من محاكم التحقيق ، التى أوشكت على الإفلاس ، من جراء اختفاء الجماعة التى كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء أموالها . وقد بيعت أملاك الموريسكيين وأراضيهم بمبالغ كبيرة ، ولكن الملك استولى عليها ، ووزع معظمها على أصفيائه من الوزراء والنبلاء والأحبار ، ولم ينل ديوان التحقيق سوى جزء يسير منها .

ويقدمون مثلا لما أصاب اسبانيا من الخراب من جراء « النفى » ، هو مثل مدينة ثويداد ريال عاصمة لامنشا ، فقد أسس هذه المدينة الفونسو الحكيم فى القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطاً حرة مغرية ، شجعت كثيراً من اليهود والمسلمين على النزوح إليها . وفى سنة ١٢٩٠م كان دافعو الضرائب فيها من اليهود (٨٨٢٨) ، فلما أخرج اليهود منها فى سنة ١٤٩٢ ، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة ، ولما أخرج منها هؤلاء مع المدجنين القدماء ، خربت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها ، وخربت صناعة النسيج التى أنشأها الموريسكيون فيها ، وهبط عدد سكانها فى سنة ١٦٢١ إلى ٥٠٦٠ نفساً ونحو ألف أسرة فقط ، فى حين أنها كانت تضم من السكان قبل « النفى » اثنتى عشرة ألف أسرة (١) .

وكان مما ترتب على نفى الموريسكيين أيضاً ، ذيوع العملة الفضية الزائفة ، وقد تركوا وراءهم منها مقادير عظيمة ، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة . وأحدث ذيوع النقد الزائف اضطراباً شديداً فى المعاملات ، وحاولت الحكومة جمعه ، والمعاقبة على ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الإعدام ، ولكنها لم تفلح فى استئصال الشر ، واستمرت هذه الحركة أعواماً طويلة ، وعمد الإسبان بدورهم إلى التزييف ، وعوقب كثير منهم أمام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية ، وعانى التجار والمتعاملون كثيراً من الضرر والإرهاق .

---

(١) Lea: The Moriscos ; p. 372-384

ولم تمض أعوام قلائل على نفى الموريسكيين ، حتى ظهرت هذه الآثار المخربة كلها فى حياة المجتمع الإسبانى بصورة مزعجة ، وهال العرش والحكومة ما أصاب الأمة من ضروب البؤس والخراب ، وطلب رئيس الحكومة الدوق دى ليرما فى سنة ١٦١٨ ، إلى مجلس الدولة ، أن ينظر فى هذا الأمر ، ويعمل على تحقيقه ومعالجته ؛ وقدم مجلس الدولة تقريره بعد عام ، وأشير فيه إلى خراب المدن والقرى ، ولكنه لم يشر إلى نفى الموريسكيين ، وإلى تكاثر عدد رجال الدين وتزييف العملة ، وبغض الشعب للعمل الشريف ؛ بل حاول أن يرجع الشر إلى فداحة الضرائب ، وإلى الترف الذى تعيش فيه الطبقات الممتازة ، وإسراف الملك فى الإغداق على أصفيائه ؛ وكذلك اهتم مجلس النواب (الكورتيس) بالأمر وقدم عنه تقريراً إلى الملك . ومع أن التقارير الحكومية التى وضعت عن هذه المحنة ، لم تشر إلى نفى الموريسكيين كعامل أساسى فيما أصاب اسبانيا من الخراب والفقر ، فقد كان فى القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة . ففى سنة ١٦٢٢ أصدر الملك فيليب الرابع ، قراراً بخفض الضرائب فى بلنسية يشير فيه إلى هجرة السكان ، وإلى ما خسرته المدينة من ضروب الدخل ، التى كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون ، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم .

على أن جهود العرش والحكومة ، لم تجد شيئاً فى تخفيف هذه الضائقة ، التى طافت بالمجتمع الإسبانى ، وشملت سائر الطبقات سواء فى الإنتاج أو الاستهلاك . ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الأحوال نوعاً ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التى أصابتها .

يقول الدكتور لى : « إنه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون ، فى القيام بقسط عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية فى البلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ ، دون أن يبث ذلك الخراب الواسع ، ويثير معتركاً من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة » .

ثم ينعى على السياسة الإسبانية تخبطها وقصر نظرها فيقول : « وإنه لمن خواص السياسة الإسبانية فى ذلك العصر ، أنه لم يفكر أحد فى هذه الشئون ، ولم يحتط لها أحد فى المباحثات الطويلة ، التى جرت فى قضية الموريسكيين . وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التى ينفذ بها النفى ،

وماذا يسمح به للمنفيين ، وماذا يكون مصير الأطفال . ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو مايوضح فشل السياسة الإسبانية » (١).

تلك هى النتائج المادية الواضحة ، الإقتصادية والاجتماعية ، التى جنتها اسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لإبادة الأمة الأندلسية . فقد لبثت اسبانيا زهاء قرن ، تعمل بأقسى وسائل الإرهاق والمطاردة ، على استصفاء ما بقى من فلول الأمة الأندلسية ، فى الأرض التى بسطت عليها زهاء ثمانية قرون ، ظلال الرخاء والأمن ، وضوء العلم والعرفان ، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول ، إلى شراذم معذبة مهيضة ، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها ، أن تبقى عليها ، وعلى ما تبقى لها من مواهب وقوى منتجة ، ورأت فى سبيل أسطورة من التعصب والجهالة ، أن تقضى عليها بالتشريد والنفى النهائى ، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من أفضل العناصر العاملة . وكان من سوء طالع اسبانيا أن جاء نفى الموريسكيين ، فى وقت أخذت فيه عظمة اسبانيا ورخاؤها ، ينحدران سراعاً إلى الحضيض ، وجنح المجتمع الإسبانى إلى حياة الدعة والخمول ، وأخذ سكانها فى التدهور ، فجاء نفى الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية اسبانيا ، التى أخذت فى التفكك والذبول ، وتركت وراءها جرحاً عميقاً لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة . ومن ثم فانه من الواضح أن يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفى الموريسكيين ، ويعتبره عاملا بعيد المدى فيما أصاب اسبانيا الحديثة ، من ضروب التفكك والإنحلال .

على أن التفكير الإسبانى يختلف فى قبول هذا الرأى وتقدير مداه ؛ ويهاجمه وينكره بالأخص رجال الدين ، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة ، وأكبر العاملين على تنفيذها . وقد استقبل رجال الدين نفى الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى ، واعتبروه ذروة النصر الدينى ؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا Bleda وهو مؤرخ معاصر فى تاريخه : « بأن عصر اسبانيا الذهبى بدأ بذهاب الموريسكيين ، وان اسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وأنقذت من مشاغلها الداخلية ، وأن النفى كان أعظم حادث بعد بعث المسيح ، واعتناق اسبانيا للنصرانية».

---

(١) Lea : The Moriscos; p. 387

ويقول حبر آخر : «لقد زعم الموريسكيون أن رخاء اسبانيا قد ذهب منذ أكرهوا على التنصير ، ولكن الرخاء قد عم بنفيهم ، وازدهرت التجارة ، وساد الأمن فى الداخل والخارج»(١) . ويقول الحبر ڤتشنتى دى لافونتى فى تاريخه الدينى أنه من السخرية أن يقال إن نفى الموريسكيين كان سبباً فى انحطاط اسبانيا ، فان أمة قد تفقد مائة وخمسين ألفاً فى وباء أو حرب أهلية . ثم يتساءل فى تهكم لماذا ينحى على فيليب الثالث بمثل هذا اللوم ؟ على أنه يعترف مع ذلك بأن النفى كان سبباً فى تدهور دخل الأشراف والكنائس (٢) .

ويرى آخرون من الأحبار أن اسبانيا قد دفعت بالنفى ثمناً باهظاً ، ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون إن وفرة الرخاء تذهب بالفضائل ، وإنه لابأس من التقشف مع الإيمان ، وإن الفقراء استطاعوا بعد إجلاء الموريسكيين أن يجدوا أعمالا(٣).

ولكن حبرا ومؤرخا اسبانيا كبيراً ، هو دون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق ، يحدثنا عن وسائل الديوان ونفى الموريسكيين فى قوله : «كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة ، تذكى روح الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية ، وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية ، وهو ما كانت تؤدى إليه معاملتهم بشىء من الإنسانية ، يزدادون مقتاً لدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة ، وكان هذا سبب الإضطرابات التى أدت فى سنة ١٦٠٩ إلى نفى هذا الشعب ، وعدده يبلغ المليون يومئذ ، وهى خسارة فادحة لاسبانيا تضاف إلى خسائرها الفادحة ، ففى مائة وتسع وثلاثين سنة انتزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ، مابين يهود ومسلمين وموريسكيين» (٤) .

ويقول الكردينال ريشليو الفرنسى ، وهو من أعظم أحبار الكنيسة فى مذكراته وكان معاصراً للمأساة : « إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية » .

* * *

وكذا اختلفت آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان فى تقدير آثار النفى اختلافاً

---

(١) Lea : The Moriscos; p. 366

(٢) Lea: ibid, p. 394 & 396

(٣) Lea: ibid, p. 367

(٤) Llorente: Histoire Critique de l'Inquisition d'Espagne

بيناً . فبينما يرى البعض أن النفى كان إجراء طبيعياً ، وضروره لا محيص منها ، وينكر القول بأنه كان كارثة ، إذا بالبعض الآخر ينوه بفداحة الكارثة وفداحة آثارها المخربة ، ويعتبرها عاملا قوياً فى تدهور اسبانيا وانحلالها .

فمثلا يقول دانفيلا أى كولادو : « إن فلسفة الواقعة تتخلص فى أن الإنسانية والدين ، اشتبكا فى معركة انتصر فيها الدين ، فلم يك ثمة سبيل لرحمة الموريسكيين . ولكن الوحدة الدينية سطعت سطوعاً رائعاً فى سماوات اسبانيا . وما أسعد أمة تشعر كأنها شخص واحد فى مشاعرها العظيمة ، وإنها لخرافة تاريخية أن يقال إن الموريسكيين كانوا عنصراً مفيداً فى إنتاج اسبانيا ، ولو أنهم كانوا كذلك لحملوا الرخاء إلى بلاد المغرب حيث ذهبوا » (١) .

ويقول ميننديس دى بلايو : «إن الواقعة إن هى إلانتيجة محتومة لقانون تاريخى . وموضع الأسف فيها ، أن وقوعها تأخر كثيراً . فقد عمرت بلنسية بسرعة ، وتعلم السكان الجدد الزراعة ، واحتفظ بخطط الرى البديعة حتى عصرنا . ومن الخطأ أن ننسب لهذه الواقعة تدهور الصناعة التى لم يأخذ الموريسكيون بقسط كبير منها . أما انحطاط اسبانيا فقد حدث قبل ذلك بقرن أعنى منذ اكتشاف أمريكا ، وهو الذى حول اسبانيا إلى بلد من المغامرين ، ثم إلى بلد من السادة المتسولين » (٢) .

أما جانر Janer فيرتفع بالعكس فى تقديره لنشاط الموريسكيين وبراعتهم فى الفنون والصناعة والزراعة ، ويتفق مع كامبومانس فى كون انحطاط الصناعات الإسبانية يرجع إلى نفى الموريسكيين ، ويقول : « إن بلاد العرب الغناء (ويعنى اسبانيا) قد حولت إلى بلاد العرب القفراء ، وحل بها القحط فى كل مكان ، وخيم الركود والصمت المحزن ، مكان النشاط والحركة ، وحل محل الرواد والسياحة ، قطاع الطرق يغمرونها ، ويجدون ملاذهم فى القرى المهجورة » . على أنه يرى مع ذلك أن النفى كان فقط أحد الأسباب التى أدت إلى تدهور السكان وانحطاط البلاد ، وقد كانا يعملان عملهما حينما وقع النفى ، فأذكى من عصفهما ، وعجل بوقوع الخراب . ذلك أن الشعب المحكوم عليه ، كان من أبرع الناس فى الزراعة والصناعة ، وأوفرها

---

(١) Lea: The Moriscos; p. 395

(٢) Lea: Ibid, p. 395

إنتاجاً للأرض ، ولكن النفى كان بالرغم من ذلك ضرورة دينية وسياسية ، واليوم تغدو الوحدة الدينية أسطع جوهرة للأمة الإسبانية (١) .

ويرى موديستو لافونتى مؤرخ اسبانيا الحر فى تاريخه العام ، أن النفى كان أشنع إجراء يمكن تصوره من الناحية الإقتصادية ، وأنه أنزل بالثروة القومية الإسبانية ضربة ليس من المبالغة أن نقول إنها لم تنهض منها بعد .

ويقدم لنا بكاتوستى ، الذى عكف على دراسة مشكلات عصر النفى ، فى الموضوع رأياً يمتاز بدقته وطرافته . فهو يعتبر نفى الموريسكيين أعظم الكوارث ، ويرى تبعة فيليب الثالث وأسلافه ، فى أنهم لم يحافظوا على مصالح الموريسكيين المادية ، وأنهم لم يكن لديهم من القوة مايكفى لقمع نزعاتهم الثورية ، وأن مضاعفة الضرائب واحتقار العمل والإضطهاد الدينى ، وعسف محاكم التحقيق ، كانت تذكى سخطهم على حكومة ضعيفة قصيرة النظر ، حتى أصبح هذا العلاج المغرق ضرورة لامحيص عنها . وقد ارتكب الكتاب والمؤرخون الذين دافعوا عن النفى ، أكبر الخطأ ، لأنهم نظروا فقط إلى ضرورة الساعة . ونحن إذا كنا نقر بضرورته السياسية ، فلسنا ننسى أن هـذا الإجراء المحزن كان نتيجة لأخطاء الحكومة . أما عن نتائجه فان تخلى الموريسكيين عن الزراعة ، وعن عديد الفنون والصناعات ، وما كان ينظر به إلى هذا الشعب وصناعاته من ضروب الإحتقار ، وتخبط حكومة لم تبذل جهداً لإيجاد البديل لهذه الصناعات ، وزيادة الضرائب لسد العجز الناشىء عن النفى ، كانت من أهم عوامل البؤس الذى حل باسبانيا ، وهو بؤس قد انتهى إلى درك لم ينحدر إليه أحط أجناس البشر ، هذا بينما كان البلاط يعج بأبهى الحفلات وأعظمها بذخاً (٢) .

ويعلق العلامة الدكتور لى ، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع على آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان بقوله :« إذا كان نفى الموريسكيين كما يقول مينندس دى بلايو ، نتيجة محتومة لقانون تاريخى ، وإذا كان قد غدا ضرورة فى عهد فيليب الثالث ، فقد كانت ضرورة مصطنعة ، خلقها تعصب القرن السادس عشر ، وإذا

---

(١) Lea: ibid; p. 395 & 396

(٢) بكاتوستى Picatoste فى كتابه عن عظمة اسبانيا واضمحلالها ونقله : Lea: ibid; p. 396

كان وجود المدجنين ، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراجون فى الأراضى الإسبانية ، من الأمور المأمونة ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه زعماء اسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطرمة ، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية ، وإذا كان فى وسع الملوك النصارى فى هذه العصور المضطربة ، أن يركنوا إلى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب ، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم ، فان الضرورة السياسية للوحدة الدينية ، بعد أن غدت اسبانيا دولة قوية موحدة ، وغدا المسلمون طوائف ممزقة ، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال المغرق الذى يخلقه التعصب. وقد كان هذا التعصب ، نتيجة لتعاليم الكنيسة المستمرة . وهى التعاليم التى اعتنقتها اسبانيا مذ غدت قوة عالمية . وما أن انحدرت اسبانيا إلى طريق التعصب ، حتى دفعه توقد المزاج الإسبانى إلى نهايته المحتومة باكتمال لانظير له . ولما قضت غطرسة الكردينال كمنيس العنيفة ، على ثقة المسلمين فى عدالة اسبانيا وشرفها ، اتخذت الخطوة المحتومة فى طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة . . . ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء فى الداخل ، حملوا بكل وسيلة على بغض دين فرض عليهم بالقوة ، وتبلورت مثله فى الظلم والاضطهاد وفظائع ديوان التحقيق ، وكان من المستحيل فى ظل المؤثرات الدينية ، التى غلبت على السياسة الإسبانية ، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح ، وبهما فقط كان يمكن العمل على إرضائهم ، وتحقيق رخائهم ، وبث محبة النصرانية فى قلوبهم . وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف ، تزيده سوءاً حتى غدوا إغراء دائماً لاتصال كل عدو من الخارج ، ومثاراً دائماً لجزع السياسة الإسبانية . فلما اضمحلت قوة اسبانيا ، وفقد حكامها الثقة بالنفس ، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم ، بالنفى والإبعاد . وقلما يقدم لنا التاريخ مثلا ، كوفئت فيه السيئة بأمثالها ، وطمت كوارثه ، كذلك الذى ترتب على جهود الكردينال كمنيس بما يطبعها من تعصب مضطرم » .

ثم يقول : « على أنه مهما كان من فداحة الضربة ، فقد كان من الميسور تداركها بسرعة لو أن اسبانيا كانت تملك الحيوية القوية ، التى مكنت أمماً أخرى من أن تنهض من كوارث أشد . إن انحلال اسبانيا لايرجع فقط إلى خسارتها لجزء من السكان ، بنفى اليهود والعرب المتنصرين ، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه

الخسارة ؛ ولكن الخطب يرجع إلى أن اليهود والعرب المتنصرين كانوا من الناحية الإقتصادية أقيم عنصر بين سكانها ، وكان نشاطهم معيناً لحياة الآخرين ، وبينما كانت أمم أوروبا الأخرى تنهض وتسير إلى الأمام فى مضمار التقدم ، كانت اسبانيا وشعارها أن تضحى كل شىء فى سبيل الوحدة الدينية ، تنحدر سراعاً إلى غمر البؤس والشقاء ، وتغدو جنة للأحبار والقساوسة ، وعمال ديوان التحقيق ، تخمد فيها كل نزعة إلى الرقى العقلى ، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجى ، ويشل فيها كل جهد يبذل فى سبيل التقدم المادى . وقد كان من العبث أن تنهمر ثروات العالم الجديد ، إلى أيدى شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أى شعب آخر ، وإلى أرض كانت مواردها عظيمة ، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم فى طليعة الأمم الأوربية ازدهاراً . ومهما كانت قيمة الخدمات التى أدتها إيزابيلا الكاثوليكية والكردينال كمنيس ، فان السيء فى عملهما يفوق الحسن ، لأنهما علما الأمة أن الوحدة الدينية هى أول غاية يجب تحقيقها ، وقد ضحت فى سبيل هذه الغاية برخائها المادى ورقيها العقلى » (١) .

وأخيراً يجمل الدكتور لى خلاصة بحثه المستفيض فى مأساة الموريسكيين فى هذه العبارة الموجزة القوية : « إن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التى اتحدت لتنحدر باسبانيا فى زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى » (٢) .

ويقول العلامة سكوت : « لقد كانت نتائج هذه الجريمة التى ارتكبت ضد الحضارة ، سواء البعيد منها والمباشر ، ضربة لاسبانيا . فقد عصفت بموارد عيشها ، ودفع بها القحط إلى الخراب ، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث إلى كثير من الأسر النبيلة ، التى أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحارى ، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة ، كان يغمرها الخصب الأخضر ، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراع والصناع ، وحل الجزاء المروع عقب

---

(١) Lea: The Moriscos; p. 395-397 & 399-401

(٢) Lea: The Moriscos p. V.

مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى ، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالأمة التى ارتكبت فظائعها ، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الأخير » (١) .

وكان المستشرق الإسبانى كوندى ، وهو أول من عنى من الإسبان بدرس المصادر العربية والحضارة الأندلسية ، أشد كتاب اسبانيا المحدثين حماسة فى تقدير تراث الأمة الأندلسية وما أصاب اسبانيا من جراء القضاء عليها . وهو يعلق فى خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين فى تلك العبارات الشعرية المؤثرة :

« وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكى المستنير ، الذى أحيى بهمته وجده تلك الأراضى ، التى أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجدب ، فدر عليها الرخاء والفيض ، واحتفر لها عديد القنوات ، ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد معاً ، عرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس ، فى مدنه صرحاً خالداً من الأنوار ، التى كان ضوؤها المنبعث ينير أوربا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ، والذى كان روحه الشهم يطبع كل أعماله بطابع لانظير له من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه فى نظر الخلف ، لوناً غامضاً من العظمة الخارقة ، ودهاناً سحرياً من البطولة ، يذكرنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فيهم أنصاف آلهة اليونان .

ولكن شيئاً لا يدوم فى هذا العالم . فان هذا الشعب قاهر القوط ، الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون ، إلى أقصى الأجيال ، قد ذهب ذهاب الأشباح ، وعبثا بسائل اليوم السائح الفريد ، قفار الأندلس المحزنة ، التى كان يعمرها من قبل شعب غنى منعم . ظهر العرب فجأة فى اسبانيا ، كالقبس الذى يشق عباب الهواء بضوئه ، وينشر لهبه فى جنبات الأفق ، ثم يغيض سريعاً فى عالم العدم ، ظهروا فى اسبانيا فملأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم ، وأظلها كوكب من المجد شملها من البرنيه إلى صخرة طارق ، ومن المحيط إلى شواطىء برشلونة . ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاستقلال ، وخلقاً متقلباً يميل إلى الخفة والمرح ، ونسيان الفضائل القديمة ، وميل نكد إلى التمرد والثورة ، يثيره دائماً خيال ملتهب ، وشهوات وأطماع عنيفة ، ونزعة إلى التغلب وغيرها ، من عوامل الإضمحلال ، قد عملت شيئاً فشيئاً ، على

---

(١) Scott: The Moorish Empire in Europe; V. III. p. 328

هدم ذلك الصرح العتيد ، الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد ابن الأحمر ، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية ، فلت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء . .

خرج ملايين العرب من اسبانيا ، حاملين أموالهم وفنونهم ، ثروات الدولة ، فماذا أنشأ الإسبان مكانهم ؟ لانستطيع أن نجيب بشيء ، إلا أن حزنا خالدا يغمر هذه الأرض ، التى كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع . أن ثمة بعض الآثار المشوهة ، ما زالت تقوم فى هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الأطلال الدارسة : الشرف والمجد للعربى المغلوب ، والانحلال والبؤس للاسبانى الظافر »[1].

ويقول الأستاذ لاين پول فى مقدمة كتابه عن « العرب فى اسبانيا » : « لبثت اسبانيا فى يد المسلمين ثمانية قرون ، وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوربا ، وازدهرت بقاعها الخصبة بمجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير ، فلم يبق ثمة مايذكرنا بماضيها المجيد ، سوى الأسماء والأسماء فقط — وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون ، دون سائر الأمم الأوربية ، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفلكية والنباتية ، والتاريخ والفلسفة والتشريع ، إلا فى اسبانيا المسلمة ، فكل ما يدعو الى عظمة أمة وسعادتها ، وكل ما يؤدى إلى رقى باهر وحضارة سامية ، فاز به مسلمو اسبانيا .

ثم ذوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية ، فوق الأرض التى كان ينعشها بحرارته . ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وإيزابيلا ، وشارل الخامس ، وفيليب الثانى ، وكلومبوس وكورتيس وبيزارو ، لتموت بموتها دولة عظيمة ، ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التحقيق ، وسادت اسبانيا بعد ذلك ظلمة حالكة ؛ فأصبح لايعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور . . . وقضى على فنون إشبيلية وطليطلة وألمرية وعفت صناعاتها ، ومحقت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام ، وخربت المدائن الكبيرة ، وذوت نضرة الوديان الخصبة ، فحل البؤساء والدهماء واللصوص ، مكان الطلاب والتجار والفرسان : ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد إقصائها العرب ، وهكذا يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها »[2].

---

(١) كوندى فى تاريخه : الترجمة الفرنسية (بقلم De Marlès) الجزء الثالث ص ٤٠٤ — ٤٠٦

(٢) Lane-Poole: The Moors in Spain

الكتاب الرابع

نظم الحكم

والحياة الإجتماعية والفكرية

فى مملكة غرناطة

obeikandl.com

الفصل الأول

نظم الحكم فى مملكة غرناطة
وخواصها الإجتماعية

مكانة الحضارة الأندلسية • ذوبها عقب إنهيار الخلافة • انتعاشها أيام الطوائف • ركودها أيام المرابطين وانتعاشها أيام الموحدين • ابن ميمون وابن رشد • الاضطهاد الفكرى أيام الموحدين • الآداب والفنون فى هذا العهد • مملكة غرناطة وخواصها الطبيعية • دولة بنى الأحمر أو الدولة النصرية • شعارها الحكم المطلق • الوزراء الطغاة • أخطار هذا النظام • حمية الشعب الغرناطى • مناصب الحكم الرئيسية • الوزارة والكتابة • قيادة الجيوش • الجيش والأسطول • قاضى الجماعة أوقاضى القضاة • الحسبة. صاحب الشرطة • اقليم غرناطة ومواردها • تقدم الرى والزراعة • غرس الحدائق • بسائط غرناطة • الصناعات الأندلسية • التجارة الخارجية • الموارد السلطانية • الضرائب • تكوين الأمة الأندلسية • أحوال المجتمع الأندلسى • الفروسة الأندلسية •

تعرض لنا الحضارة الأندلسية ، صفحة من أجمل وأروع صحف الحضارة الإسلامية ، والحضارة الإنسانية ، بصفة عامة . وقد نشأت حضارة الإسلام فى الأندلس فى بيئة وظروف خاصة ، واكتسبت بفعل المؤثرات التاريخية والإقليمية والإجتماعية ، لونها الخاص ومميزاتها الخاصة .

وتحتل قصة الحضارة الأندلسية ، فى تاريخ الحضارات الأوربية مكانة رفيعة ، وتملأ فراغاً كبيراً . ولكنها لم تنل مع الأسف مكانها من الرعاية والدرس فى المصادر الإسلامية ، ولم تكتب حتى اليوم كتابة شافية . وأغلب ما كتب عنها فى مصادرنا ، شذور ونبذ متفرقة غير متناسقة ، وتراجم لأعلام التفكير والأدب لم يعن فيها بدراسة الجوانب الهامة . وانه لمن الإسراف أن نقول ، إننا نستطيع أن نستعرض هذه القصة الباهرة المتعددة النواحى ، فى فصل أو فصول ، من سفر يخصص لكتابة تاريخ المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية . على أننا سوف نحاول مع ذلك أن نستعرض صور الحضارة الأندلسية فى ظل مملكة غرناطة ، استكمالا لموضوعنا ،

وأن نلقى بذلك شيئاً من الضياء على النظم والأحوال ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية فى مراحلها الأخيرة ، وما انتهت إليه فى ميدان التفكير والآداب والفنون . وكما أن مصادرنا الإسلامية فى هذا القسم من تاريخ الأندلس قليلة ضنينة ، فهى كذلك بالنسبة لصور الحضارة الأندلسية . وقد هلكت معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذا العصر ، كما رأينا على يد الإسبان . ولم يسعفنا فى ذلك سوى بعض الآثار القليلة الباقية ، التى نجت من المحنة ، ولا سيما آثار ابن الخطيب ، وما نقله إلينا المقرى عن آثار ووثائق ضاعت ، وكان له فضل إيصالها إلينا .

*

وإذا كان تاريخ الأندلس السياسى ، يقدم إلينا صوره المتباينة ، من الإضطرام والركود ، والقوة والضعف ، فكذا شأن الحضارة الأندلسية ، فقد وصلت فى ظل الخلافة الأموية فى عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر ، حينما وصلت الدولة الإسلامية إلى أوج سلطانها السياسى ، إلى ذروة القوة والبهاء ، وإن لم تصل يومئذ إلى ذروة نضجها الفكرى . ولما انهارت الخلافة الأموية ، واضمحلت النظم السياسية والإجتماعية ، وسادت الثورة والفوضى أرجاء الأندلس ، وهلكت معظم الآثار العمرانية والفكرية فى غمر الفتنة ، ذوت الحضارة الأندلسية مدى حين ، حتى قامت دول الطوائف فوق أنقاض الدولة الأموية . واستطاعت بالرغم من صغرها ، وتنافسها وتطاحنها فى ميدان الحرب ، أن تعيد لمحة من بهاء الدولة الإسلامية ؛ وسطعت آيات الحضارة الأندلسية فى قصورها ومنشآتها ، وفى مجتمعاتها ، وأينعت فى ظلها دولة التفكير والأدب ؛ وعرفت الأندلس فى هذه الحقبة المضطربة من تاريخها ، طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها ، مثل الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) وابن حيان أعظم مؤرخى الأندلس . وقد توفى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) وتلميذه الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) . ومن الأدباء والشعراء ، ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) وابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) وعشرات آخرين من الكتاب والشعراء ، يقدمهم إلينا الفتح بن خاقان فى مؤلفه « قلائد العقيان » . بل لقد كان ملوك الطوائف أنفسهم فى طليعة العلماء والأدباء والشعراء ، مثل الأمير العالم عمر بن الأفطس

صاحب بطليوس ، والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية (١) . ولكن سرعان ماانكمشت هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ، عقب مصرع دول الطوائف ، واستيلاء المرابطين على الأندلس فى سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م) . وكان أولئك البربر الصحريون قوماً غلاظاً ، يؤثرون مهاد الجندية والخشونة ، ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة ، ويمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية المصقولة ، فركدت فى ظلهم دولة التفكير والأدب ، وذوى بهاء الحضارة الأندلسية . أجل سطعت فى ظل دولتهم القصيرة بعض الشخصيات اللامعة ، مثل أبى القاسم خلف ابن عباس القرطبى الطبيب الأشهر ، المتوفى سنة ٥١٦هـ (١١٢٢م) وابن باجة الطبيب الفيلسوف ، المتوفى سنة ٥٢٣هـ (١١٢٩م) ، وأبو بكر الطرطوشى الفيلسوف السياسى ، صاحب كتاب « سراج الملوك » ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) ، والفتح ابن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م) ، وابن بسام الشنتمرى صاحب « الذخيرة » المتوفى فى سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م) ، وابن قزمان أمير الموشحات الأندلسية ، المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) . ولكن ظهور هؤلاء وأضرابهم فى هذه الفترة ، لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية والأدبية فى ظل دول الطوائف

وفى ظل دولة الموحدين ، التى خلفت دولة المرابطين فى حكم الأندلس ، انتعشت الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى . وقد نشأ الموحدون كالمرابطين فى مهاد الخشونة والتقشف ، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وأكثر قبولا لثمار التمدن . وكان لدولتهم بالأخص صبغة علمية دينية . إذ كان مؤسسها المهدى ابن تومرت ، من أئمة التفكير الدينى . وأبدى خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث ، وكانت قد صفدت فى عهد المرابطين ، وأفرج عن كتب الغزالى وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت فى أيامهم بالمغرب والأندلس . وفى تلك الفترة بالذات أعنى فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغ التفكير الأندلسى ذروة النضج ، وتفجرت ينابيع النبوغ ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب ، وفى طليعتهم أبو مروان عبد الملك

---

(١) توفى ابن الأفطس قتيلا بيد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ؛ وتوفى ابن عباد فى الأسر سنة ٤٨٨ هـ؛ وتوفى المعتصم بن صمادح فى سنة ٤٨٤ هـ .

ابن زهر الإشبيلى الطبيب ، المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) . وأبو جعفر بن الطفيل الإشبيلى ، المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) . وهو صاحب رسالة حى بن يقظان الشهيرة ، والإمام الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبى ، المتوفى سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) ، والرئيس موسى بن ميمون اليهودى القرطبى ، المتوفى سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٥م) .

وفى حياة ابن ميمون وابن رشد بالأخص ، ما يمثل لنا طرفاً من سياسة الموحدين تجاه التفكير ، وترددها بين التسامح والاضطهاد . فقد كان ابن ميمون من أعظم الأطباء والفلاسفة فى عصره ، ولكنه اضطهد ليهوديته خلال الإضطهاد العام ، الذى لقيه اليهود فى ظل عبد المؤمن خليفة الموحدين ، فغادر الأندلس إلى المشرق . ونزل بمصر وخدم بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين . وندب للتدريس بالقاهرة . وقد كان ابن رشد بلا ريب أعظم فلاسفة الإسلام ومفكريه فى ذلك العصر ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) واتصل منذ فتوته بأبى يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن ، المشرف على شئون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله أعلام المفكرين والعلماء ؛ وبرع ابن رشد فى الفقه والطب والفلسفة ، وتولى قضاء إشبيلية فى سنة ٥٦٥هـ ، ثم ولى قضاء قرطبة ، واستمر زهاء خمسة وعشرين عاماً ، يتقلب فى مناصب القضاء والإدارة ، فى ظل حكومة الموحدين بالأندلس والمغرب . وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص لأبى يعقوب يوسف ، ثم لولده يعقوب المنصور بعد وفاته ، واتهمه بعض خصومه بالزندقة ، فنفى إلى الأندلس بجوار قرطبة ، وفرضت عليه رقابة شديدة ، ثم استرد مكانته فى أواخر حياته . واستدعى ثانية إلى مراكش ، حيث عفا عنه السلطان المنصور . وأعظم آثار ابن رشد هو شروحه لفلسفة أرسطو ، فى المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية فى العصور الوسطى . وقد كان يغمرها الغموض والحلك ، قبل أن يتصدى ابن رشد لشرحها . وغدت شروح ابن رشد فى الوقت نفسه أساساً لكثير من المباحث الفلسفية ، التى ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربى . بل يرى مؤرخو الفلسفة أن الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية ، أكثر مما استمدت من قسطنطينية التى كانت

مستودعاً لتراث الفلسفة اليونانية . ولابن رشد طائفة كثيرة أخرى من الرسائل والبحوث الفلسفية والكلامية .

وكانت الفلسفة على الأغلب علماً خطراً فى ظل حكومة الموحدين . وقد رأيت ما كان من اضطهاد ابن رشد وسجنه بسبب آرائه الفلسفية ، وقد كان من ضحايا هذا الإضطهاد ، فى هذا العصر ، مفكر أندلسى آخر هو ابن حبيب الإشبيلى ، الذى اتهم بالزندقة بسبب آرائه الفلسفية ، أيام المأمون بن المنصور ، وقتل لهذا السبب(١). وهكذا كانت الفلسفة أيام الموحدين قرينة الإلحاد والزندقة ، وكانت خطراً يجتنبه كثير من مفكرى العصر .

وظهر فى تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، جمهرة من أقطاب الأدب والشعر ، مثل أبى القاسم خلف بن بشكوال القرطبى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٣م) ، وهو مؤلف كتاب الصلة الذى ذيل به على كتاب علماء الأندلس لابن الفرضى (٢) وابن بدرون الإشبيلى المتوفى فى فاتحة القرن السابع ، وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة فى رثاء بنى الأفطس ، وابن الصابونى الصدفى الإشبيلى الشاعر ، المتوفى فى سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧م) ، وقد قال ابن الأبار فى حقه « ذهبت الآداب بذهابه ، وختمت الأندلس شعراءها » .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، يومئذ مجمع العلوم والمعارف الرفيعة فى تلك العصور ، وكانت مقصد الطلاب من كل فج ، وكانت مزودة بالمكتبات التى تضم أنفس الكتب والمصنفات ، فى مختلف العلوم والفنون .

وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون ، وأقيمت فى عهدهم فى معظم قواعد الأندلس ، طائفة من المساجد والأبنية الفخمة ، التى تمتاز بجمالها الفنى . وكان يعقوب المنصور حفيد عبدالمؤمن ، من أشدهم شغفاً بالمنشآت الفخمة ، ومن آثاره الشهيرة بالأندلس برج مسجد إشبيلية الضخم ، الذى كان يستعمل لرصد النجوم والذى سمى فيما بعد « بالجيرالدا » Giralda ، وهو مازال قائماً إلى اليوم .

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) وقد نشر ضمن المكتبة الأندلسية فى مجلدين طبع مدريد فى سنة ١٨٨٣

وكذلك تقدمت الزراعة والصناعة والتجارة فى عهد الموحدين . وازدهرت الزراعة بنوع خاص . وارتقت أساليبها الفنية . وتنوعت المحاصيل وانتشرت زراعة الفاكهة . فى أحواز بلنسية وإشبيلية ، وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية . ولا سيما صناعة الأقمشة الممتازة . والصناعات الجلدية . وصناعة الورق وغيرها . وازدهرت التجارة وعم الرخاء . وكانت ثغور الأندلس مثل بلنسية ودانية وإشبيلية وألمرية ، من أعظم مراكز التجارة الخارجية فى هذا العصر .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى ، واجتاحت الثورة معظم القواعد والثغور الأندلسية . ونهض المتغلبون يتنافسون فى اجتناء أسلاب الدولة الذاهبة . شعرت اسبانيا النصرانية بدنو الفرصة السانحة . لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أطراف الأندلس الممزقة . وبدأت قواعد الأندلس التالدة . تسقط تباعاً فى يد النصارى . وشغلت الأندلس بمحنتها الغامرة ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ، ومدافعة المغيرين عليها بكل ما وسعت ، فانكمشت فنون السلم ، وتضاءلت دولة التفكير والأدب ، وإن كانت المحنة قد أذكت لوعة الشعر ، وبعثت إلينا بطائفة جمة من أروع المراثى ، التى مازالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعتها .

— ٢ —

وانجلت الفتن الداخلية ، وانجلى الصراع بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية التالدة ، مثل قرطبة وإشبيلية وبلنسية ، فى يد النصارى ، وانكمشت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت فى الركن الجنوبى الغربى للمملكة الإسلامية القديمة ، فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى برزت من نحر الفوضى ، واستقرت فى رقعتها المتواضعة ، بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وهرعت إليها معظم الأسر الأندلسية القديمة ، التى أبت التدجن والبقاء فى ظل حكم النصارى ، ولم يمض سوى قليل ، حتى غدت مستودع تراث الأندلس القومى والسياسى ، ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى .

وكانت مملكة غرناطة ، بالرغم من صغرها وانكماش رقعتها ، تضم ثروات عظيمة من الموارد الطبيعية ، فالى جانب وديانها الخصبة النضرة ، توجد الجبال تخترقها

من كل صوب ، وبها الكثير من الثروات المعدنية ؛ وتفيض الأنهار والنهيرات العديدة على بسائطها الماء الغزير . وكانت ثغورها وهى ثغور الأندلس الجنوبية ، ولاسيما مالقة وألمرية ، من أغنى الثغور الإسبانية وأزخرها بالحركة التجارية . أما غرناطة عاصمة المملكة ، فقد غدت عقب سقوط القواعد الأندلسية الأخرى فى يد النصارى ، أعظم القواعد الأندلسية الباقية ، وأغناها وأكثرها ازدحاماً بالسكان . وكانت بحمرائها المطلة عليها من ربوتها المنيعة ، وشوارعها الزاخرة ، وميادينها الفسيحة ، وقصورها البديعة ، وحدائقها ومتنزهاتها اليانعة ، من أجمل مدن العصور الوسطى . وكانت غاية فى الحصانة ، سواء بموقعها الطبيعى ، أو بأسوارها الكثيفة ، التى يتخللها ألف وثلاثمائة برجاً منيعاً ، وكانت تضم فى أيامها الزاهرة من السكان مع أرباضها وضواحيها زهاء نصف مليون من الأنفس ، وذلك بما تقاطر عليها من سيل المهاجرين من المدن الأندلسية الأخرى . وكان بوسع العاصمة وقت الحرب ، أن تعبىء وحدها زهاء خمسين ألف مقاتل ، وكانت أبهاء قصر الحمراء تتسع وحدها لأربعين ألف رجل(١) .

وقد رأينا كيف نشأت مملكة غرناطة ، على يد رجل ذى عبقرية هادئة ولكن واسعة الأفق ، هو محمد بن الأحمر ، زعيم بنى نصر ، وكيف استمر أعقابه يتوارثون عرش غرناطة أكثر من قرنين ، حتى سقطت فى أيدى النصارى . وتسمى دولتهم بالدولة النصرية أو دولة بنى الأحمر ، وقد تسمى زعيمهم ومؤسس دولتهم بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى كان يتسم به ملوك العدوة فى تلك العصور ، وغلب هذا اللقب على سلاطين غرناطة حتى نهاية دولتهم .

وكان ملوك بنى نصر ، كسائر ملوك العصور الوسطى ، يدينون بمبدأ الحكم المطلق ، ولا يرون له بديلا . على أنه فى وقت الخطر العام والأحداث الخطيرة ، كان السلطان يستعين برأى الزعماء والقادة ذوى العصبية والتوجيه . وكان السلطان يستأثر بكل سلطة حقيقية ، ويباشر مهام الأمور بنفسه ، إلا فى فترات قليلة يستأثر بالسلطة فيها وزير قوى ، كما حدث فى عهد السلطان ابى عبد الله محمد الملقب بالمخلوع (٧٠١ — ٧٠٨ هـ) ، حيث استأثر بالحكم وزيره أبو عبد الله ابن الحكيم

(١) Prescott. Ferdinand and Isabella; p. 189.

اللخمى . وعهد السلطان أبى عبد الله محمد بن إسماعيل (٧٢٥ — ٧٣٣ هـ) ، حيث استبد بالحكم دونه وزيره ابن المحروق ، وعهد أخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ — ٧٥٥هـ) حيث استبد بالحكم الحاجب أبو النعيم رضوان ، ثم فى عهد السلطان الغنى بالله (٧٥٥ — ٧٩٣هـ) حيث استبد بالحكم حيناً وزيره ابن الخطيب. وكان نظام الطغيان الذى يفرضه الوزير المتغلب ، ينتهى فى كل مرة بانقلاب عنيف ، ويستعيد السلطان سلطته الحقيقية ، فى غمرة من الحوادث الدموية .

وكان هذا النظام المطلق الذى يسود حكومة غرناطة ، يؤدى إلى نشوب الثورة فى أحيان كثيرة ، ويذكى من عواملها فى الوقت نفسه ، تطاحن الأحزاب فى البلاط والجيش . وكان هذا النظام يتطور أحياناً فى ظل الملوك الضعاف إلى نوع من الإقطاع ، ويستأثر بعض الزعماء الأقوياء والأسر ذات العصبية ، بحكم المدن والثغور. وكان الشعب الغرناطى سريع التقلب والغضب ، يأخذ فى الثورات والإنقلابات السياسية بأعظم قسط .

وكانت مناصب الحكم الرئيسية فى حكومة غرناطة ، تنحصر فى الوزارة وقيادة الجيوش والقضاء . فأما الوزارة فكانت تسند غالباً إلى أحد الأعلام من رجال القلم ، وبين وزراء الدولة النصرية ثبت حافل من هؤلاء ، مثل ابن الحكيم اللخمى ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك ، وكلهم من أقطاب الكتابة والشعر . وكان الوزير — وفى فترات نادرة يسمى الحاجب — يستعين بطائفة من « الكتاب » لتنفيذ مختلف المهام . وللسلطان كاتب سر أو أمين خاص . وكثيراً ما يرتقى « الكاتب » إلى منصب الوزير ، ويعتبر الوزير رأس الدولة التنفيذية الحقيقية ، وهو الذى يشرف سواء بطريقة مباشرة أو بتوجيه سلطانه القوى ، على تصريف شئون المملكة ، وتوجيه سياستها الداخلية والخارجية .

وأما قيادة الجيوش ، فكانت أهم المناصب فى دولة تواجه إغارة العدو على أراضيها باستمرار . وكان يختص بهذا المنصب الخطير ، منذ أواخر القرن السابع الهجرى أسرة بنى العلاء ، أحد بطون بنى مرين ملوك العدوة ، وكان توليهم لقيادة الجيوش الأندلسية ، نتيجة للتحالف التى توثقت أواصره بين بنى الأحمر وبنى مرين عصراً (١). وقد اشتهر أولئك القواد المغاربة بالبراعة والشجاعة ، وكانت لهم فى ميادين

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .

الحرب والجهاد مواقف مشهودة . وكان المتولى لمنصب القيادة العامة يلقب بشيخ الغزاة ، وكانت الجنود المغربية عنصراً بارزاً فى الجيش الأندلسى ، وقد تخلفت بالأندلس منذ أيام المرابطين والموحدين جموع كثيرة من البربر (١) ، وكانوا لبداوتهم وخشونتهم يؤثرون الحياة العسكرية على الحياة المدنية . وقد زاد عددهم بالأخص أيام عبور الجيوش المرينية إلى الأندلس . وبالرغم مما أداه القواد والجند المغاربة لمملكة غرناطة ، من الخدمات الجليلة فى ميدان الحرب ، فقد كانوا أحياناً خطراً على النظام والعرش ، وكان لبنى العلاء شيوخ الغزاة أطماع سياسية ، ظهرت خطورتها فى بعض الثورات والإنقلابات العنيفة .

وقد كانت قوة غرناطة العسكرية ، فى الواقع عماد حياتها ، التى استطالت أكثر من قرنين ، وذلك بالرغم من القوى الجرارة المعادية ، التى لبثت باستمرار ترهقها ، وتستنفد مواردها . وكان الجيش الأندلسى ، فضلا عما كان يزخر به من العناصر المجاهدة الباسلة ، من البربر وجند البشرات وغيرها ، من المناطق الجبلية ، يتمتع بكثير من المزايا البارزة ، فكان يضم فرقاً من أبرع الرماة ، وكان بالأخص يتفوق بفرق الفرسان ، التى اشتهرت فى تلك العصور ببراعتها التى لا تبارى . وإلى جانب ذلك كانت الطبيعة تحبو غرناطة برعايتها ، وتساعدها التلال المرتفعة والمفاوز الوعرة ، التى تتخللها فى كل ناحية ، على شدة المقاومة ، واتقان حرب العصابات التى ترهق الجيوش المنظمة . وكانت القواعد الأندلسية ، من جراء الحروب المتواصلة ، قد حولت جميعها إلى قلاع منيعة ، وشيدت الحصون القوية فى كل مكان يصلح للمقاومة . وأهم من ذلك كله أن مسلمى الأندلس ، كانوا قد وقفوا فيما يبدو على سر البارود (٢) ، واستعملوه منذ منتصف القرن الرابع عشر ، حسبما فصلنا فى موضع سابق (٣) . وكان لذلك كله أثر واضح فى تمكين مملكة غرناطة الصغيرة ، من الوقوف فى وجه عدوها القوى بنجاح ، طيلة هذه العصور .

وكان للقوى البحرية ايضا شأنها ، فى كفاح الأندلس من أجل حياتها .

---

(١) راجع ص ٤٨ من هذا الكتاب .

(٢) Prescott; Ferdinam and Isabella p. 193-194

(٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الكتاب .

وكانت مملكة غرناطة تسيطر من ثغورها الشهيرة : جبل طارق والجزيرة وطريف ومالقة ، على مدخل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت أهم مهام الأسطول ، بعد حماية الشواطىء والثغور ، تأمين الصلة المباشرة بين مملكة غرناطة ، وبين اخوانها المسلمين فيما وراء البحر فى المغرب الأقصى ، وقد استطاعت الأساطيل الأندلسية والمغربية ، أن تحتفظ بسيادتها فى هذه المياه عصوراً ، وكان انهيار قوة غرناطة البحرية ، وسقوط ثغورها فى يد النصارى ، نذير السقوط النهائى .

وكان أرفع المناصب القضائية ، منصب قاضى الجماعة ، وهو ما يقابل فى الأندلس منصب قاضى القضاة فى مصر الإسلامية . وقاضى الجماعة هو أيضاً قاضى الحضرة وقاضى غرناطة ، والغالب أن يجمع فى نفس الوقت بين منصبه ومنصب خطيب الحمراء ، أو خطيب الجامع الأعظم (١) ، وهو أيضاً من المناصب الدينية الرفيعة . وكان القضاء يجرى فى مملكة غرناطة ، على مذهب الإمام مالك ، وهو مذهب الأندلس المفضل منذ القرن الثانى الهجرى . وكان يجرى تعيين قاضى الجماعة « بظهير » أى مرسوم ملكى . وكانت كلمة « الظهير » هى الغالبة فى مملكة غرناطة للتعبير عن المراسيم والقوانين السلطانية ، وهى مازالت تستعمل حتى اليوم فى المغرب الأقصى ، حيث يوصف المرسوم بأنه « ظهير ملكى ». وكان لكل مدينة قاضيها وخطيبها ، ولا يشغل مناصب القضاء سوى أكابر العلماء والفقهاء .

ويتبع القضاء وظيفة الحسبة وهى أيضاً وظيفة دينية ، تقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويختص صاحبها بمطاردة المنكرات ، والتعزير والتأديب على قدرها ، والعمل على احترام الأحكام الشرعية ، وقمع الغش والاختلاس فى المعاملات ، وأمور المعيشة والمكاييل والموازين ، وله أيضاً أن يحمل الناس على أداء المصالح العامة ، مثل تمهيد الطرقات والإضاءة بالليل وغير ذلك .

وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى متولى الشرطة ، وكان يسمى أيام الدولة الأموية صاحب الشرطة ، ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية ، وكان ينتخب عادة من كبار القواد أو الخاصة ، ويتمتع بسلطات قضائية وإدارية واسعة . ثم سمى بعد ذلك بصاحب المدينة وصاحب الليل . وكان يعتبر فى منصبه

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٧٠ و ٧٤ و ١٩٧ .

تابعاً للوزارة ، مسئولا أمامها ، وكان جل اختصاصه أن يتولى حفظ النظام والأمن ، ومطاردة المجرمين وأهل الفساد . وتنفيذ العقوبات الجنائية ، من الحد والتعزير وغيرهما فيمن وجب عليه ذلك ، وهو الذى يتولى الإتهام والتحقيق وتوقيع العقوبة ، دون تدخل القاضى ، ويعاونه فى مهمته جماعات من الحراس ، تجوب أنحاء المدينة ليلا ، وتشرف على حراسة الطرق والأمكنة وتعقب الجناة (١) .

— ٣ —

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت تتمتع به مملكة غرناطة ، بالرغم من انكماش رقعتها من الموارد والثروات الطبيعية الوفيرة . وكانت الزراعة منذ أيام الدولة الأندلسية الكبرى ، من أعظم موارد الأندلس ، وكانت وديان اسبانيا الخصبة ، التى تتخللها عدة من الأنهار العظيمة ، وتربتها البديعة ، وأقليمها المتقلب بين الحرارة والبرودة ، تفسح أعظم مجال لشعب عامل ذكى . وكان عرب الأندلس من أنبغ الشعوب ، فى فلاحة الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الرى ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال فى الجودة والنماء ؛ وقد نقل العرب من المشرق وشمال إفريقية إلى اسبانيا كثيراً من الأشجار والمحاصيل ، كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل ، وكانت غياض القمح وغابات الزيتون ، وحدائق البرتقال والتوت والكروم ، من أبدع ما ترى العين فى وديان الأندلس ومروجها النضرة . وأما نبوغ عرب الأندلس فى تنظيم وسائل الرى والصرف ، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن ، فى وديان الأندلس ، من القناطر والجداول الدارسة . وقد أقيمت أيام الدولة الأموية عدة من القناطر الشهيرة ، وحفرت ترع ومصارف لاحصر لها ، فى مختلف أنحاء اسبانيا ، وكلها مما يشهد لصانعها بالمهارة والتفوق . وكان لأهل الأندلس شهرة خاصة فى غرس الحدائق وتنسيقها ، وقد كانت حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة ، بدائع تشهد لهم بوفرة البراعة وحسن الذوق ، وكانت روعتها مستقى خصباً لخيال الشعراء والكتاب . وفى مكتبة الاسكوريال مؤلف فى الزراعة لأبى زكريا الإشبيلى ، يدل على مبلغ ما وصل إليه عرب الأندلس من

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٠١ .

معرفة بخواص التربة ، واستخراج كنوز الأرض ، وطرق الرى والصرف ، وأحوال الطقس وغيرها .

وكانت مملكة غرناطة بالرغم مما يتخللها من الجبال والهضاب الوعرة ، تضم كثيراً من الوديان والبسائط الخصبة ، وكانت ضفاف شنيل سلسلة من البسائط الخضراء ، تتخللها مئات الترع والقنوات ؛ وكان المرج الشهير ، الواقع غربى غرناطة La Vega ، وهو الذى لبث أكثر من قرنين مسرحاً للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى ؛ بحقوله وحدائقه النضرة ، كأنه قطعة من الجنان ، أودعها المسلمون كل براعتهم . وكانت المحاصيل المختلفة تتعاقب طول العام ، وتنتج البلاد كل ما يكفيها من الأطعمة والمؤن . وكانت مزارع الكروم الأندلسية الشهيرة ، تغطى مساحات واسعة فى غرناطة ومالقة وشريش .

وكذلك ضرب عرب الأندلس فى الصناعة بأوفر سهم . وكانت اسبانيا المسلمة أيام قوتها ، أعظم الأمم الصناعية فى أوربا ، وكانت ثرواتها المعدنية ؛ من الحديد والرصاص والزئبق والذهب والفضة وغيرها ، تمدها بأسباب التفوق فى هذا الميدان . وقد اشتهرت الأندلس بنوع خاص ، بصناعة الأسلحة الجيدة ، تنتجها بوفرة وتصدرها إلى أمم أوربا وإفريقية . وكذا اشتهرت بصناعة الصوف والحرير ، والأقمشة الملونة الممتازة ، وصناعة الجلود التى برع فيها أهل قرطبة بنوع خاص . وقد استطاعت مملكة غرناطة ، أن تستبقى كثيراً من الصناعات الأندلسية القديمة ، فاستمرت غرناطة مركزاً عظيما لصناعة الأسلحة والذخائر ، وكان تفوقها فى هذه الصناعة من أسباب قوتها ، وتمكنها طويلا من مدافعة أعدائها . وكذلك استمرت صناعة الحرير على تقدمها وازدهارها ، ولاسيما فى مالقة وألمرية ، وكانت يومئذ من أعظم موارد الأندلس . وقد نقلت المدن الإيطالية ، التى اشتهرت بصناعة الحرير فى العصور الوسطى ، عن الأندلسيين معظم فنونهم وطرائقهم فى هذه الصناعة المربحة ، وكانت مدينة فلورنس تستورد كميات كبيرة من الحرير الخام من غرناطة ، حتى أواخر القرن الخامس عشر (١) . ولبثت صناعة الخزف الجميل ، مزدهرة حتى العصر الأخير . وكذلك لبثت صناعة الجلود الفاخرة الملونة ، حتى نفى الموريسكيين ، وقد نقلت

---

(١) Prescott: Ferdinand and Isabella; p. 191

بعد نفيهم على يدهم إلى أوربا . واشتهرت الأندلس أيضاً بصناعة الورق . وقد اكتشف الغزيرى ، عدة مخطوطات بمكتبة الإسكوريال ، ترجع إلى القرن الحادى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من القطن ، وأخرى ترجع إلى القرن الثانى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من الكتان . وكان لهذه الصناعة مكانتها فى مملكة غرناطة.

أما التجارة فقد بلغت شأوا بعيداً فى الأندلس ، وذلك لحسن موقعها وكثرة ثغورها ، وتوسطها بين أوربا وإفريقية ، وانتظام صلاتها البحرية ، مع سائر ثغور البحر الأبيض المتوسط . وكانت علائقها التجارية تمتد حتى قسطنطينية ، وثغور الشأم والإسكندرية ، وترسو سفنها التجارية فى الثغور الإيطالية ، ولا سيما جنوة وروما والبندقية . وكانت ثغورها تزخر بمختلف الواردات ، من بلاد أوربا وإفريقية والمشرق . وازدهرت الحركة التجارية فى غرناطة ولا سيما التجارة الخارجية ، وكان للجنويين وغيرهم ، من الأمم ذات الصلات الإقتصادية الوثيقة بالأندلس ، منشآت تجارية فى غرناطة . وعقدت غرناطة مع جمهورية جنوه ومع مملكة أراجون معاهدات تجارية . وكانت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أعظم المراكز التجارية فى جنوب أوربا ، حتى لقد وصفها بعض المؤرخين المعاصرين بأنها « مدينة جميع الأمم » . ويقول مؤرخ اسبانى « إن شهرة سكانها فى الأمانة والثقة ، بلغت إلى حد أن كلمتهم المجردة ، كان يعتمد عليها ، أكثر مما يعتمد على عقد مكتوب بيننا » (١) .

وكان الرخاء يسود مملكة غرناطة طوال أيامها ، وقلما كانت تصدع منه الثورات الطارئة أو الحروب المتواصلة . وكانت موارد الخزينة أو الموارد السلطانية كثيرة منوعة تتكون من ضريبة الأراضى المزرعة وتبلغ فى المتوسط نحو سبع قيمة المحصول ، والأموال المرسومة على السفن الواردة والصادرة ، ودخل دار السكة ، ودخل بيت المال ، من زكاة وصدقات وميراث من لا وراث له ، وأخماس الغنائم التى كانت تحصل من العدو ، ومختلف الضرائب التجارية والمهنية . وكانت للعرش فوق ذلك أملاك ومزارع عظيمة فى فحص غرناطة (المرج) . وكانت الضرائب فى مملكة غرناطة على وجه العموم ، أكثر مما كانت عليه فى الدول الإسلامية السابقة

---

(١) Prescott ; ibid ; p. 190

وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى استمرار الصراع بلا انقطاع بينها وبين النصارى. وقدر دخل مملكة غرناطة فى تلك العصور ، بنحو مليون ومائتى ألف دوقة (١) ، وهى قيمة لايستهان بها فى ذلك العصر ؛ وكان يتولى الإشراف على شئون الدخل والخرج وأعمال الجباية موظف كبير يسمى « صاحب الأشغال » ، وكانت ثمة طوائف كبيرة من الشعب الغرناطى تتمتع بالثراء، ويقتنى الكثيرون الحلى والجواهر النفيسة ولاسيما أبناء الطبقات العليا . وكانت غرناطة تتمتع فوق ذلك بنقد سليم ثابت(٢)، يخرجه المضرب الملكى الذى اشتهر بأمانته ودقته ،ولا يتطرق إليه شىء من ذلك الزغل الذى كان فى أحيان كثيرة يؤدى إلى الانهيار المالى .

— ٤ —

وقد أشرنا فى بداية هذا الكتاب ، إلى تكوين الأمة الأندلسية فى مراحلها الأخيرة فى ظل مملكة غرناطة ، وإلى خصائصها العنصرية . والحقيقة أن المجتمع الأندلسى بمختلف عناصره الأصيلة والدخيلة ، كان قد استحال بمضى الزمن ، وتعاقب الحوادث والدول والمؤثرات الإجتماعية والإقليمية ، إلى أمة عربية إسلامية ذات طابع مستقل ومميزات خاصة ، تدعمها طائفة من الخلال البديعة ، وتصقلها حضارة رفيعة زاهرة . ثم قامت مملكة غرناطة التى اجتمعت فيها بقية الأمة الأندلسية لتعرض لنا خلال حياتها الطويلة ، المراحل الأخيرة لعظمة الأمة الأندلسية وحضارتها .

وقد وصف لنا ابن الخطيب ، أحوال المجتمع الأندلسى ، وخواصه الجنسية والعقلية والاجتماعية فى هذا العصر ، الذى مالت فيه شمس الأندلس إلى الأفول. فذكر لنا أن الشعب الأندلسى ، كان يتمتع بصفات أخلاقية طيبة ، وأن صورهم جميلة وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم بيضاء ، وشعورهم سوداء ، وقدودهم متوسطة ، وألسنتهم عربية فصيحة ، تغلب عليها الإمالة ، وأنسابهم عربية ، وفيهم كثير من البربر والمهاجرين .

وكان نساؤهم يتميزن بالجمال والسحر ، واعتدال السمن ، ونعومة الجسم ، ورشاقة الحركة ، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة ، ولكن يندر الطول فيهن . وقد بلغن

(١) الدوقة هى عملة ذهبية كانت ذائعة فى أوربا فى العصور الوسطى وتبلغ قيمتها نحو نصف جنيه من عملتنا الحديثة .

(٢) ابن الخطيب فى اللمحة البدرية ص ٢٩ .

فى التفنن فى الزينة والملبس شأوا بعيداً ، يسرفن فى الأصباغ والعطور ، والتزين بنفيس الحلى .

وكان اللباس الغالب بين الأندلسيين شتاء ، الملف(١) المصبوغ على اختلاف أصنافه وألوانه ؛ ويرتدون فى الصيف ، الكتان والحرير والقطن والأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المشفوعة « فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المفتحة ، فى البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة » .

ومما يجدر ذكره ، أن العمامة كانت يومئذ قد اختفت تقريباً كلباس رأس بين الشعب الأندلسى ، ولم يكن يلبسها سوى العلماء والقضاة . وقد حلت القلانس منذ عهد بعيد مكان العمائم . وكان أهل شرق الأندلس أسبق من غيرهم فى نبذ العمامة ، وذاعت القلانس بينهم منذ أوائل القرن السابع ، حتى كان أمراؤهم بل وشيوخهم وقضاتهم يلبسون القلانس ، وكان كثير من أمراء المسلمين مثل ابن مردنيش وغيره يرتدون الثياب القشتالية (٢). ولم يلبس ملوك بنى الأحمر العمامة ، بل فضلوا القلنسوة (كاب) واتخذوها لباساً حتى آخر دولتهم . وفى متحف جنة العريف بغرناطة ، صورة يقال إنها لأبى عبد الله آخر ملوك الأندلس ، وهى تصوره بقلنسوة عالية . وأما القضاة فقد احتفظوا بالعمامة كلباس رسمى . وتوجد بين الصور المنقوشة على جدران الحمراء صورة تمثل مجلس القضاة وهم بالعمائم والبرنس .

وكان الأمراء والأكابر ، وفريق كبير من أبناء الطبقات الميسورة ، يؤثرون ارتداء الثياب الإفرنجية ، اقتداء بجيرانهم النصارى ، ولا سيما فى عصور الأندلس الأخيرة . وأما ثياب الجندى الأندلسى فقد كانت فى العصور المتأخرة مشابهة لثياب الجند النصارى ، وكذلك عدتهم وسلاحهم ونظامهم فى الصفوف ، ثم عدلوا فى عصر ابن الخطيب عن هذا الزى ، إلى الجواشن المختصرة والبيضات المذهبة ، والسروج العربية . وكانت الجنود البربرية من جانبها ، تحافظ على زيها المغربى .

وكان أهل الأندلس مضرب الأمثال فى النظافة ، يبالغون فى العناية بنظافة أبدانهم وثيابهم ، ويكثرون من الاستحمام . وقد كانت هذه العادات فيما بعد ،

---

(١) نسيج من الصوف .

(٢) راجع ص ٥٧ و ١٥١ من هذا الكتاب .

حينما أكره المسلمون على التنصير ، من الشبه التى تثيرها ضدهم محاكم التحقيق ، للتدليل على تشبثهم بالإسلام ، وارتدادهم عن النصرانية .

وكان المجتمع الغرناطى يعيش فى رخاء وسعة ، تكثر لديه الأقوات فى الشتاء والصيف ، ولا سيما الفاكهة من العنب والتين والزبيب والتفاح والقسطل والجوز واللوز وغيرها ، ويدخرها الناس يابسة على كر الفصول ؛ ومتى حل الصيف ، هرع الناس إلى الفحوص (المروج) أعنى الضواحى ، للتمتع بجمال البسائط النضرة ، ونسيمها العليل (١) .

وكان احتفالهم بالأعياد أنيقاً ، ولكن فى حدود الإعتدال والاقتصاد . وكان الشعب الغرناطى يعشق مباهج الحياة والحفلات العامة ، وكانت الحياة لديه كأنها سلسلة من الأعياد المتواصلة . وكان الغناء ذائعاً ، ويكثر فى المنتديات والمقاهى العامة ، حيث يجتمع الشباب بكثرة ؛ ولم تنس غرناطة مرحها حتى فى أيام محنتها ، ولم تغلبها الكآبة إلا حينما أصبح العدو على الأبواب يهدد حياتها (٢) .

وقد استمرت الفروسة الأندلسية فى مملكة غرناطة على ازدهارها ، ولبثت عصوراً تجذب الأنظار باكتمالها وروعتها ورقة شمائلها . وفضلا عن كونها كانت عماد الدفاع القومى ، حسبما أشرنا من قبل ، فقد كانت مظاهرها وحفلاتها من أمتع المباهج العامة ، فى ميدان كان التسامح المؤثر يسود فيه علائق المسلمين والنصارى ، بالرغم مما كان يدور بين الفريقين من صراع مستمر . وقد اشتهر ملوك غرناطة ، فضلا عن الجود ، بميلهم نحو الحرية والتسامح ، فكان الأمراء المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكانوا يتلاقون أيام السلم وفى المفاوضات أنداداً كراما ؛ ومن أشهر مظاهر هذا التواصل ما حدث فى سنة ١٤٦٣ ، حيث سار هنرى الرابع ملك قشتالة إلى أراضى غرناطة ، وزار ملكها ابن إسماعيل ، والتقى الملكان فى مكان بقرب الفحص (لاقيجا) ضربت فيه خيمة ملكية أمام أبواب العاصمة ، ولما انتهت الزيارة وتبادل الفريقان الهدايا ، رافقت ملك النصارى كوكبة من الفرسان المسلمين ، وشيعته حتى الحدود . وكذلك كان الفرسان المسلمون والنصارى ، يتبادلون الزيارات ،

---

(١) راجع ابن الخطيب فى اللمحة البدرية ص ٢٧ — ٢٩ .

(٢) اللمحة البدرية ص ٢٨ ؛ وكذلك فى Prescott : Ferd. & Isabella, p. 192

وكثيراً ما كان الفرسان النصارى يقصدون إلى غرناطة ، لقضاء مصالحهم وتسوية منازعاتهم ، وكذا كان كثير من الأسر القشتالية النبيلة ، يلجأ إلى حماية ملك المسلمين كلما شعرت بالإضطهاد والحيف ، وكان فى مقدمة هؤلاء آل ڤيلا وآل كاسترو ؛ وكانت مباريات الفروسة وحفلاتها تتوالى فى غرناطة ، وفيها يبدى الفرسان المسلمون ضروباً رائعة من البراعة والرشاقة . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات الشهيرة اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات فى الحسن والإناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من الحفلات العامة سافرات ، ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحراً ، وكن يتمتعن فى الواقع بقسط وافر من الحرية الإجتماعية (١) .

(١) Prescott: Ferd. & Isab. 192

الفصل الثاني

الحركة الفكرية في مراحلها الأولى

الحركة الفكرية الأندلسية في أوائل القرن السابع • الشعر والأدب • ابن حريق • ابن مرج الكحل • ابن الجيان المرسي • ابن الأبار القضاعي • أبو البقاء الرندي • أقطاب اللغة • الفقه وعلوم الدين • المؤرخون • العلوم • بنو زهر • ابن البيطار المالقي • بنو الأحمر حماة العلوم والآداب • محمد الفقيه وولده المخلوع • السلطان أبو الحجاج • الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل • الوزراء الكتاب والشعراء • ازدهار الشعر والأدب • ركود الحركة العلمية • ابن الحكيم الرندي • حياته وشعره • ابن خميس التلمساني • أبو الجيان الغرناطي • الرئيس ابن الجياب • ابن جابر الضرير • أقطاب اللغة • علماء الفقه والدين • التصوف • المؤرخون والرحل • العلوم •

أتينا في الفصل السابق ، على لمحة من سير الحركة الفكرية ، في ظل الدولة الإسلامية بالأندلس ، حتى بداية القرن السابع الهجري ، أعني إلى ما قبل قيام مملكة غرناطة بقليل . ونريد الآن أن نتحدث عن سير العلوم والآداب والفنون ، في ظل مملكة غرناطة ذاتها . وسنحاول أن نتوسع في هذا الحديث قدر الإستطاعة ، وإن كانت المصادر العربية ، ضنينة في ذلك حسبما أشرنا ، أولا لهلاك معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذه المرحلة من تاريخ الأندلس ، وثانياً لأن كثيراً من المفكرين والكتاب المتأخرين ، الذين رأوا الوطن الأندلسي مشرفاً على السقوط في يد العدو ، بادروا بالهجرة إلى المغرب والبلاد الإسلامية الأخرى .

بيد أنه يجدر بنا قبل ذلك ، أن نعني بالفترة العصيبة المضطربة التي جازتها الأندلس ، في أواخر أيام الموحدين قبيل قيام مملكة غرناطة . وقد شهدت الأندلس في هذه الفترة ، أعني في أوائل القرن السابع الهجري ، سلسلة من الأحداث الجسام . ذلك أن سلطان الموحدين أخذ ينهار سراعا ، واضطرمت ثورة ابن هود في الولايات الشرقية ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعاً في يد النصارى. واستطاع ابن الأحمر في الوقت نفسه ، أن ينشىء مملكة غرناطة في جنوبي الأندلس . وكان من جراء الفوضى السياسية التي عمرت الأندلس يومئذ ، أن تصدعت الحركة الأدبية

وشتت شملها . وفقدت وسيلة الإستقرار والتجمع ، وشغل الأدباء والمفكرون يومئذ بالمحنة وآثارها . وغادر الأندلس فى تلك الفترة ، كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل فى جو أكثر استقرارا وطمأنينة ، مثل الشيخ محى العربى المرسى قطب التصوف الشهير ، وابن البيطار المالقى ، وابن الأبار القضاعى ، وابن حمدون الحميرى النحوى ، وابن سعيد الأندلسى ، وكثيرون غيرهم ، ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب .

وهكذا طلعت أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) على الأندلس ، بأحداثها وفتنها المتوالية ، والحركة الفكرية فى ربوعها حائرة غير مستقرة ، يتبدى ضوؤها باهتاً ، فى ظل دول وإمارات تتصدع أركانها تباعاً . ومع ذلك فقد ظل تراث الأندلس الفكرى فى هذه الفترة متواصلا ، يمتاز على اضطرابه بكثير من نواحى القوة والنضج ، التى امتاز بها فى ظل دولة الموحدين ، وقت أن كانت فى عنفوانها .

وسوف نستعرض فيما يلى أعلام التفكير والأدب فى تلك الفترة المضطربة ، التى مهدت حوادثها لقيام مملكة غرناطة ، فهى ليست فى الواقع سوى حلقة اتصال ، بين العصر الذى اختتمته الأندلس الكبرى ، وبين العصر الذى بدأت فيه حياتها الجديدة .

الشعر والأدب

وكانت الحركة الأدبية يومئذ ماتزال فى عنفوانها . وكانت دولة النثر والنظم تحتل مكانتها الرفيعة ، بل لقد بعثت الأحداث والمحن ، التى توالت على الأندلس يومئذ ، إلى الشعر بكثير من أسباب الإنفعال والقوة . فامتلأت الأندلس يومئذ بالشعر المؤسى ، والمراثى القوية المؤثرة ، التى نقل المقرى إلينا كثيراً منها ، فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض .

وكان من أعلام الشعر فى تلك الفترة ، على بن محمد بن أحمد بن حريق الشاعر البلنسى المتوفى فى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٧م) ، كان شاعراً مجيداً كثير النظم ، ذاع شعره فى الأندلس ، وكتب فوق ذلك عدة كتب فى الأدب(١) .

---

(١) ابن الأبار فى تكملة الصلة (رقم ١٨٩٥) ، وصلة الصلة لأبى جعفر الزبير ص ١٢٩ .

ومنهم ابن مرج الكحل ، وهو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن على ، أصله من جزيرة شقر ، وكان من أعظم شعراء عصره . وبرع بنوع خاص فى الغزل والشعر الوصفى المبتكر ، وعاش حيناً فى غرناطة ، وذاع صيته فى سائر نواحى الأندلس ، وتوفى سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦م) ومن شعر يصف عشة ، بنهر الفنداق الذى يمر بلوشة :

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر ... بين الفرات وبين شط الكوثر
ولتغتبقها قهوة ذهبية ... من راحتى أحوى المراشف أحور
والروض بين مفضّض ومذهّب ... والزهر بين مدرهم ومدنر
والنهر مرقوم الأباطح والربا ... بمصندل من زهره ومعصفر
وكأنه وكأن خضرة شطه ... سيف يسيل على بساط أخضر
وكأن ذاك الحباب فرنده ... مهما طفا فى صفحه كالجوهر(١)

ومنهم عزيز بن عبد الملك القيسى ، كان من أهل مرسية واشترك فى حوادثها السياسية ، واستطاع أن يظفر بأمارتها لمدى قصير ، وتوفى سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) قتيلا ، فى معركة نشبت بينه وبين خصومه ، وكان شاعر مجيداً ، ومن قوله عندما حلت به المحنة :

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا ... فأعقبنى نصحى بدار هوان(٢)

ومنهم على بن ابراهيم بن على المعروف بابن الفخار ، أصله من شريش وكان من أعلام الكتابة والنظم وتولى القضاء حيناً ، وتوفى سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م)(٣) .

ومنهم ابراهيم بن سهل الإشبيلى . وقد كان يهودياً ثم أسلم ، وبرع فى الشعر ولا سيما فى التوشيح ، ومن أبدع شعره قصيدة طويلة نظمها فى مدح النبى . وقد توفى غريقاً فى النهر ، وهو شاب فى عنفوانه ، وذلك سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١م) . ومن شعره قوله :

مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى ... أدارى بها همى إذا الليل عسعسا

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ .
(٢) راجع صلة الصلة ص ١٦٥ ، وابن الأبار فى التكملة رقم ١٩٥٢ .
(٣) راجع صلة الصلة ص ١٣٥ ، والتكملة رقم ١٩٠٧ .

أتانى حديث الوصل زوراً على النوى ... أعد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائراً ... أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسا

ومن موشحاته :

ليل الهوى يقظان ... والحب ترب السهر
والصبر لى خوان ... والنوم من عينى يرى(١)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الجيان المرسى ، صديق ابن هود وكاتبه . وكان عالماً بالحديث والرواية ، بارعاً فى النثر والنظم . تولى الوزارة حيناً لابن هود ، وهو الذى كتب عن لسانه وصيته الشهيرة لأخيه . ولما استولى النصارى على مرسية سنة ٦٤١هـ ، غادرها إلى أريولة ، ثم نزح إلى المغرب ، واستقر بمدينة بجاية ، وتوفى هنالك سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) . وكان ابن الجيان صغير القد ، حتى ليخاله الناظر إليه طفلا ، ومن شعره قصيدته الدالية المشهورة التى مطلعها :

ياحادى الركب قف بالله ياحادى ... وارحم صبابة ذى نأى وإبعاد(٢)

ومنهم الكاتب الشاعر ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى ، المعروف بابن الأبار . ولد سنة ٥٩٥هـ وبرز فى الفقه واللغة ، وبرع فى النثر والنظم ، وتولى الكتابة للأمير أبى جميل زيان أمير بلنسية ، حفيد ابن مردنيش . ولما حاصر النصارى بلنسية سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) واشتد الخطب بالمسلمين ، أرسل أميرها زيان كاتبه ابن الأبار ، سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس ، يستغيث به ويستنصره على العدو ، وألقى ابن الأبار بهذه المناسبة بين يدى أبى زكريا قصيدته السينية الشهيرة ، يردد فيها صريخ الأندلس ، ويصف آلامها ومحنها ، وهذا مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل عز النصر منك ملتمسا

وهى من غرر القصائد التى ذاعت بالأندلس أيام المحنة . ولما سقطت بلنسية بعد ذلك بقليل فى يد النصارى ، نزح ابن الأبار فى أهله إلى تونس ، وعاش

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤٣٢ وما بعدها ، حيث ينقل وصية ابن هود لأخيه ؛ وص ٤٤٠ وما بعدها حيث يذكر طائفة من نظم ابن الجيان .

هنالك حيناً فى كنف أميرها . ولكنه تغير عليه بعد ذلك ونكبه ، وتوفى قتيلا بتحريض خصومه وذلك فى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) . ولابن الأبار كثير من الشعر الجيد . ومن قوله فى الغزل

لم تدر ما خلدت عيناك فى خلدى ... من الغرام ولا ما كابدت كبدى
أفديك من رائد رام الدنو فلم ... يسطعه من فرق فى القلب متقد
خاف العيون فوافانى على عجل ... معطلا جيده إلا من الجيـــد

ومنه يصف نهراً :

ونهر كما ذابت سبائك فضـــة ... حكى بمجانيه انعطاف الأراقم
إذا الشفق استولى عليه احمراره ... تراءى قضيباً مثل دامى الصوارم

وكتب ابن الأبار فى الأدب والتاريخ . ومن آثاره تكملة كتاب الصلة لابن بشكوال ، ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضاً كتاب الحلة السيراء ، ترجم فيها لطائفة مختارة من أعيان الأندلس من أمراء وكتاب وشعراء ، وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ عصره (١) . وله مؤلفات أخرى مثل كتاب تحفة القادم ، وإيماض البرق ، وكتاب الأعتاب ، أوأعتاب الكتاب وغيرها ، وهى آثار وصل معظمها إلينا (٢) .

ومنهم أبو البقـاء صالح بن شريف الرندى . وكان أديباً شاعراً جزلا . بيـد أننا لانعرف كثيراً عن حياته ، ولا نعرف إلا أنه كان من أهل رندة كما يدل على ذلك لقبه . وقد عاش أبو البقاء حسبما رأينا فى بداية هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وعاصر الفتنة التى تمخضت عن قيام مملكة غرناطة ، وسقوط معظم القواعد الأندلسية فى يد النصارى . وقال فى المحنة مرثيته الشهيرة التى أتينا على ذكرها فى موضعها ، والتى خلدت ذكره إلى يومنا . وقد وهم المقرى فاعتقد

---

(١) نشر كتاب التكملة فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، ونشر كتاب الحلة السيراء بعناية المستشرق دوزى (ليدن سنة ١٨٥١) .

(٢) راجع فى ترجمة ابن الأبار ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ — ٥٨٠ . هذا وتوجد نسخة خطه من كتاب تحفة القادم بمكتبة الاسكوريال ، ونسخة من كتاب أعتاب الكتاب بدار الكتب المصرية .

أنه قد عاش فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، ووصفه بأنه خاتمة أدباء الأندلس حسبما أسلفنا (١) . ومن شعره فى الغزل والتصوف :

سلم على الحى بذات العرار ... وحى من أجل الحبيب الديار
وخل من لام على حبهم ... فما على العشاق فى الذل عار
ولا تقصر فى اغتنام المنى ... فما ليالى الأنس إلا قصار
وإنما العيش لمن رامه ... نفس تدارى وكؤوس تدار
وروحه الراح وريحانه ... فى طيبه بالوصل أو بالعقار (٢)

* * *

وظهر فى تلك الفترة جماعة من أقطاب اللغة ، مثل على بن محمد بن خروف الإشبيلى المتوفى سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢م) ، وقد طاف بقواعد الأندلس والمغرب ، وذاع صيته ، ووضع شرحاً لكتاب سيبويه (٣) ، وعمر بن محمد الأزدى الإشبيلى المعروف بالشلوبين ، وكان إماماً فى العربية وبرع فى النحو والفقه ، وتوفى سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) (٤) .

وظهر جماعة فى الفقه وعلوم الدين ، مثل على بن أحمد بن محمد الغسانى ، من أهل وادى آش ، وقد ألف فى شرح « الموطأ » كتاباً ضخماً سماه « نهج السالك للتفقه فى مذهب مالك » ، ووضع شرحاً لكتاب مسلم ، وتوفى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢) (٥) ، وعمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدى الرندى المحدث ، المتوفى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) (٦) ، وقرينه ومواطنه المحدث المؤرخ عيسى بن سليمان الرعينى الرندى ، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤م) (٧) .

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ .
(٢) تراجع القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ و ٥٩٦ .
(٣) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ١٢٢ .
(٤) « « « « ص ٧١ .
(٥) « « « « ص ١٢١
(٦) « « « « ص ٧١ .
(٧) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ٥١ .

ونبغ فى تلك الفترة بالذات ، أعظم متصوفة الأندلس الشيخ محى الدين أبو بكر الطائى المعروف بابن عربى ، وقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ ونزح إلى المشرق فى شبابه ، وحج وطاف بمعظم قواعده ، وبقى به حتى توفى سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) ، وله ثبت حافل من المصنفات الجليلة ، منها كتاب فصوص الحكم ، والفتوحات المكية ، والتدبيرات الإلهية ، وعشرات غيرها ، ذكرها صاحب فوات الوفيات ، وله شعر جيد (١) .

ونستطيع أن نذكر من المؤرخين فى تلك الفترة ، إلى جانب ابن الأبار القضاعى ، الذى سبقت ترجمته ، على بن موسى بن سعيد الأندلسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة فى مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخم فى فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، يضم كتابين كبيرين هما : كتاب « المشرق فى حلى المشرق » « والمغرب فى حلى المغرب » وأتمه على بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد فى غرناطة سنة ٦١٠هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) ، وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق ، ومؤلفه الكبير أثر أدبى وتاريخى وجغرافى جليل بارع الأسلوب (٢) . وله كتب أخرى ذكر منها صاحب فوات الوفيات كتاب المرقص والمطرب ، وملوك الشعر . وله شعر رقيق .

العلوم

وكان للعلوم أيضاً مجالها بالأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وربما كانت هذه آخر مرحلة ازدهر فيها العلم الأندلسى ، واستطاع أن يحتفظ بقبس من تقاليده القديمة الراسخة .

وكان ممن ظهر فى تلك الحقبة ، أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الجلياني ، الطبيب والشاعر الأديب ، أصله من جليانة من أعمال غرناطة ، ونبغ فى الطب

---

(١) راجع فى ترجمة ابن عربى ، فوات الوفيات ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ . وقد انتهت إلينا من هذا الأثر الضخم نسخة مشوهة ناقصة ، وهى محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ تاريخ ، وراجع فوات الوفيات ج ٢ ص ٧٩ .

فى ظل الموحدين ، ثم رحل إلى المشرق ، وطاف بمصر والشأم ، ونظم كثيراً فى الإلهيات والرياضيات وآداب النفس (١) .

ومنهم أبو بكر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلى ، سليل أسرة بنى زهر الشهيرة ، التى نبغ منها فى الطب والكيمياء والصيدلة ، أبو العلا بن زهر ، ثم ولده عبد الملك الذى سبقت الإشارة إليه ، ثم إبنه أبو بكر هذا ، وقد برع كأبيه وجده فى الطب والكيمياء ، وكان من أعظم أطباء الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى .

ومنهم أبو العباس بن الرومية الإشبيلى الطبيب ، وقد اشتهر بالأندلس فى أواسط القرن السابع الهجرى ، وله كتاب فى الأدوية المفردة على نمط الكتب التى ألفها بنو زهر فى هذا الموضوع (٢) .

وكان من أعظم علماء الأندلس فى هذا العصر ، ابن البيطار المالقى العالم النباتى والطبيب المشهور ؛ وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ودرس على ابى العباس النباتى ، ثم غادر الأندلس فى شبابه ، وطاف بأنحاء المغرب ، وقدم إلى مصر أيام الملك الكامل ، فدخل طبيباً فى خدمته ، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشأم وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وألف فى ذلك كتابين : « كتاب الجامع فى الأدوية المفردة » تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة فى عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، وكتاب « المغنى فى الأدوية المفردة » ، وهو مرتب على مداواة الأعضاء ، وكتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » ، ودرس عليه ابن أبى أصيبعة العالم المشهور ، وصاحب تراجم الأطباء ، وقد أشاد ببراعته وغزارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفى ابن البيطار بدمشق سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) (٣) .

وظهر فى هذا العصر علماء آخرون فى الرياضيات والفلك ، وكان منهم مطرف الإشبيلى ، وقد برع فى الفلك ، واشتغل بالتصنيف فيه ، وكان ينسب

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٦ ؛ وقد أورد المقرى شيئاً من شعره .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) راجع فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .

إلى الزندقة بسبب اعتكافه فى هذا الشأن ، فكان يخفى تصانيفه ونتائج بحوثه عن أهل عصره (١) .

— ٢ —

وهكذا كانت الحركة الفكرية بالأندلس فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، تحاول رغم اضطرابها أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها . فلما نهضت مملكة غرناطة من عمر الفوضى ، وبدأت الأندلس حياتها الجديدة فى ظل هذه المملكة الفتية الجديدة ، أخذت الحركة الفكرية فى الاستقرار ، وآنست جواً من الهدوء والطمأنينة . وكان ملوك غرناطة جريا على سنن ملوك الأندلس السالفين ، من حماة العلوم والآداب ، وكان بلاط غرناطة يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة ، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطوائف ، وكان أمراء بنى الأحمر أنفسهم فى طليعة العلماء والأدباء . واشتهر عميدهم ومؤسس دولتهم محمد بن الأحمر ، بحمايته للعلم والأدب ، وكانت له أيام خاصة يستقبل فيها الشعراء وينشدونه قصائدهم (٢) . وكان ابنه محمد الفقيه عالماً ضليعاً ، يعشق مجالس العلم ويؤثر العلماء بعطفه ، ويقرض الشعر (٣) ، وكذا كان ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ، عالماً شاعراً ينظم الشعر المستظرف ، وقد أورد لنا ابن الخطيب قصيدة من شعره يقول فيها :

واعدنى وعداً وقد أخلفا ... أقل شىء فى الملاح الوفا
وحال عن عهدى ولم يرعه ... ما ضره لو أنه أنصفا
ما بالها لم تتعطف على ... صب لها ما زال مستعطفا (٤)

وبلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها ، فى مملكة غرناطة ، فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف بن إسماعيل النصرى (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ) ، وولده السلطان محمد الغنى بالله (٧٥٥ — ٧٩٣ هـ) . وكان السلطان أبو الحجاج نفسه ،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .
(٢) اللمحة البدرية ص ٣١ .
(٣) » » ص ٣٨ .
(٤) راجع هذه القصيدة فى اللمحة البدرية ص ٤٩ .

عالماً أديباً يشغف بالفنون . واشتهر الأمير أبو الوليد إسماعيل بن الساطان يوسف الثانى بأدبه وبارع نثره ، وهو صاحب كتاب « نثير الجمان » الذى يترجم فيه لأعلام عصره فى الشعر والأدب (١) .

وكان من بين وزراء الدولة النصرية وكتابها ، كثير من أعلام الشعر والأدب . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ابن الحكيم الرندى ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وابن زمرك ، والشريف العقيلى خاتمة أدباء الأندلس ووزرائها ، وهم جميعاً من أقطاب الحركة الأدبية فى مملكة غرناطة ، ومن أعلام وزرائها وسادتها . وسنعود إلى التحدث عنهم فيما بعد .

ومما تجدر ملاحظته ، أن الحركة الفكرية الأندلسية فى ذلك العصر ، تكاد تنحصر فى النواحى الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر ، وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقلية أصابها الركود ، وقلما نجد فى هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو العلوم الطبية ، أو غيرها من العلوم المحضة ، التى ازدهرت من قبل بالأندلس ، ونبغ فيها ثبت حافل من أكابر العلماء والفلاسفة . هذا بينما احتفظت الآداب فى مملكة غرناطة بروائها وازدهارها ، حتى اللحظة الأخيرة من حياتها .

وقد تقلبت الحركة الفكرية الأندلسية فى المائتين وخمسين عاماً التى عاشتها مملكة غرناطة ، فى أطوار ثلاثة : طور الفتوة ، وطور النضج ، وطور الإنحلال الأخير . وسوف نحاول أن نستعرض هذه الأطوار الثلاثة تباعاً ، ذاكرين أقطاب التفكير والأدب فى كل مرحلة منها .

٣ —

ويبدأ الطور الأول باستقرار مملكة غرناطة وتوطدها ، فى أواخر القرن السابع الهجرى وأوائل القرن الثامن .

وقد حفلت هذه الفترة التى بزغت فيها شمس الأندلس من جديد ، بجمهرة من الشعراء والأدباء والعلماء ، وازدهر الأدب ، واستعاد الشعر بنوع خاص ، كثيراً من روعته وروائه القديم .

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ ، وراجع أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٦ .

وكان فى طليعة شعراء هذه الفترة ، الكاتب البليغ والأديب البارع ، الوزير ابن الحكيم وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن يحيى اللخمى الرندى وأصلهم من بيوتات إشبيلية ، وكان جد والده يحيى طبيباً عرف بالحكيم ، وأسبغ لقبه على الأسرة . ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس أيام الطوائف ، انتقلت الأسرة إلى رندة ؛ وولد ابن الحكيم برندة سنة ٦٦٠هـ ووفد على غرناطة فتى ، أيام السلطان أبى عبد الله محمد المعروف بالفقيه ، فولاه كتابته فى ديوان الإنشاء . ثم تقلد بعد وفاته الوزارة لولده السلطان أبى عبد الله المخلوع ، إلى جانب وزيره أبى سلطان عزيز الدانى . فلما توفى أبو سلطان انفرد ابن الحكيم بالوزارة ، ولقب بذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة . واستبد بالحكم حيناً حتى نشبت الثورة فى غرناطة ضد السلطان أبى عبد الله المخلوع وحكومته الطاغية ، وقتل فيها ابن الحكيم يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) حسبما أسلفنا فى موضعه . وكان ابن الحكيم شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً وخطيباً ذلقاً ، وقد وصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بقوله : « كان فريد دهره سماحة وبشاشة ولوذعية وانطباعاً ، رقيق الحاشية ، نافذ العزمة ، زار المشرق وحج ودرس وتلقى عن مشايخه » . ومن شعر ابن الحكيم قوله :

ما أحسن العقل وآثاره ... لو لازم الإنسان إيثاره
يصلون بالعقل الفتى نفسه ... كما يصون الحر أسراره
لا سيما إن كان فى غربة ... يحتاج أن يعرف مقداره

ومن قوله فى الغزل :

هل إلى رد عشيات الوصال ... سبب أم ذاك من ضرب المحال
وليال ما تبقى بعدها ... غير أشواق إلى تلك الليال
إذ مجال الوصل فيها مسرحى ... ونعيمى آمر فيها ووال
ولحالات التراضى جولة ... مزجت بين قبول واقتبال
وغزال قد بدا لى وجهه ... فرأيت البدر فى حال الكمال
ما أمال التيه من أعطافه ... لم يكن إلا على خصل اعتدال
خص بالحسن فما أنت ترى ... بعده للناس حظاً فى الجمال

وقوله :

ألا واصل مواصلة العقار ... ودع عنك التخلق بالوقار
وقم واخلع عذارك فى غزال ... يحق لمثله خلع العذار
قضيب مائس من فوق دعص ... تعمم بالدجى فوق النهار
ولاح بخده ألف ولام ... فصار معرفا بين الدرارى[1]

وكان ولده أبو بكر محمد بن الحكيم أيضاً من أعلام الأدب والشعر فى تلك الفترة ، وقد تولى مثله الوزارة فيما بعد ، وكان من أساتذة ابن الخطيب ، وقد ألف فى الأدب كتاباً سماه « بالموارد المستعذبة »[2] .

ومن أكابر الشعراء فى تلك الفترة أبو عبد الله محمد بن خميس التلمسانى ، أصله من تلمسان كما يدل عليه اسمه . ووفد على غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم ومدحه ، ونزل بألمرية سنة ٧٠٦هـ واتصل بحاكمها القائد أبى الحسن بن كماشة ، ومدحه فأجزل صلته ، ووصفه ابن خاتمة بأنه من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، وقد جمع شعره فى ديوان سمى « الدر النفيس فى شعر ابن خميس » . وكانت وفاته بألمرية سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) ، ويمتاز شعره بالجودة والروعة ، ومن نظمه قوله :

نظرت إليك بمثل عينى جؤذر ... وتبسمت عن مثل سمطى جوهر
عن ناصع كالدر أو كالبرق أو ... كالطلح أو كالاقحوان مؤشر
تجرى عليه من لماها نطفة ... بل خمرة لكنها لم تعصر
لو لم يكن خمراً سلافا ريقها ... تزرى وتلعب بالنهى لم تخطر

وقوله :

عجباً لها أيذوق طعم وصالها ... من ليس يأمل أن يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تعلة ساعة ... منها وتمنعنى زكاة جمالها
كم ذا وعن عينى الكرى متأنف ... يبدو ويخفى فى خفى مطالها
يسمو لها بدر الدجى متضائلا ... كتضاؤل الحسناء فى اسمالها

---

(١) راجع فى ترجمة ابن الحكيم وشعره : نفح الطيب ج ٢ ص ٧ — ٩ ؛ و ج ٣ ص ٢٥٨ — ٢٦٣

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٣

ومنه :

أتت ولكن بعد طول غياب ... وفرط لجاج ضاع فيه شبابي
وما زلت والعليا تعنى غريمها ... أعلل نفسى دائماً بمثاب
وهيهات من بعد الشباب وشرخه ... يلذ طعامى أو يسوغ شرابى
خدعت بهذا العيش قبل بلائه ... كما يُخدع الصادى بلمع سراب(١)

ومنهم ابو حيان الغرناطى ، محمد بن يوسف بن على ، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤هـ وطاف بالمشرق ، وتوفى بمصر سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م) ، وكان فوق تضلعه فى الحديث والتفسير بارعاً فى اللغة والأدب ، إماماً فى النثر ، ونظم الموشحات ، وقد ترك مؤلفات كثيرة فى التفسير واللغة والأدب ، وله شعر كثير ومن نظمه قوله فى موشحة :

إن كان ليل داج . وخاننا الإصباح . فنورها الوهاج . يغنى عن المصباح

سلافة تبدو ... كالكوكب الأزهر
مزاجها شهد ... وعرفها عنبر
يا حبذا الورد ... منها وان سكر(٢)

وكان الرئيس أبوالحسن على بن الجياب ، وزير السلطان يوسف أبى الحجاج وكاتبه ، فى طليعة أقطاب النثر والنظم فى تلك الفترة ؛ ولد بغرناطة سنة ٦٧٣ هـ وبرع فى الشعر والأدب ، وتقلب فى مناصب الكتابة حتى غدا رئيساً لديوان الإنشاء ، وكان من معاونيه فى الكتابة أبوعبدالله بن الخطيب ، وقد ورث منصبه عقب وفاته ، وتوفى ابن الجياب ضمن ضحايا الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) . ومن شعره قوله :

لله عصر الشباب عصرا ... فتح للخير كل باب
حفظت ما شئت فيه حفظاً ... كنت أراه بلا ذهاب
حتى إذا ما المشيب وافى ... ندّ ولكن بلا إياب

---

(١) راجع فى اخبار ابن خميس وشعره : نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ — ١٩٤ ؛ وأزهار الرياض ج ٣ ص ٣٠٣ .

(٢) راجع ترجمته وشيئاً من شعره فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٥ .

ومنه فى الوعظ :

يا أيهـا الممسك البخيل إلهـك المنفق الكفيـل
أنفق وثق بالإله ترع فان إحسـانه جزيـل[1]

ومن شعراء ذلك العصر أبوعبدالله بن محمد بن جابر الأندلسى الهوارى الضرير ، وقد رحل إلى المشرق ، ومدح بعض أمرائه وقصد إلى سلطان ماردين فأجزل صلته ، وقد أشار ابن بطوطة الرحالة إلى ذلك عند ذكره فى رحلته لسلطان ماردين[2] ؛ ولابن جابر موشحات كثيرة ومدائح جيدة فى الصحابة وآل البيت ، ومن شعره فى الغزل قوله :

شغفت بها حيناً من الدهر لم يكن سوى سكب دمعى فى محبتها كسبى
وما أصل هـذا كله غير نظرة إلى مقلة منهـا أصغت لها قلبى

ومنـه :

تجنت فجن فى الهوى كل عاقل رآهـا وأحـوال المحب جنون
وما وعدت إلا غلت فى مطالهـا كذلك وعـد الغانيات يكون

ومنه فى الحكم :

مهـلا فما شيم الوفا منقادة لمـن ابتغى من نيلها أوطـارا
رتب المعـالى لا تنال بحيـلة يوماً ولو جهـد الفتى أوطارا

وقال يتشوق إلى حمراء غرناطة :

دامت على الحمراء حمر مدامعى والقلب فيما بين ذلك ذائب
طال المـدى بى عنهم ولربما قد عاد من بعد الإطالة غائب

* * *

وظهر من أقطاب اللغة فى تلك الفترة عدة ، منهم أبو بكر محمد بن ادريس القرانى القضاعى المتوفى سنة ٧٠٧هـ (١٣٠٧م) . وقد كتب فى علم العروض كتاب « الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض » ومنه نسخة بمكتبة الاسكوريال[3] .

---

(١) راجع فى ترجمة ابن الجياب وشعره : نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٣ — ٢٢٩ .
(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٩٣ ؛ ورحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٥٠ .
(٣) المستشرق بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى Geschichte der Arabischen Litteratur B. II. p. 259.

ومنهم أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الحافظ النحوى شيخ ابن الخطيب الأب . وقد ولد بجيان سنة ٦٢٧هـ وتوفى سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) . قال ابن الخطيب فى حقه : « انتهت إليه رياسة العربية بالأندلس » ؛ وكان عالماً بالقرآن والحديث ، مجيداً للنثر والنظم ، ولى القضاء بغرناطة ، واتصل بسلطانها الأمير أبى عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر فأكرم مثواه ، وقد صنف كتباً عدة فى مختلف الفنون ، ومن آثاره المنشورة كتاب « صلة الصلة » الذى ألفه ذيلا على كتاب الصلة لابن بشكوال[1] .

ومنهم أبو الحسن على بن يحيى الغزارى المالقى المعروف بابن البرزى المتوفى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) ، وكان بارعاً فى اللغة ؛ وله شعر يصفه ابن الخطيب بالضعف والهزال .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن على الفخار الإلبيرى ، كان شيخ النحاة بالأندلس فى عصره ؛ درس عليه الكثيرون ومنهم ابن الخطيب وابن زمرك ، وكانت وفاته بغرناطة سنة ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) [2] .

ونبغ من علماء الدين والفقه فى تلك الفترة ، القاسم بن عبد الله بن الشط الأنصارى الإشبيلى ، المتوفى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٣م) وله كتاب « البرنامج » عن قصاة الأندلس [3] وأبو القاسم أبو عبد الله بن جزى الكلبى الغرناطى ، وقد ولد سنة ٦٩٣ ، وتولى الخطابة بغرناطة ؛ وتوفى قتيلا فى سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) فى موقعة طريف ، ومن مؤلفاته كتاب « التسهيل لعلوم التنزيل » والأنوار السنية فى الألفاظ السنية » [4] .

وازدهر التصوف فى هذا العصر ، وكان من أقطابه يومئذ أبو الحسن على ابن فرحون القرشى القرطبى ، المتوفى سنة ٧٥١هـ (١٣٤٥م) ؛ وأبو اسحاق ابراهيم ابن يحيى الأنصارى المرسى ، وقد ولد فى سنة ٦٨٧ هـ وتوفى بغرناطة سنة ٧٥١ هـ

---

(١) راجع فى ترجمة ابن الزبير ، كتاب صلة الصلة المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال فى المقدمة ص ، و — ح

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٢ و ١٩٦ .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٤) « « « ج ٢ ص ٢٦٥ .

(١٣٥٠م) ، وله كتاب « زهرة الأكمام » فى قصة يوسف . وأبو عبد الله محمد ابن محمد الأنصارى المالقى المولود سنة ٦٤٩هـ) ، والمتوفى سنة ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) ، وله كتاب « بغية السالك فى أشرف المسالك » فى مراتب الصوفية وطرائق المريدين[١].

وظهر من المؤرخين محمد بن يحيى بن أبى بكر بن سعيد الأنصارى المالكى . وقد ولد سنة ٦٧٤هـ ، وتولى الخطابة والقضاء بغرناطة ، وتوفى قتيلا فى سنة ٧٤١ هـ فى موقعة طريف. ومن آثاره كتاب « التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان بن عفان »[٢].

ومن الرحل والرواة ، أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى ، وقد رحل إلى افريقية والمشرق بين سنتى ٧٣٦ — ٧٤٠ هـ ، وكتب عن رحلته كتاب « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » وانتفع فى مؤلفه بما كتبه ابن جبير عن المشرق [٣] .

وأما العلوم فلم تزدهر مثل إزدهارها فى الماضى ، ولم تشغل فى الحركة الفكرية سوى مجال محدود . وكان من أشهر علماء ذلك العصر يحيى بن هذيل حكيم غرناطة وفليسوفها ، وقد برع فى الطب والفلسفة والعلوم والرياضة ، وكان من شيوخ ابن الخطيب [٤] . ونستطيع أن نضع فى العلماء المعاصرين أيضاً شيخه أبا عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبى ، وكان من أكابر الأئمة فى الفقه ، واختصر عدة من أمهات الكتب مثل كتاب « بهجة المجالس » لابن عبد البر . وكتب كتباً فى الهندسة والفلاحة [٥] .

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) « « « ج ٢ ص ٢٦٦ ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ، وتوجد من كتابه نسخة خطية بدار الكتب .

(٤) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ .

(٥) « « « ج ٣ ص ٣٠٢ .

الفصل الثالث

عهد النضج والازدهار

تقدم الحركة الفكرية • ابن سلبطور الشاعر • أبو القاسم الحسيني • ابن خاتمة • ابن الخطيب • نشأته وحياته • سفارته الى المغرب وقصيدته للسلطان • وصفه لحياته فى الوزارة • سقوطه وجوازه الى المغرب • احتفاء السلطان به وانشاده فى حضرته • ابن الخطيب وابن خلدون • ما قاله الأمير ابن الأحمر فى تقدير ابن الخطيب • تهنئته للسلطان • عوده الى الأندلس والى تولى الوزارة • وصفه لجهوده يومئذ • ما ينسب اليه من طغيان • فقده لحظوته وجوازه الى المغرب • كيد خصومه له • اتهامه بالزندقة • تطور الحوادث فى المغرب • تفاهم بلاط غرناطة مع سلطان المغرب على الايقاع به • الوزير ابن زمرك يلاحقه فى فاس • اتهامه ومصرعه • مؤلفاته وآثاره • أثره فى تطور الحركة الأدبية • ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب • نشأته وحياته • مكانته الأدبية • نماذج من شعره وموشحاته • الموازنة بينه وبين ابن الخطيب • بقية الشعراء والأدباء فى تلك الفترة • الفقهاء • المؤرخون •

شهدت الحركة الفكرية الأندلسية فى مملكة غرناطة ، مرحلة النضج فى أواسط القرن الثامن الهجرى وأواخره ، وشهدت فى النصف الأخير من هذا القرن ، ذروة قوتها وازدهارها . ولا غرو فهذه الفترة هى التى سطع فيها ابن الخطيب ، أعظم مفكرى الأندلس وأعظم كتابها وشعرائها فى ذلك العصر . وامتازت هذه الفترة ، بروعة إنتاجها الأدبى فى النثر والنظم ؛ وربما كان للأحداث والفتن الداخلية الخطيرة التى جازتها الأندلس يومئذ ، أكبر أثر فى تغذية هذه الحركة الممتازة ، وإمدادها بمختلف الإنفعالات القوية ، التى طبعت إنتاجها .

وقد بدأت هذه الحركة فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف بن اسماعيل ، أعظم سلاطين بنى نصر (٧٣٣ — ٧٥٥هـ) ، وأشدهم حماسة فى تعضيد الآداب والفنون ، واستمرت من بعده طوال القرن الثامن الهجرى ، وحفلت بعدد كبير من الأدباء والشعراء الممتازين . وقد استعرضنا الكثير منهم فيما تقدم ، حتى منتصف القرن الثامن ، وسنمضى هنا فى استعراض بقية هذا الثبت الحافل حتى أواخر هذا القرن .

كان من أكابر الشعراء فى بداية هذه الفترة ، ابن سلبطور شاعر ألمرية ، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمى ، والظاهر أنه قد يرجع إلى أصل نصرانى ، كما يدلى بذلك اسمه سلبطور (سلفاتور) . نشأ بالمرية ، وبرع فى الأدب ، وتدرب منذ فتوته على ركوب البحر وقيادة السفن ، وناب فى قيادة الأسطول عن خاله القائد أبى على الرنداحى ، واشتهر برائق نظمه . وفى أواخر حياته انحرف عن جادة الصواب ، وانكب على ملاذه وشهواته ، وأضاع كل ثروته ، حتى ساءت حالته ، وانحدر إلى هاوية الفقر والبؤس ، فعبر البحر إلى العدوة ، وتوفى بمراكش سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤ م) . ومن شعره يمتدح السلطان حين حل بالمرية :

أثغرك أم سمط من الدر ينظم ... وريقك أم مسك من الراح تختم
ووجهك أم باد من الصبح نير ... وفرعك أم داج من الليل مظلم
أعلل منك الوجد والليل ملتقى ... وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم
وأقنع من طيف الخيال بزورة ... لو أن جفونى بالمنام تنعم[1]

ومنهم أبو عبد الله محمد بن جُزى ، الكاتب الشاعر ، ولد بغرناطة سنة ٧٢١هـ ، وانتظم منذ فتوته بين كتاب السلطان أبى الحجاج يوسف ، وحظى لديه ومدحه بطائفة من القصائد الرنانة ، ثم غضب عليه ونكبه ، فغادر الأندلس إلى العدوة ، ودخل فى خدمة السلطان أبى عنان المرينى ومدحه ، وكان بارعاً فى النثر والنظم ؛ ذكره ابن الأحمر فى «نثير الجمان» وأشاد بمقدرته ، ووصفه بأنه أعظم شاعر فى عصره . وكانت وفاته بمراكش سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م)[2] . وهو الذى أنشأ رحلة ابن بطوطة من مذكرات صاحبها حسبما ينوه بذلك فى خاتمة الكتاب[3] .

ومنهم قاضى الجماعة ، أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسينى ، ولد سنة ٦٩٧هـ ، وتوفى بغرناطة سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٨م) ، ولى رياسة القضاء ، وكان

---

(١) نفح الطيب (عن الاحاطة) ج ٣ ص ٤٥٠ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٨٤ ومابعدها ؛ وأزهار الرياض ج ٢ ص ١٨٩ وما بعدها ، وفيه يورد بعض شعره .

(٣) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٩٥ ؛ ورحلة ابن بطوطة .

فوق تضلعه فى الحديث والفقه ، شاعراً مجيداً ، وكتب فى العروض والأدب ، وجمع شعره فى ديوان أسماه « جهد المقل »[١] .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن على بن محمد بن خاتمة الانصارى ؛ ولد بألمرية سنة ٧٢٤ هـ . وتوفى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٩م) : وكان أديباً وشاعراً مبرزاً . وصفه ابن الخطيب بأنه « الصدر المتفنن ، المشارك القوى الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الذهن ، الجيد القريحة » . وكتب عن مسقط رأسه ألمرية ، كتاباً أسماه « مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية» . وله ديوان شعر محفوظ بمكتبة الاسكوريال . ومن شعره قوله :

هو الدهر لايبقى على عائذ به ... فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه
فمن لم يصب فى نفسه فمصابه ... بفوت أمانيه وفقد حبائبه

وكتب ابن خاتمة إلى صديقه ابن الخطيب ، حينما أزمع الرحلة عن الأندلس ؛ رسالة مؤثرة يخاطبه فيها بقوله : « انكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وتمام زينتها ، ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها »[٢]

— ٢ —

نعرض بعد ذلك ، إلى ألمع فترة فى الحركة الفكرية ، فى ظل مملكة غرناطة ، وهى الحركة التى كان قطبها ومحورها ، أعظم مفكرى الأندلس وأعظم شعرائها وكتابها ، فى القرن الثامن الهجرى ، ونعنى لسان الدين بن الخطيب .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى نشأة ابن الخطيب ، واستعرضنا طرفاً من حياته السياسية ، ونريد هنا أن نبسط القول فى حياته الفكرية والأدبية .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد فى لوشه من أعمال غرناطة ، فى بيت من أكرم بيوت الأندلس فى شهر رجب

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٧ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ و ٤١١ وما بعدها ؛ وكذلك بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) ، ثم انتقل بيتهم من لوشة إلى غرناطة . وخدم أبوه عبد الله في القصر والخاص في عهد السلطان يوسف أبي الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة ، ودرس الطب والفلسفة والشريعة والأدب ، وبرز في النثر والنظم منذ حداثته ، ولما توفي أبوه في سنة ٧٤١هـ حل مكانه في خدمة القصر ، وهو فتى في عنفوانه ، وتولى أمانة السر للوزير أبي الحسن بن الجياب ، وزير السلطان يوسف . ولما توفي ابن الجياب في الوباء الكبير سنة ٧٤٩هـ ، خلفه في الوزارة والكتابة ، إلى جانب كبير الوزراء الحاجب أبي النعيم رضوان ، وندبه السلطان لبعض السفارات والمهام السياسية . ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥هـ) ، وخلفه ولده محمد الغني بالله ، استمر الحاجب رضوان في الاضطلاع برياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب إلى جانبه في منصبه ، وندب للوصاية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولايته (أواخر سنة ٧٥٥هـ) سفيراً إلى السلطان أبي عنان سلطان المغرب ، على رأس وفد من وزراء الأندلس ، يستنصره ويستغيث به على مقاومة طاغية قشتالة . وأنشد ابن الخطيب بين يدي السلطان قصيدة يقول فيها :

خليفة الله ساعد القدرُ ... عُلاك ما لاح في الدجى قمرُ
ودافعت عنك كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشرُ
وجهك في النائبات بدر دجى ... لنا وفي المحل كفك المطرُ
والناس طرا بأرض أندلس ... لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن ... في غير علياك ماله وطر

فاهتز السلطان لقصيدته ، ووعدهم باجابة ملتمسهم وتحقيق رغباتهم (١) .

ثم وقعت الثورة في غرناطة سنة ٧٦١هـ (١٣٥٦م) ، وقتل الحاجب رضوان ، وأقصي الغني بالله عن الملك ، وفر إلى وادي آش ، وخلفه على العرش أخوه إسماعيل ، وولى ابن الخطيب الوزارة للملك الجديد حيناً ، ولكن سرعان ما غضب عليه وأمر باعتقاله . ويصف لنا ابن الخطيب في ترجمته لنفسه ، في كتاب الإحاطة ، هذه المراحل الأولى من حياته العامة في قوله : «فقلدني السلطان سره (يريد أبا الحجاج) ولما يستكمل الشباب ، واستعملني في السفارة إلى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ،

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٣

ورمي إلى بخاتمه وسيفه ، وائتمنني على صون حضرته وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل أمتاعه . ولما هلك السلطان ، ضاعف ولده حظوتي ، وأعلى مجلسي ، وقصر المشورة على نصحي ، إلى أن كانت الكائنة ، فاقتدى في أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته ، على القبض على ، فكان ذلك » .

وتدخل السلطان أبو سالم ملك المغرب ، في شأن السلطان المخلوع الغني بالله ، وكانت تربطه به مودة وصداقة ، مذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل إلى ملك غرناطة الجديد سفيراً يطلب إجازة الغني بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فأجابه السلطان إسماعيل إلى مطلبه ، وجاز الغني بالله وابن الخطيب إلى المغرب (المحرم سنة ٧٦١هـ) ، واستقبلهما السلطان أبو سالم في فاس بترحاب ، واحتفل بقدومهما في يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدته المشهورة ، التي يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادي ونم به الزهر
وهل باكر الوسمي داراً على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذي ربى جناحي وكره ... فها أنا ذا مالي جناح ولا وكر

ومنها :

قصدناك ياخير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها ... وقد رابنا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر نرهب موجه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

ومنها :

وأنت الذي تدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذي ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيا لمرين جاءه العز والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره ... ففي ضمن ماتأتي به العز والأجر[1]

---

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها في نفح الطيب ج ٣ ص ٤٠ — ٤٧

وكان لإنشاد ابن الخطيب فى السامعين أعظم وقع . ويقول لنا ابن خلدون وقد كان من شهود ذلك الحفل ، إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظيمين ، اللذين تجمع بينهما مشابهات عدة ، فقد كان كلاهما أستاذ عصره فى التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز فى حوادث عصره ، وفى توجيه شئونه ؛ وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب ، نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة ، التى يستأثر بها ابن الخطيب بالأندلس . وتوثقت بين المفكرين العظيمين مدى حين ، أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغنى بالله ؛ وكان كل منهما يقدر صاحبه ويجل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والإجلال ، فيقول لنا ابن خلدون مثلا فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لايجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » . ثم ينوه بعد ذلك برفعة رسائله السلطانية ، وبراعته فى الإدارة والحكم (١) .

ويصف لنا الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر ، معاصر ابن الخطيب ، خلاله ومواهبه فى تلك العبارات الرنانة :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لايدافع مدحه فى الكتب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية » . ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لايليق ويجمل (٢) .

وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا ، وتوالت مدائحه للسلطان أبى سالم ، ومنها قصيدة طويلة يهنئ فيها السلطان بفتح تلمسان (٧٦١هـ) هذا مطلعها :

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها ؛ وراجع كتابى ابن خلدون ص ٣٦ — ٣٩ ؛ وقد أورد المقرى هذه القصيدة كاملة فى أزهار الرياض (ج ١ ص ١٦٩ وما بعدها) .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ و ٤٠٥ .

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى ... وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان
فأطلعتها تفتر عن شنب المنى ... وتسفر عن وجه من السعد جيانى
كما ابتسم النوار عن أدمع الحيا ... وجف بخد الورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشمال شمولها ... فبان ارتياح السكر فى غصن البان[1]

وبعث إلى السلطان فى الوقت نفسه من سلا، برسالة بليغة يهنئه فيها بذلك الفتح الكبير [2].

وأنفق ابن الخطيب ومليكه فى المنفى زهاء عامين ونصف، حتى مهدت حوادث الأندلس لسقوط المغتصب، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب على المغرب، أن يسترد ملكه، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣هـ (١٣٦١م)، ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة: ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه، إذ كان ينافسه فى السلطة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى، الذى قربه السلطان وأولاه عطفه، لما قام به من معاونته فى استرداد ملكه. ونشبت بين الرجلين منافسة شديدة؛ وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وآله، ويذكره بسابق غدرهم، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم (رمضان سنة ٧٦٤هـ)، وبذا خلا له الجو، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان.

ويصف لنا ابن الخطيب، جهوده وعمله فى الوزارة يومئذ فى قوله: «ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة، بكر الحسنات بهذه الخطة، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان، وعفاف الحاشية والأمن. وروم الثغور، وتثمير الجباية، وإنصاف الحماة والمقاتلة، ومقارعة الملوك المجاورة، فى إيثار المصلحة الدينية، والصدع فوق المنابر، ضماناً من السلطان، بترياق سم الثورة، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة...»[3].

غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى، على أن ابن الخطيب جنح

---

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٦ — ١٩؛ وفى بعض أجزائها ينحو ابن الخطيب نحو أبى البقاء فى مرثيته الأندلسية.

(٢) راجع هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٩ و ٢٠

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤١.

عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته :

« وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل حكومته . وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتفننوا فى السعاية فيه »(١) .

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى فى الوزارة ، وهو يستأثر بكل سلطة ، ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحسد . وكان السلطان يعرض فى البداية عن الإصغاء لأعدائه والوشاة به ، ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس ، واستأذن السلطان فى تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها فى نفر من خاصته ومعه ولده على ؛ وما كاد يصل إلى جبل الفتح ، حتى عبر البحر إلى سبتة (٧٧٣هـ) ، وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز المرينى ، ملك المغرب . وكان السلطان يقيم يومئذ فى تلمسان ، فقصد إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة ، وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ، وتبوأ ابن الخطيب فى بلاط ملك المغرب أسمى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة ، بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته وسحق هيبته ، فاتهموه بالزندقة والخروج عن شريعة الإسلام ، والطعن فى النبى ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين ، ونسبوا إليه فى ذلك أقوالا ومقالات أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه فى الوزارة أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية ؛ وتولى صوغ الإتهام القاضى أبو الحسن بن الحسن النباهى عدو ابن الخطيب ، وأفتى بوجوب حرق كتبه التى تتناول العقائد والأخلاق ، فأحرقت فى غرناطة بمحضر من الفقهاء والمدرسين والعلماء « لما تضمنته من المقالات التى أوجبت ذلك عندهم وحققته لديهم » (سنة ٧٧٣ هـ)(٢) .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٥ .

(٢) كتاب المرقبة العليا ، أو تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال ص ٢٠٢ .

ووجه أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن فى حق النبى ، ويقول : «فانه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة ، يكبر فى النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم » . ثم يعدد مثالبه فى الحكم قائلا : «فليس يعلم أنه صدر منكم من العيث ، فى الإبشار والأموال ، وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل والغدر ، فى غالب الأحوال ، للشريف والمشروف والخادم والمخدوم » [١] . وسجل القاضى أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله إلى السلطان عبد العزيز ، يطالب بتنفيذ حكم الشرع فى الوزير الملحد وهو الإعدام ، فأنف السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس ، وقال لهم : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » وردهم خائبين ، وزاد فى إكرام ابن الخطيب ورعايته [٢] .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل (٧٧٤ هـ) ، وخلفه ولده السعيد طفلا على العرش غادر بلاطُ المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة ، ونزل بفاس ، واقتنى الضياع والدور ، واستمر على مكانته فى الدولة . ولكن حوادث المغرب مالبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت فى شمال المغرب ، على يد بعض الزعماء من بنى مرين . وعضدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبى سالم . وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير ، وخلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤ م) .

وكان ابن الخطيب قد لجأ فى أثناء ذلك إلى البلد الجديد (ضاحية فاس) ،

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٨ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨

وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر وزعماء الفتنة . بشأن ابن الخطيب ومصيره ؛ فلما وقع الانقلاب بادر السلطان بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب جهداً ، فى تشديد النكير عليه وتدبير مصرعه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما نمى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته ، وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله بن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، استدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ، ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الزندقة ، استناداً على ماورد فى بعض رسائله ، وعزر وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخذت جثته فى الغد وأضرمت فيها النار ثم دفنت .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ، ضحية الجهالة والتعصب ، والأحقاد السياسية الوضيعة ؛ وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر ، كان يرددها وهو فى سجنه ، ويرثى بها نفسه توقعاً لمصيره المحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صُموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ... كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموسَ سماء العلا ... غربن فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت(١)

* * *

ومن الصعب علينا أن نلم بمجهود ابن الخطيب الفكرى والأدبى فى هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسياً ومؤرخاً ، وقد ترك لنا تراثاً ضخماً متنوعاً ، من مؤلفات عديدة ، وديوان شعر حافل ، ورسائل أدبية وسياسية لاتحصى ؛ ومن

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ و ٣٤٢ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٢٣١ .

أشهر رسائله بنوع خاص تلك التى كان يوجهها إلى أهل الأندلس من وقت إلى آخر ، يحثهم فيها على الجهاد ، والذود عن وطن يتربص به العدو ، ويعتزم القضاء عليه ، وهى رسائل تدلى بما كان لابن الخطيب من فكر ثاقب وبصيرة نافذة ، هذا فضلا عما تمتاز به من روعة البيان والأسلوب .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الإحاطة فى أخبار غرناطة . مركز الإحاطة بأدباء غرناطة . الحلل المرقومة (بالإسكوريال) . اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية . رقم الحلل فى نظم الدول . الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية . التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى . (وهو أيضاً تاريخ لغرناطة) . منفعة السائل فى المرض الهائل . (وهو يتعلق بالوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ) (بالاسكوريال) . ريحانة الكتاب (بالاسكوريال) . الديوان (بالاسكوريال) . السحر والشعر . الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة [١].

ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية ، وقد نقل إلينا المقرى منها العدد الجم ، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ما كان يتبادله معه منها [٢] .

ويفرد المقرى فى كتابه نفح الطيب مجلدين كاملين (هما الثالث والرابع) لابن الخطيب وأخباره وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ، وقد نقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله ، فصولا وشذوراً لاتحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهى من أبدع ما كتب [٣] .

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية ، ومن أشهر نظمه الموشحة الذائعة الصيت التى مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً ... فى الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أشتات المنى ... ينقل الحظو على ما يرسم

---

(١) وقد انتهى إلينا معظم هذه الكتب ، ونشر عدد منها مثل الاحاطة (الأجزاء الأولى) ، واللمحة البدرية ، والحلل الموشية ، ورقم الحلل .

(٢) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ ؛ وقد أورد لنا المقرى فى أزهار الرياض تفصيلا أوفى لآثار ابن الخطيب (ج ١ ص ١٨٩ و ١٩٠) .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١٩ — ٤٢٦ .

زمراً بين فرادى وثنـــا مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قـد جلل الروض سنا فثغور الزهـــر منـــه تبسم[1]

— ٣ —

كان ابن الخطيب قطب الشعر والنثر فى عصره ، وكان محور الحركة الفكرية الأندلسية كلها ، فى أواسط القرن الثامن الهجرى ، تجتمع إليه وتلتف حوله ؛ وقد أتينا على ذكر بعض أكابر الشعراء من معاصريه ، المتقدمين عنه ، مثل ابن الجياب وابن سلبطور وابن خاتمة . وسنأتى هنا على ذكر أقطاب الشعر والأدب من معاصريه المتأخرين عنه . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن عبقرية ابن الخطيب الأدبية ، قـــد طبعت هذه المرحلة كلها ، من تاريخ الحركة الفكرية الأندلسية ، بطابعها القوى ، وبعثت إليها كثيراً من أسباب القوة والروعـة ، حتى ليسوغ لنا أن نقول إن مدرسة ابن الخطيب الأدبية ، امتدت منذ عصره إلى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى .

بل يلوح لنا أن الأثر القوى الذى بثته هذه المدرسة الأدبية الباهرة ، لم يقتصر على مملكة غرناطة ، بل تعدى حدود الأندلس المسلمة إلى قواعد الأندلس الذاهبة ، التى دخلت فى حوزة النصارى وتدجن أهلها ، فبدا بها شعاع ضئيل من النبوغ الأدبى القديم ، وظهر فيها بعض الشعراء الموهوبين ، بالرغم من مضى أكثر من قرن على خضوعها لحكم اسبانيا النصرانية . فمثلا نجد بين كتاب بلنسية وشعرائها يومئذ ، الفقيه أبا جعفر بن عبد الملك العذرى ، ومما كتبه لابن الخطيب فى بعض الشئون :

إنى بمجدك لم أزل مستيقنـــاً أن لا يهـــدم بالتغير ما بنى
إذ أنت أعظم ماجد يعزى لـه صنع وأكرم من عفا عمن جنى

وكتب له أيضاً :

إن كان دهر قد أساء وجارا فذمام مجدك لا يضيع جـــارا
فلأنت أعظم ملجأ ينجى إذا ما الدهر أنجـد مُوعداً واغارا[2]

---

(١) راجع هذه الموشحة بأكملها فى نفح الطيب ج ٤ ص١٩٨ ومابعدها .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص٤٢٦ .

وكان الوزير ابن زَمرك ، تلميذ ابن الخطيب وخلفه فى الوزارة ، أعظم شخصية تزعمت من بعده الحركة الأدبية بالأندلس ؛ وهو محمد بن يوسف بن محمد الشهير بأبى عبد الله بن زمرك ، أصله من شرقى الأندلس ، ونزحت أسرته إلى غرناطة ، واستقرت بربض البيازين . وبه ولد أبو عبد الله سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م) ودرس دراسة حسنة فى غرناطة وفاس ، وخدم حيناً فى بلاط السلطان أبى سالم المرينى . ولما نفى السلطان الغنى بالله إلى المغرب ، اتصل به ابن زمرك وانقطع إليه ، ثم عاد حين استرد ملكه ، فولاه كتابة السر وغمره بعطفه . وظهر ابن زمرك يومئذ ببارع أدبه ، وروعة نظمه ونثره ؛ وينوه ابن الخطيب فى الإحاطة بذكائه وخلاله ، وتفوقه فى الدرس والأدب ، ويصف شعره بأنه « مترام إلى هدف الإجادة ، كلف بالمعانى البديعة ، والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة » .

وعمل ابن زمرك فى كتابة السر فى كنف ابن الخطيب وتحت رعايته . ولكنه كان ضالعاً مع خصومه ؛ فلما انقضت العاصفة على ابن الخطيب وأصابته المحنة ، كان ابن زمرك فى طليعة أعدائه الساعين إلى هلاكه . وقد خلفه فى الوزارة عقب فراره ، وهو الذى تولى مهمة السعى لدى بلاط فاس فى محاكمته وإعدامه حسبما أسلفنا .

واستمر ابن زمرك على حظوته ونفوذه أعواماً طويلة ، ولكنه كان لطغيانه وغطرسته وحدة لسانه ، يثير حوله كثيراً من البغض والخصومة . وفى أواخر عهد الغنى بالله فقد حظوته ونفوذه ، واعتقل ونفى خارج غرناطة ؛ ولكنه عاد بعد وفاته إلى الحضرة . وفى بداية عهد السلطان محمد بن يوسف الثانى ، أعيد إلى الوزارة ، فأساء السيرة ، واشتد عيثه وطغيانه ، وكثر خصومه . وفى ذات ليلة من سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٥م) دهمه فى منزله جماعة من المتآمرين ، فقتلوه وولديه وخدمه شر قتلة . وينوه المقرى بما فى ذلك من عبر الدهر إذ كان ابن زمرك هو الساعى إلى مقتل أستاذه ابن الخطيب ، فكان أن دارت عليه الدائرة ، وقتل مثله ولكن بصورة أقسى وأشنع (١) .

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص٢٨٦ — ٢٩٠ ، وينقل إلينا المقرى ترجمة ابن زمرك عن كتاب لمعاصره الأمير اسماعيل بن الأحمر ، وينقل إلينا فى أزهار الرياض كثيراً من موشحاته (ج ٢ ص ١٧٧ ومابعدها). وقد أورد المستشرق بروكلمان (ج ٢ ص ٢٢٩) تاريخ مقتله فى سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٣م) ولكن رواية ابن الأحمر هى الأرجح .

ولابن زَمرك شعر كثير جيد نقل إلينا المقرى منه قصائد وموشحات عديدة، فمن شعره قوله يمتدح سلطان الأندلس الغنى بالله فى سنة ٧٦٥هـ :

لعل الصبا إن صافحت روض نعمان ... تؤدى أمان القلب عن ظبية البان
وماذا على الأرواح وهى طليقة ... لو احتملت أنفاسها حاجة العانى
وما حال من يستودع الريح سره ... ويطلبها وهى النموم بكتمان
وكالطيف أستقريه فى سنة الكرى ... وهل تنقع الأحلام غلة ظمآن
إمام أعاد الملك بعد ذهابه ... إعادة لا تأبى الحسام ولا وانى
فغادر أطلال الضلال دوارسا ... وجدد للإسلام أرفع بنيان
وشيدها والمجد يشهد دولة ... محافلها تزهى بيمن وإيمان

ومن قوله فى قصيدة طويلة يصف فيها دار الملك (الحمراء) :

فكم فيه للأبصار من متنزه ... تجد به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ... ولم تك فى أفق السماء جواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللت بحليها ... من الوشى تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذرة ترفعت ... على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها ... تظل عمود الصبح إذ بات باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
به البحر دفاع العباب تخاله ... إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلت أيدى الصبا متن صفحة ... أرتنا دروعاً أكسبتنا الأباديا

ومن قوله يشيد بأعمال الأميرين سعد ونصر، ولدى السلطان ، فى ميدان الجهاد :

يا آل نصر أنتم سرج الهدى ... فى كل خطب قد تجهم مظلم
الفاتحون لكل صعب مقفل ... والفارجون لكل خطب مبهم
والباسمون إذا الكماة عوابس ... والمقدمون على السواد الأعظم
أبناء أنصار النبى وحزبه ... وذوى السوابق والجوار الأعظم

ومن قوله فى الغزل :

قيـادى قد تملكه الغـرام ووجدى لا يطاق ولا يرام
ودمعى دونـه صوب الغوادى وشجوى فوق ما يشكو الحمام
إذا ما الوجد لم يبرح فؤادى على الدنيا وساكنهـا السلام

ولابن زمرك موشحات كثيرة رائعة، ومنها موشحته الشهيرة فى الإشادة بغرناطة ومحاسنها إذ يقول :

نسيم غرناطة عليـل لكنه يبرئ العليـل
وروضهـا زهره بليـل ورشـفه ينقع الغليل
سقى بنجد ربا المصلى مبـاكراً روضه الغمام سقى بنجد ربا المصلى
تبسم الزهر فى الكمـام والروض بالحسن قد تجلى وجرد النهر عن حسام
ودوحهـا ظله ظليل يحسن فى ربعـه المقيل
والبرق والجو مستطيل يلعب بالصـارم الصقيل
عقيلة تاجها السبيكه تطل بالمركب المنيف كأنهـا فوقه مليكه
كرسيها جنة العريف تطلع من عسجد سبيكه شموسهـا كلما تطيف
أبدعك الخالق الجميل يامنظراً كله جميـل
قلبى إلى حسنه يميل وقلبنا قد صـبا جميـل[1]

ونكتفى بما تقدم فى الاقتباس من شعر الوزير ابن زمرك ، ويلوح لنا أنه قـد يتفوق فى شاعريته على أستاذه ابن الخطيب ، وأن إنتاجه الشعرى ولاسيما فى الموشحات قد يتفوق على إنتاج أستاذه ، على أنه لاريب أنه يقصر عن مجاراة ابن الخطيب ، فى كثير من نواحى التفكير والإنتاج الأخرى .

* * *

وظهر من أعلام تلك المدرسة الزاهرة ، إلى جانب ابن الخطيب وابن زمرك ، عدة آخرون من الشعراء والكتاب ، منهم أبو سعيد فرج بن لب ؛ ولد سنة ٧٠١هـ وتوفى سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) ، وكان من أشهر أساتذة المدرسة النصرية (جامعة غرناطة) ،

---

(١) راجع ترجمة ابن زمرك وهى التى نقلها المقرى عن ابن الأحمر ، فى نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٧ وما بعدها ؛ وقد نقل إلينا المقرى كثيراً من قصائده وشعره (ج ٤ ص ٢٩٦ — ٣٥٤)

وقد ولى خطابة الجامع الأعظم حيناً ، وكان فوق تضلعه فى الفقه شاعراً مجيداً ، وقد ترك لنا مجموعة من الفتاوى المشهورة ، وطائفة من الشعر الجيد . ومن نظمه قوله :

خذوا للهوى من قلبى اليوم ما أبقى ... فما زال قلبى كله للهوى رقاً
دعوا القلب فى لظى الوجد ناره ... فنار الهوى الكبرى وقلبى هو الأشقى
سلوا اليوم أهل الوجد ماذا به لقوا ... فكل الذى يلقون بعض الذى ألقى
فان كان عبد يسأل العتق سيداً ... فلا تبغى من مالكى فى الهوى عتقا[1]

ومنهم القاضى أبو محمد بن عطية بن يحيى المحاربى كاتب الإنشاء ، وكان بارعاً فى النظم والنثر وخطيباً مفوهاً ، أصله من وادى آش وبها ولد سنة ٧٠٩هـ وتولى القضاء بها . ووفد على غرناطة سنة ٧٥٦هـ ودرس على ابن الخطيب وغيره من أكابر الشيوخ ، وتولى الكتابة السلطانية حيناً . ومن شعره قوله :

ألا أيها الليل البطىء الكواكب ... متى ينجلى صبح بليل المآرب
وحتى متى أرعى النجوم مراقباً ... فمن طالع منها على إثر غارب
أحدث نفسى أن أرى الركب سائراً ... وذنبى يقصينى بأقصى المغارب
فلا فزت من نيل الأمانى بطائل ... ولاقمت فى حق الحبيب بواجب[2]

ومنهم الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل بن السلطان أبى الحجاج يوسف (يوسف الثانى) المعروف بالأمير ابن الأحمر ، وقد سبقت الإشارة إليه . وكان أديباً ضليعاً ، وقد تناول فى كتابه « نثير الجمان » ، أكابر الكتاب والشعراء فى القرن الثامن الهجرى ، وأفاض بنوع خاص فى ذكر ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك ، ونقل عنه المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض ، معظم ما كتب عن أدباء عصره ، ونقل عنه بالأخص كتابه عن ابن زمرك حسبما بينا فى موضعه ، وعاش الأمير ابن الأحمر فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى . ومنهم أبو عبد الله الشريشى تلميذ ابن الخطيب ومساعده (سكرتيره) ، وكان مؤدبا لأبناء السلطان ، وهو الذى تولى نقل كتاب الإحاطة لابن الخطيب من مسوداته :

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٧و٢٦٨ .
(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٢ — ٣٦٥ .

بتكليف منه لاشتغاله بشئون الوزارة ، فجاء فى سنة مجلدات كبيرة . وكان الشريشى فى الوقت نفسه من علماء القرآن والسنة [١] .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب هذه الجمهرة الممتازة من الشعراء والأدباء ، عدة من الفقهاء والمؤرخين ، منهم ابن فرحون برهان الدين ابراهيم بن على اليعمرى الأندلسى المتوفى سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٦م) ، وكان فقيهاً ومؤرخاً ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «الديباج المذهب فى معرفة علماء أعيان المذهب» . وهو تراجم طبقات المالكية . وقد طبع مراراً بالمغرب ومصر . وكتاب « طبقات علماء العرب » ومن نسخة بالاسكوريال [٢] .

ومنهم أبو الحسن على بن عبد الله بن محمد الجذامى المالقى النباهى ؛ ولد بمالقة سنة ٧١٣هـ . ودرس على أشياخها . ثم وفد على غرناطة ، وتولى القضاء ، ثم عين كاتباً بالديوان . وانتهى إلى ولاية قضاء الجماعة بغرناطة . ونشبت بينه وبين ابن الخطيب خصومة شديدة ، وتبادلا الطعن والهجاء اللاذع فى عدة رسائل ومقالات . ولما نكب ابن الخطيب وغادر الأندلس ، كان النباهى فى مقدمة متهميه بالكفر والزندقة والساعين إلى هلاكه حسبما قدمنا . وتوفى فى أواخر القرن الثامن . ومن آثاره الباقية كتاب « نزهة البصائر والأبصار فى تاريخ الدولة النصرية » كتبه فى سنة ٧٨١هـ (١٣٧٩ م) ومنه نسخة فى الاسكوريال ، وكتاب « المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » وهو تاريخ لقضاة الأندلس . وقد نشر أخيراً [٣] . ومنهم الفقيه أبو القاسم بن سلمون الكنانى الغرناطى قاضى الجماعة بغرناطة المتوفى سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) ، ومن آثاره كتاب « العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم من الوثائق والأحكام »[٤] ، وأبو عبدالله محمد بن على بن اسحق الرندى المتوفى سنة ٧٩٢هـ

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٢

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ؛ وبروكلمان : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٣) وقد قام على نشره الاستاذ ليفى بروفنسال ، ونشره بعنوان « تاريخ قضاة الاندلس » . (القاهرة سنة ١٩٤٨) . وراجع فى ترجمة النباهى الكتاب المشار اليه (المقدمة) وأزهار الرياض ج ٢ ص ٥ — ٧ . وراجع بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) بروكلمان المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(١٣٨٩م) . وكان من أقطاب التصوف وقد كتب كتاب « الرسائل الكبرى » وغاية المواهب العلية بشرح الحكم العطائية » [١] .

وأما فى ميدان العلوم فلم نعثر على ما يدل على ازدهارها فى تلك الفترة ، على أننا نستطيع أن نذكر أن ابن الخطيب كان إلى جانب أدبه الممتاز ، عالماً بالطب والفلسفة ، وكان من تلاميذه الطبيب العالم ابن المهنا شارح الفية ابن سينا ، وشرحه عليها من أقيم الشروح [٢] .

obeikandl.com

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٢ .

الفصل الرابع

العصر الأخير والآثار الباقيـة

ركود الحركة الفكرية · الشعراء الذين ظهروا فى هـذا العصر · القاضى أبو بكر بن عاصم · والده أبو يحى · بعض الكتاب والأدباء · الشريف العقيلى وزير أبى عبد الله · ما حدث بعد سقوط غرناطة · القضاء على اللغة العربية · الأدب الموريسكى · محاولة اسبانيا القضاء على تراث الأندلس · ايداع الكتب العربية الباقية بقصر الاسكوريال · المجموعة العربية فى الاسكوريال · حجبها عن أعين البـاحثين · معجم الغزيرى · انتفاع البحث الحديث بالآثار الأندلسية · معجم المستشرق ديرنبور · الفن فى الأندلس · تطوره منذ القرن الرابع الهجرى · ازدهاره أيام الناصر وابنه المستنصر · تقدمه أيام الطوائف · ركوده أيام المرابطين والموحدين · الفن فى مملكة غرناطة · الموسيقى الأندلسيه · الآثار الباقية ·

بدأت مملكة غرناطة منذ أوائل القرن التاسع الهجرى تستقبل عصرها الأخير ، وأخذ الإستقرار والسلم النسبى الذى تمتعت به حيناً فى أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع ، يتصرم شيئاً فشيئاً ، وأخذت من ذلك الحين تواجه طائفة من الثورات والانقلابات الداخلية المتوالية ، وتواجه فى الوقت نفسه طوالع الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا النصرانية ، التى أخذت منذ منتصف القرن التاسع (القرن الخامس عشر الميلادى) توثق أواصر اتحادها ، وتستجمع قواها لإنزال ضربتها الأخيرة بعدوتها القديمة التالدة اسبانيا المسلمة .

وما كانت الحركة الفكرية لتزدهر فى مثل هذا الأفق الكدر ؛ ولذا نجـد فى هذا العصر فراغاً ملحوظاً فى ميادين التفكير والأدب فى الأندلس المحتضرة ، ولا نعثر إلا بقلة من المفكرين والأدباء ، الذين ظهروا فى تلك الفترة متفرقين متباعدين .

وكان ممن ظهر فى ميدان التفكير والأدب فى تلك الفترة على بن عاصم شاعر السلطان يوسف الثانى وقد جمع له مجموعة شعرية فى سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) [1] .

والقاضى أبو بكر محمد بن عاصم القيسى الغرناطى ، وقد كان أعظم شخصية

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٩ ·

ظهرت فى هذا الميدان فى مملكة غرناطة فى أوائل القرن التاسع الهجرى . ولد بغرناطة سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٨م) وتوفى بها سنة ٨٣٩هـ (١٤٢٦م) ، وبرع فى النحو والمنطق والبيان والفقه . وتولى الوزارة للسلطان يوسف الثانى سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) . ثم ولى قضاء الجماعة بغرناطة ، وبرز فى النثر والنظم ، ووضع عدة قصائد وأراجيز ، تناول فيها بعض مسائل من علم الأصول ، والقراءات والفرائض والنحو وغيرها . وله كتاب « تحفة الأحكام فى نقط العقود والأحكام » ، وهو مختصر فى الفقه ، وقد طبع بمصر وترجم إلى الفرنسية . وله أيضاً كتاب « حدائق الأزهار فى مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر » كتبه للسلطان يوسف . ويعرف بابن الخطيب الثانى لبراعته وجودة نثره ونظمه (١) .

وكذلك برع ولده العلامة الفقيه أبو يحيى بن عاصم فى النثر والنظم . وتولى كأبيه منصب الكتابة والوزارة ، وكتب شرحاً على كتاب أبيه « تحفة الأحكام » وكتب رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة فى عصره ، وما دهاها من آثار التفرق والفتنة ، ووصف فيها أساليب السياسة الإسبانية ، فى الكيد والتفريق بين المسلمين ، أسماها « جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى » . ونقل إلينا منها المقرى فى أزهار الرياض نبذاً عديدة تشهد بمقدرة صاحبها ، وعميق تفكيره ورائق أسلوبه (٢) .

وأبو الحسن سلام بن عبد الله الباهلى الإشبيلى ، وقد كتب سنة ٨٣٩هـ(١٤٢٥) كتاب « الذخائر والأعلاق فى أدب النفوس ومكارم الأخلاق » (٣) .

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجرى ، تضمحل الحركة الفكرية فى مملكة غرناطة شيئاً فشيئا . ولا غرو فقد كانت غرناطة تخوض فى تلك الفترة بالذات ، مرحلة الصراع الأخير ، وكانت الحرب الأهلية تمزق أوصالها ، وخطر الفناء الداهم يبدو لها قوياً فى الأفق .

بيد أن شعاعاً أخيراً كان يبدو فى تلك الظلمات المدلهمة . فنرى فى أواخر

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٨ و ٩ ؛ وبروكلمان : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٤

(٢) راجع أزهار الرياض ، ج ١ ص ٥٠ وما بعدها ، و ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣) بروكلمان : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٩ وقد طبع الكتاب المشار إليه بالقاهرة سنة ١٩٢٨ .

القرن التاسع ، فى الوقت الذى كانت غرناطة تسلم فيه أنفاسها الأخيرة ، عدة من المفكرين والأدباء الذين يستحقون الذكر والتنويه .

وكان من هؤلاء القاضى أبو عبد الله محمد بن على بن محمد بن القاسم الإشبيهى المعروف بابن الأزرق ، أصله من وادى آش وتولى قضاء الجماعة بغرناطة . وكان بارعاً فى النثر والنظم والتاريخ . ومن آثاره كتاب فى السياسة الملكية عنوانه : « الإبريز المسبوك فى كيفية أدب الملوك » (سنة ٨٣٨هـ) . وكتاب «بدائع السلك فى طبائع الملك» لخص فيه محتويات مقدمة ابن خلدون وعلق عليها ، وأتى فى موضوعها بزيادات جديدة ، وكتاب « روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام » . ولما ساءت الأحوال فى غرناطة وأشرفت على السقوط ، عبر البحر إلى تلمسان ، ثم ارتحل إلى المشرق[1] ، ونزل بالقاهرة فى عصر السلطان الأشرف قايتباى ، واتصل به ، وحاول أن يستحث همته لتسيير جيش إلى الأندلس لاسترداد غرناطة[2] . ومن شعره المؤثر حين نزل النصارى بمرج غرناطة :

مشوق بخيمات الأحبـــة مولع ... تذكره نجـــد وتغريه لعلع
مواضعكم يا لائمين على الهوى ... فلم يبق للسلوان فى القلب موضع
ومن لى بقلب تلتظى فيـه زفرة ... ومن لى بجفن تنهمى منه أدمع
رويدك فارقب للطائف موقعاً ... وخل الذى من شره يتـــوقع
وصبراً فان الصبر خير تميمة ... ويافوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقا باللطف من خير راحم ... فألطافه من لمحة العين أسرع[3]

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الحداد الشهير بالوادى آشى ، وهو أيضاً من أهل وادى آش ، وكان أديباً بارعاً وله تعليقات كثيرة على أدباء عصره . وقد غادر غرناطة قبيل سقوطها بقليل ونزل بتلمسان[4] .

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٧١ ، و ج ٣ ص ٣١٨ و ٣١٩ . وقد طبع كتاب الابريز المسبوك بالجزائر

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٠ .

(٣) أزهار الرياض ج ٣ ص ٣١٨ و ٣١٩ .

(٤) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٥ و ٧١ .

وأبو الحسن على بن محمد القرشى البسطى ، وقد ولد فى بسطة ودرس فى غرناطة وتلمسان وتونس ، ورحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج ، ثم استقر بعد عوده فى غرناطة . ولما اشتد ضغط النصارى على غرناطة عبر البحر إلى تلمسان ، وعاش هناك حيناً آخر حتى توفى سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م) . وقد برع البسطى فى الرياضيات ووضع كتباً فى الحساب والجبر (١) .

وأبو الحسن على بن قاسم بن محمد التجيبى الزقاق . وقد درس فى غرناطة وفاس وتولى الخطابة فى غرناطة . ولما سقطت غرناطة فى يد النصارى ، عبر البحر إلى المغرب ، وتوفى سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦م) . ومن آثاره كتاب « المنهج المنتخب إلى أصول المذهب » فى الفقه المالكى (٢) .

على أن أعظم شخصية ظهرت فى تلك الفترة القاتمة فى ميدان التفكير والأدب ، هى شخصية الوزير والكاتب الشاعر أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى المعروف بالشريف العقيلى ، وزير أبى عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس وكاتبه . وكان فوق تضلعه فى الفقه ، إمام عصره فى النثر والنظم . وقد وصفه الوادى آشى بأنه « شاعر العصر ، مالك زمامى النظم والنثر » وبأنه « إمام هذه الصناعة ، وفارس حلبة القرطاس واليراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة » . ووُصف أيضاً بحق بأنه خاتمة أدباء الأندلس .

ومن شعره يمدح السلطان أبى عبد الله حينما ولاه منصب الكتابة قوله :

أوجه سعدى انحط عنه اللثام ... أم بدر أفق فض عنه الغمام
كأنما أقبس نور البها ... من وجه مولانا الإمام الهمام
ابن أبى الحسن الأسرى الذى ... قد كان للأملاك مسك الختام
ضرغام قد أنجب شهباً له ... فى صدق بأس ومضاء اعتزام
دام له النصر الذى جاءه ... والسيف من طلى أعاديه دام

ومنه قوله حينما نزل النصارى بمرج غرناطة :

بالطبل فى كل يوم ... وبالنفير نراع
وليس من بعد هذا ... وذاك إلا القراع

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦.
(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

يارب خيرك يرجـــو من هيض منه الـذراع
لاتسلبنى صـــــبراً منـــه لقلبى ادراع

ولمـا سقطت غرناطة فى يد الإسبان ، عبر الشريف العقيلى البحر إلى المغرب مع سلطانه المنفى أبى عبد الله محمد ، وكان من أروع ما كتب رسالة الإعتذار ، التى كتبها على لسان السلطان أبى عبد الله إلى سلطان المغرب ، وعنوانها « الروض العاطر الأنفاس فى التوسـل إلى المولى الإمام سلطان فاس » (١) . ومهد لهـا بعد الديباجة بقصيدته الرائعة التى مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيا لمـا مثله يرعى من الـذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جـور منتقم

وقد سبق أن أتينا على ذكر هذه الرسالة المؤثرة الفريدة ، فى موضعها ، وأوردنا طرفاً من قصيدة العقيلى ، ومن أقواله التى يخاطب بهـا السلطان أبو عبد الله سلطان فاس مستجيراً به ، ملتجئاً إلى حمايته ، معتذراً إليه عما بدر منه .

وعبر البحر إلى المغرب قبيل سقوط غرناطة وبعده جمهرة من العلماء والأدباء ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى (٢) . وقد آثروا مغادرة الوطن القديم على التعرض لفقد الحرية وامتهان الدين والكرامة القومية ، ومذلة العبودية فى ظل الحكم الأجنبى المتعصب .

— ٢ —

وكان سقوط غرناطة فى يد اسبانيا النصرانية فى سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) ، نذيراً بانهيار صرح الأمة الأندلسية القومى والاجتماعى ، وتبدد تراثها الفكرى والأدبى ، وكانت إسبانيا النصرانية ترمى قبل كل شيء ، إلى القضاء على خواص الأمة المغلوبة الدينية والفكرية ، وعلى سائر الروابط الأدبية التى تربطها بماضيها المجيد ، وقـد نجحت السياسية الإسـبانية ، يدعمها طغيان الكنيسة وعسف ديوان التحقيق ، فى تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد ، فلم يمض على سقوط غرناطة نحو خمسين عاماً ،

---

(١) نشر المقرى هذه الرسـالة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ — ٦٢٨ ؛ وفى أزهـار الرياض ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢ .

(٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

حتى استحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، يستبدل دينه القديم — الإسلام — بالنصرانية المفروضة ، ويتكلم القشتالية . وتغيض البقية الباقية من خصائصه القديمة ، شيئاً فشيئا ، تحت ضغط التشريعات والإجراءات التعسفية المرهقة .

وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الإستشهاد المحزن ، الذى فرض عليها ، تحاول بكل وسيلة أن تستبقى ما وسعت ، من تراثها الفكرى والروحى القديم . فكان الموريسكيون بالرغم من دخولهم فى النصرانية ، يتعلقون سراً بدينهم القديم ، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية ، وديوان التحقيق من ورائهم يطاردهم بمنتهى القسوة حسبما فصلنا . وكانوا يحافظون جهدهم على لغتهم العربية . ولكن السياسة الإسبانية المرهقة ، فطنت منذ الساعة الأولى إلى أهمية اللغة فى تدعيم الروح القومية ، فعولت على سحق العربية وكل آثارها ، وصدر منذ أيام الإمبراطور شارلكان فى سنة ١٥٢٦ ، أول قانون لتحريم التخاطب بالعربية على الموريسكيين . ولكنه لم يطبق بشدة . وكانت العربية ماتزال حتى ذلك الوقت لغة لأدب يحتضر ، وكان يوجد ثمة بين الموريسكيين من ينظم بها الشعر ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى القصيدة التى أرسلها الموريسكيون إلى السلطان بايزيد الثانى يلتمسون فيها النجدة والغوث ، وهى قصيدة تنم بالرغم من ركاكتها عن روح شعرية مؤثرة . واستمر الموريسكيون عصراً آخر يوجهون رسائلهم العربية إلى مسلمى المغرب . وكانت السياسة الإسبانية تضيق ذرعاً بالعربية ، وتزداد منها توجساً ، فعادت فى عهد فيليب الثانى لتتخذ خطوتها الحاسمة فى القضاء عليها . وصدر فى سنة ١٥٦٦ قانون جديد صارم يحرم على الموريسكيين التخاطب بالعربية أو التعامل بها على نحو ما فصلنا ، وطبق القانون بمنتهى الشدة . وكانت العربية قد أخذت تغيض شيئاً فشيئا فى غمر العسف والاضطهاد ، فجاء القانون الجديد ضربة قاضية لمظاهرها الباقية . وفى هذا الوقت بالذات نشهد نفثات العربية الأخيرة لدى الموريسكيين فى بعض قصائدهم السرية الثورية . وقد أشرنا فيما تقدم إلى قصيدة من هذا النوع كتبها من يدعى باسمه المسلم محمد بن داود فى التحريض على الثورة الموريسكية الاخيرة فى سنه ١٥٦٨

ولم تمض فترة قصيرة على تطبيق القانون الجديد بتحريم العربية نهائياً ، وفرض القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل على الموريسكيين ، حتى اختفت المظاهر والآثار

الأخيرة للعربية . ومع ذلك فقد وجد الموريسكيون فى القشتالية ذاتها متنفس تفكيرهم وأدبهم القديم ، فكانوا يكتبون العربية بحروف قشتالية ، ويكتبون سيرة نبيهم القديم سراً باللغة القشتالية ، وينظمون بها المدائح النبوية والأساطير الدينية الإسلامية ، فى قصائد تختلط فيها الألفاظ العربية بالقشتالية . وتوجد إلى اليوم بقية من هذا الأدب الموريسكى ، الذى تبدو فيه الروح العربية ، بالرغم من لغته وأساليبه القشتالية .

وقد نوه غير واحد من الكتاب الإسبان ، بما كان عليه الأدب الموريسكى بالرغم من ضعفه وضآلة شأنه ، من شاعرية ، وشعور بالجمال ، وخيال ممتع ، وذوق سليم . ويعلق الدون برونات على اختفاء الموريسكيين واختفاء أدبهم بعبارات شعرية يقول فيها : « إن السياسة الإسبانية لم تكتف بنفى الموريسكيين وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا ، ولم يقتصر الأمر على انتصار التعصب ، وبربرية ديوان التحقيق بل تعداه إلى إختفاء الشعر ، وشعور الجمال الموريسكى ، والأدب السليم الذى رفع سمعة تاريخنا » .

ثم يقول : « إنه قد اختفى بطرد الموريسكيين ، الأدب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحى الذى كانوا يمثلونه . وقد غاض باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والإلهام والحماسة ، التى كانت خواصهم ، وحل محلها الظلام فى الأفق الأدبى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » .

ويعرف الأدب الموريسكى فى الإسبانية « بالألخميادو » Aljamiado . ويقول بعض النقدة ، إنه وإن لم تكن للأدب الموريسكى ثروة من الجمال ، أو قيمة أدبية ذات شأن ، فان له قيمة تاريخية واجتماعية فى الكشف عن التقاليد والعادات . وقد ترك الموريسكيون أثرهم فى اللغة الإسبانية وفى الشعر الإسبانى ، وفى الأفكار الدينية وغيرها . وأبرز آثارهم الدينية هى الكتب التى حاولوا أن يعرضوا فيها تعاليم الإسلام ، وفيها تمزج المثل الإسلامية بالمثل النصرانية ، أو تصور فى صورها ، وربما صور النبى العربى فى صور المسيح ؛ وجل آثارهم الدينية تمتاز بهذا المزيج الغريب الذى أملته ظروف العصر ، وروح المطاردة الدينية ، ورهبة ديوان التحقيق .

بيد أن الآثار الدينية التى خلفها الموريسكيون، تنم فى معظمها، عن بغضهم للنصرانية ومثلها وتقاليدها (١) .

— ٣ —

وقد أبدت السياسة الإسبانية اهتماماً خاصاً بالقضاء على تراث الأندلس الفكرى. وبدأت بارتكاب جريمتها الشائنة فى سنة ١٤٩٩م أعنى لأعوام قلائل من سقوط غرناطة، فجمعت الكتب العربية وأحرقت حسبما فصلنا من قبل (٢). ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء، وأودعت أيام فيليب الثانى فى قصر الإسكوريال الذى أنشأه هذا الملك على مقربة من مدريد، وحجبت عن كل باحث ومتطلع. وفى أوائل القرن السابع عشر، وقع حادث كان سبباً فى مضاعفة المجموعة العربية الإسبانية. ذلك أن السفن الإسبانية استطاعت أن تأسر مركباً مغربية لمولاى زيدان ملك مراكش، مشحونة بالتحف، وبها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغيرها. وتقول الرواية الإسبانية إن هـذا الحادث وقع فى عصر فيليب الثالث، والظاهر أنه وقع نحو سنة ١٦٢٠م، حينما اشتد اضطراب العلائق بين اسبانيا والمملكة الشريفية (٣). وقد حملت هذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية إلى اسبانيا، وأودعت قصر الإسكوريال، إلى جانب بقية التراث الأندلسى، التى كانت مودعة فيه منذ أيام فيليب الثـانى. وكانت مجموعة مولاى زيدان المغربية تحتوى بلا ريب على عـدد كبير من الكتب الأندلسية التى كثر استنساخها، واقتناؤها بالمغرب، بعد سقوط غرناطة.

ولبثت هذه المجموعة من المخطوطات العربية الأندلسية مودعة بمكتبة الإسكوريال الملكية حتى أواسط القرن السابع عشر، وكانت تبلغ يومئذ عدة آلاف، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها باسبانيا. ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية

---

(١) راجع كتاب Los Moriscos Espagnoles y su Expulsun لمؤلفه D. Pascual Boronat الفصل الثالث عشر ص ٣٨٤ و ٣٨٦ و ٣٨٩ .

(٢) راجع ص ٢٢٩ من هذا الكتاب.

(٣) راجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسـلاوى ج ٣ ص ١٢٨ ؛ وراجع كتابى « تراجم إسلامية » فى ترجمة المقرى ص ٢٥٣ .

الباقية من تراث الأندلس . ففى سنة ١٦٧١ شبت النار فى الإسكوريال ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين . وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص على إخفاء الآثار العربية عن كل قارئ وباحث ، كأنما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامى إلى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هـذا الروح كل وسيلة ممكنة . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم ، تحملهم نزعة الدين والجنس يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المصادر النفيسة ، التى تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها فى العصور الوسطى ، ويكتفون فى كتابة هذه المرحلة الطويلة الباهرة من تاريخ بلادهم ، بالرجوع إلى المصادر الإسبانية التى تفيض بالتحامل والتعصب . ولم تفق الحكومة الإسبانية من جمودها ، ولم تفكر فى تنظيم تراث الأندلس الفكرى والتعريف به ، قبل أواسط القرن الثامن عشر ، فعندئذ انتدبت عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، هو ميخائيل الغزيرى اللبنـانى ، الذى يعرف فى الغرب باسم كازيرى Casiri وعهـدت إليه بدرس الآثار العربية ، ووضع فهرس جامع لها . وكان الغزيرى بنشأته وثقافته الشرقية رجل المهمة ، فلبى دعوة الحكومة الإسـبانية ، وعين فى سـنة ١٧٤٩ مديراً لمكتبة الإسكوريال ، وأنفق هنالك بضعة أعوام يدرس المخطوطات العربية ويحققها ، ثم بدأ بوضع فهرسه الجامع الذى عهد إليه بوضعه . وفى سنة ١٧٦٠ صدر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis « المكتبة العربية الإسـبانية فى الإسكوريال » ؛ وصدره الغزيرى بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة هذه المخطوطات العربية وأهميتها ، وقسم هـذه الآثار إلى عدة فنون ، وبدأ بكتب اللغة وعلومها ، ثم الشعر وأبوابه ، ثم الفلسفة وما يتعلق بهـا ، ثم الأخلاق فالطب والتاريخ الطبيعى ، فالرياضة والهندسة والفلك ، فالفقه وعلوم الدين والقرآن ، وهى تشمل أكبر مجموعـة . ثم الآثار النصرانيـة . وتبلغ محتويات هذا الجزء الأول من الفهرس ١٦٢٨ مجلداً . وفى سنة ١٧٧٠ ظهر الجزء الثانى من الفهرس ، محتوياً على كتب الجغرافيا والتاريخ ومنتهياً برقم ١٨٥١ ، وهو جملة ما أثبته الغزيرى فى فهرسه .

وكان أهم ما اتجهت إليه الأنظار بعـد ظهور معجم الغزيرى ، هو التنقيب

فى مجموعة الإسكوريال عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ اسبانيا المسلمة، وسياسة الحكومات الإسلامية، وخواص المجتمع الإسلامى . فعنى طائفة من الباحثين الإسبان فى أواخر القرن الثامن عشر ومنهم أندريس وماسدى . ببحث تاريخ العلوم والآداب العربية، فأخرج أندريس كتابه عن « أصول الأدب » وأخرج ماسدى مؤلفه عن « تاريخ الحضارة الإسبانية » (١) . ثم جاء العلامة كوندى فوضع لأول مرة تاريخاً لاسبانيا المسلمة (٢)، يعتمد فيه على الروايات العربية . وظهر هذا المؤلف بين سنتى ١٨١٠ و ١٨١٢ . وبالرغم من أن مؤلف كوندى يحتوى على كثير من الأخطاء التاريخية ، فقد كان أول مجهود غربى من نوعه يعرض للغرب قضية العرب فى اسبانيا من الناحية العربية، وفيه يقف الغرب لأول مرة على وجهات النظر الأندلسية . وخواص النظم والسياسة الإسلامية . ويبدى كوندى فى كثير من المواطن حماسة فى الدفاع عن العرب ؛ والإشادة بخلالهم ومواقفهم وحضارتهم ، ويصدر فى بعض المواطن أشد أحكام على أمته وسياسة مواطنيه .

وأخذت المصادر العربية الأندلسية ، تمثل من ذلك الحين فى كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس . وكان العلامة المستشرق الهولندى رينهارت دوزى أعظم باحث غربى ، توفر على دراسة التاريخ الأندلسى ، ودراسة مصادره العربية والغربية ، وكتابه القيم « تاريخ المسلمين فى اسبانيا حتى فتح المرابطين » (٣)، من أنفس ما كتب فى هذا الباب . وتوالت بعد ذلك جهود الباحثين الغربيين فى دراسة تاريخ اسبانيا المسلمة وكتابته . وصدرت بعد كتاب دوزى خلال القرن الماضى فى هذا الموضوع ، عدة كتب قيمة، إسبانية وإنجليزية وفرنسية وغيرها، يمتاز الكثير منها بدقة البحث وروح الإنصاف .

وقام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور فى أواخر القرن الماضى ، بدراسة جديدة للمجموعة الأندلسية بالإسكوريال ، ووضع لها فهرساً جديداً بالفرنسية عنوانه، « المخطوطات العربية فى الإسكوريال » Les Manuscrits Arabes de l'Escurial

---

(١) Historia critica de Espana y de la cultura espanola

(٢) Historia de la Dominaçion de los Arabos en Espana

(٣) Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides

نحا فيه نحو الغزيرى فى ترتيبـــه وترقيمه ، وعثر على نحو مائة مخطوط أخرى لم يثبتها الغزيرى فى معجمه . بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الجديد سوى جزئين يشتملان على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة والأخلاق والسياسة . وأصدر الأستاذ ليفى بروفنسال بعد وفاة ديرنبور جزءاً ثالثاً من هذا الفهرس مشتملا على كتب الدين والجغرافيا والتاريخ . ومازال هذا الفهرس الجديد لمجموعة الإسكوريال الأندلسية ، ينقصـــه استعراض كتب الطب والتاريخ الطبيعى والرياضة والفقه ، كما ينقصـــه ذكر الكتب التى غابت عن الغزيرى وعددها نحو مائة كتاب .

وقد كان التنقيب فى تراث الآثار الأندلسية ، والتعريف بها على هذا النحو ، فتحاً عظيما فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الحضارة الإسلامية . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ، لا يعرف من هذا التاريخ سوى ما تعرضه الرواية الإسبانية من شذور مغرضة ، وكانت مئات من الحقائق تغمرها حجب التعصب والتحامل ، فجاءت وثائق الإسكوريال تبدد هذه الحجب ، وتقدم الأدلة الساطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ، ومبلغ ما وصلت إليه من الإزدهار والتقدم .

— ٤ —

بقى أن نتحدث عن الفن فى الأندلس ، وسيكون حديثنا عن ذلك عاماً . ذلك أن الفن فى مملكة غرناطة آخر دول الإسلام بالأندلس ، لم يكن سوى المرحلة الأخيرة لسير الفن الأندلسى .

وقد نشأ الفن الإسلامى فى البداية نشأة متواضعة . ونريد بالفن هنا معناه الدقيق الخالص . فالتصوير والنحت والنقش والزخرفة والموسيقى والغناء وما إليها ، مما ينعت فى عصرنا بالفنون الجميلة ، يقع تحت هذا المعنى . بيد أن هنالك معنى أوسع للفن . فقد يشمل فنون الهندسة والعمارة وما إليها ، ولابأس من أن نعامله بهذا المعنى الأعم فى الوقت نفسه . وهذه النشأة المتواضعة للفن الإسلامى ترجع بالأخص إلى عوامل دينية . فقد نشأ الإسلام خصيم الوثنية ، يضطرم بغضاً لمظاهرها ورسومها ، وقـــد كان النحت والتصوير والنقوش الرمزية ، وقت ظهور الإسلام من مظاهر الوثنية ورسومها البارزة ، فكان الإسلام يخاصمها ويطاردها . ولم يشأ الإسلام أن يفسح

صدره لهذه المظاهر والرسوم كما فعلت النصرانية . حيث اعتنقتها وشملتها برعايتها ، وازدانت بها كنائسها وهياكلها العظيمة منذ القرن الأول للميلاد . ثم غدت فيما بعد مثاراً للخلاف الطائفي ، واعتبرت رمزاً لعبادة الصور ، وثارت حولها تلك المناقشات والخصومات البيزنطية الشهيرة . بيد أن هذه الخصومة التي شهرها الإسلام في عصره الأول على التماثيل والصور ، رموز الوثنية ومظاهرها ، لم تلبث أن خفت وطأتها منذ القرن الثاني للهجرة . حينما قامت الإمبراطورية الإسلامية ، وأنشئت في أرجائها الهياكل الإسلامية العظيمة ، وبدت الخلافة في عظمتها الدنيوية ، وأخذت بقسطها من الترف والبهاء والبذخ . عندئذ عنى الخلفاء بالفنون وازدانت قصورهم ومعاهدهم وحدائقهم ، بمظاهر الفن الرفيع ، واعتمد على الاقتباس بادىء بدء من تراث الفنون الفارسية واليونانية والرومانية والبيزنطية بنوع خاص ، واقتبس عرب الأندلس أيضاً من تراث الفن القوطي . ولم يمض بعيد حتى امتزج الإقتباس بالابتكار ، وبدأ الفن الإسلامي في مظاهره المستقلة . وبلغ منذ القرن الثالث للهجرة ، سواء في بغداد أو قرطبة مستوى رفيعاً من الروعة والبهاء . وبرع العرب في صنع الزخارف والنقوش والرسوم والصور الدقيقة ، وانتهوا في الموسيقى إلى ذروة الافتنان والبراعة ، وازدهر الفن الإسلامي في المشرق والمغرب أيما ازدهار .

وبلغ الفن الإسلامي في الأندلس أوج ازدهاره في القرن الرابع الهجري . ويجب أن نلاحظ أن عرب الأندلس كانوا أسبق الأمم الإسلامية إلى صنع التماثيل والصور ، وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث ، بالتماثيل والصور والنقوش ، التي تمثل الحيوان والنبات والطير . أما التماثيل والصور البشرية ، فكانت تلقى نوعاً من التحريم العام . وفي عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠هـ) خطا الفن الأندلسي خطوة أخرى ، فصنعت التماثيل والصور البشرية ، وزينت بها القصور والمعاهد الخلافية ، وكما أن عصر الناصر كان أعظم عصور الدولة الإسلامية في الأندلس ، فكذلك كان أعظم عصور الفن الأندلسي .

وقد كان قصر قرطبة الكبير حتى عهد الناصر ، موضع العناية والرعاية من جميع أمراء بني أمية ، وكان مجمع البهاء والرواء والفن . ولكن الناصر آثر أن ينشىء له ضاحية ملوكية جديدة ، تكون آية في الفخامة والبهاء ، فأنشأ مدينة الزهراء وقصورها

ومعاهدها الباهرة ، وأفاض عليها من ألوان البذخ والبهاء ، وبدائع الفن والزخرف ، آيات رائعات . وكانت نقوش الزهراء ورسومها وتماثيلها ، أبدع ما أخرج الفن الإسلامى فى الأندلس . ولا يتسع المقام للإفاضة فى وصف عظمة الزهراء وروائعها الفنية ، فنحيل القارىء إلى ما أورده صاحب نفح الطيب فى هذا الشأن من مختلف الروايات والفصول (١) . ولكنا نخص بالذكر هنا مثلين رائعين من آيات الفن الباهر ، التى زينت بها قصور الزهراء ، فمن ذلك أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صنع الملوك الأوائل ، مطلى بالذهب ، وعيناه جوهرتان لهما ضوء ساطع ، قد أقيم على بحيرة قصر الناعورة ، يجوز الماء إلى مؤخره من قناة تحمل إليه الماء العذب ، من جبل قرطبة على حنايا معقودة ، فيدفع الماء إلى البحيرة فى منظر رائع (٢) . ومن ذلك الحوض البديع الذى جلبه الناصر لاستحمامه ، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة : أسد إلى جانبه غزال ثم تمساح ، يقابلها ثعبان وعقاب وفيل ، وفى الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، كلها من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، وتخرج الماء من أفواهها (٣) . وهنا أيضاً أعنى فى عصر الناصر ، نرى لأول مرة فيما يظهر ، تماثيل الإنسان وصوره تمثل فى الفن الأندلسى ، إلى جانب تماثيل الحيوان وصوره . فيروى أن الناصر أمر أن تنقش صورة جاريته وحظيته « الزهراء » على باب قصر الزهراء ، وهذه الجارية فيما يروى هى التى حملته على بناء الزهراء وتسميتها باسمها (٤) . وزينت أبهاء الزهراء بتماثيل وصور بشرية (٥) . فكانت ظاهرة فنية جديدة .

وبلغ الفن الأندلسى فى عصر الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ذروة القوة والبهاء . وما زالت أسبانيا النصرانية تحتفظ ببعض تحف فنية نادرة من تراث ذلك العصر ، منها

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٢٦٤ — ٢٦٦ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ وراجع Murphy : Mohamedan Empire in Spain. p. 167—174

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ و Murphy ; ibid, p 292

وعل الزهراء الشهير . وهو تمثال وعل من البرونز زين جسمه بالنقوش والزخارف العربية البديعة . وتاج عمود من المرمر به زخارف دقيقة مدهشة ، وقد نقش عليه اسم الحكم المستنصر بالله واسم حاجبه . وكلاهما بمتحف قرطبة ؛ وصندوق من العاج البديع نقشت عليه صور فرسان وأسود آية فى الدقة ، وذكر عليه اسم صاحبه وهو عبد الملك بن أبى عامر ولد الحاجب المنصور . ويحفظ بكنيسة بنبلونة الكبرى[١] . وقد برع الأندلسيون فى الصناعات الفنية الدقيقة ، مثل صناعة الحلى الفائقة والتحف العاجية والجلدية ، ونافسوا فيها صناعة بيزنطية[٢] . وكانت القصور والمعاهد العامة والمساجد الجامعة ، معرضاً لأبدع ماتمخض عنه الفن الرفيع يومئذ من صنوف الزخارف والرسوم والتحف الفنية . ومن ذلك أنه كان بجامع قرطبة تنور من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وقد زين بصور ونقوش رائعة ، يعجز عن وصفها القلم[٣] . وقد امتازت المدرسة المحافظة بالتفوق فى نوع جديد من الزخارف ، يقوم على رسوم الشجر والأوراق والأغصان والأشكال المتماثلة المبتكرة دون الصور التى تمثل الإنسان والحيوان ؛ ذلك لأنها كانت تقوم على احترام التقاليد الدينية القديمة . واشتهرت هذه المدرسة فى العصور الوسطى ، وكان لها أثر عميق فى تطور الفن الأوربى ، ومازالت تعرف بالنماذج العربية (الأرابسك)[٤] .

وسطع الفن الأندلسى أيام الطوائف مدى حين ، ونشر ملوك الطوائف ولاسيما بنو عباد فى إشبيلية ، وبنو ذى النون فى طليطلة حولهم آيات من البذخ والترف والبهاء . وأغدقوا على قصورهم ومعاهدهم بدائع الفن وروائعه ، مما أفاض فى وصفه المؤرخون والكتاب والشعراء . وكان بنو عباد فى إشبيلية أعظم حماة للفنون والآداب . وكان قصر المأمون بن ذى النون ملك طليطلة آية رائعة من آيات الفن والبهاء ، وكان روشنه الشهير الذى بنى وسط بحيرة القصر ، من الزجاج الملون المزين بالنقوش الذهبية ، مستقى خصباً لخيال الشعراء ، وكانت حافة البحيرة مزدانة بصفوف من تماثيل الاسود

(١) Lévy - Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème Siécle pl. XXII, XXIII , XXXIV.

(٢) Lévy-Provençal, ibid, p. 189

(٣) نفح الطيب ٣ ص ٢٤٥ .

(٤) Murphy ; ibid, p. 291 — Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien ;

التى تقذف الماء من أفواهها ، وهى لاتزال تقذف الماء ولا تفتر ، وتنظم لآلئ الحباب بعد ما نثر[١] . وكان للمقتدر بن هود ملك سرقسطة فى قصره ، مجلس رائع زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة[٢] . ولم يكن هذا الهوى الفنى قاصراً على الأمراء والكبراء ، فقد روى لنا المقرى أنه كان ببعض حمامات إشبيلية تمثال بديع الصنع ، قال فيه الشاعر :

ودمية مرمر تزهو بجيـــد تناهى فى التورد والبياض
لهـا ولد ولم تعرف حليلا ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنهـا حجر ولكن تتيمنا بألحاظ مـراض

وفى عهد المرابطين والموحدين خبت دولة الفن الإسلامى فى الأندلس . ذلك لأن أولئك الغزاة البربر ، الذين كانوا يضطرمون بروح دينية محافظة ، لم يقدروا روعة الفن الرفيع وسحره ، ولم تفسح لهم الثورات والحروب الداخلية ، مجالا لرعاية الفنون والآداب .

وازدهرت الفنون والآداب كرة أخرى فى مملكة غرناطة . وكان بنو الأحمر حماة كرماء للفنون . ونلاحظ أن الفن الأندلسى بلغ فى هذا العصر ذروة التحرر والافتنان أيضاً ، وتوسع الفنانون المسلمون فى تصميم المناظر والرسوم . ولم يقتصر الأمر على الصور والرسوم والتماثيل المفردة ، بل تعداه إلى المناظر المصورة ، وإلى المجموعات المنحوتة . وما زالت حمراء غرناطة ، وما زالت أبهاؤها ومجالسها الرائعة ، تنبئ عما انتهت إليه آخر دول الإسلام فى الأندلس من البذخ والبهاء ، وعما بلغه الفن الأندلسى فى هذه المرحلة الأخيرة من حياة الإسلام فى اسبانيا ، من الدقة والافتنان . وسوف يبقى قصر الحمراء ، وما يحتويه من النقوش والزخارف والصور الرائعة ، رمزاً خالداً لعظمة الفن الإسلامى فى الأندلس . وفى الحمراء : فى قاعة الحكم ، وفى بهو الأسود ، وفى قاعة السفراء ، وفى غيرها من الأبهاء المنيفة ، زينت الجدران بمجموعات كاملة من المناظر المصورة ، ومن ذلك صور لمجلس الحكم ، وصور تمثل موقعة حربية ، وكوكبة من الفرسان ، ومناظر فروسية وصيد وغيرها .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ و ٢٨٢ ؛ وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ١٩٤ و ٢٩٥ .
(٢) نفح الطيب ج ١

نعرض بعد ذلك لناحية أخرى من الفن الإسلامى فى الأندلس هى الموسيقى . وقد كان للموسيقى بين فنون الحضارة الإسلامية أيما شأن ، وكان ازدهارها بالأخص فى بغداد وقرطبة ، حيث بلغت حضارة الإسلام ذروة العظمة والنضج ، وكان ازدهارها فى عصر مبكر جداً منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ؛ فى ظل الدولة العباسية الفتية . وفى هذا الوقت نفسه انتقل إلى الأندلس قبس من هذه النهضة المشرقية ، فنزح زرياب الموسيقى غلام الموصليين[١] أساطين الموسيقى والغناء لهذا العهد ، إلى الأندلس فى عصر عبد الرحمن بن عبد الحكم (أوائل القرن الثالث) ، فاستقبله بنفسه وبالغ فى إكرامه ، وأغدق عليه العطف والبذل . وكان زرياب موسيقياً عظيما ومغنيا ساحراً ، فذاع فنه فى الأندلس والمغرب ، وأنشأ بالأندلس مدرسة موسيقية وغنائية باهرة ، استطال نشاطها وأثرها حتى عصر الطوائف ، وازدهرت أيام الطوائف فى إشبيلية فى ظل بنى عباد بنوع خاص[٢] . وسطع فى مملكة غرناطة قبس من هذه النهضة ، واشتهرت الموسيقى الأندلسية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، وكان لها أثرها فى تطور الموسيقى الغربية . وبرع المسلمون فى العزف على كثير من الآلات الموسيقية المعروفة حتى اليوم ، واخترعوا الكثير منها ولاسيما « القيثارة » التى كانوا يعتبرونها أجمل الآلات الموسيقية . وكان للموسيقى الأندلسية أثر كبير فى تطور الموسيقى الإيطالية القديمة ، ولا زالت آثار من الأوضاع والتقاليد الموسيقية الأندلسية تمثل فى الموسيقى الإسبانية الحديثة[٣] .

وقد كانت الأمة الأندلسية أمة مرهفة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل ، وتحب الحياة الناعمة المترفة ، وتجنح إلى المرح والطرب . وقد وصف لنا ابن الخطيب لمحة من هذا الترف ، الذى كان عنواناً لحياة الأمة الأندلسية فى عصورها الأخيرة ، وذكر لنا كيف كان الشعب يعشق الغناء والموسيقى ، وكيف كانت غرناطة تموج بالملاهى الغنائية التى يؤمها الشعب من سائر الطبقات . وقد اشتهر الرقص الأندلسى بجماله وافتنانه فى مجتمعات العصور الوسطى ، وما زال شعب غرناطة المرح الطروب مقبلا خلال كفاحه الطويل ، على حياته المترفة الناعمة ، حتى أصبح العدو على الأبواب .

---

(١) ابراهيم الموصلى وولده اسحاق وولده حماد .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٥٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها

(٣) Murphy, ibid; p. 296, Aschbach, ibid, B. II. p. 353

وللأندلسيين آثار قيمة فى الموسيقى العلمية والعملية . وفى مكتبة الإسكوريال مخطوط عربى نفيس عن الموسيقى وعناصرها ومبادئها وأوضاعها وأنغامها ، وكذلك عن الآلات الموسيقية المختلفة وأشكالها وتراكيبها (١) . وهو دليل على مابلغه المسلمون فى هذا الفن من الرسوخ والابتكار .

وقد يرى بعض الباحثين الغربيين أن الأندلسيين تلقوا معظم تراثهم الفنى ، عن الفن النصرانى . وفى هذا الرأى مبالغة ، فقد اقتبس الأندلسيون من فنون القوط والفرنج والبيزنطيين والبنادقة ، ولكنهم كانوا مبتكرين أيضاً ، وكانوا منشئين لفن إسلامى محض ، بما أسبغوه عليه من ألوان الافتنان الرائع التى اختصوا بها . وتميز بها تراثهم الفنى مدى الأحقاب .

* * *

وكما أبقى لنا الزمن على بقية من تراث الأندلس الفكرى ، مازالت تحتفظ بها اسبانيا النصرانية ، فكذلك مازالت تقوم إلى يومنا فى اسبانيا طائفة من الآثار الأندلسية الخالدة ، مثل جامع قرطبة الذى مازال رغم تحويله إلى كنيسة جامعة ، يعتبر من أعظم نماذج العمارة الإسلامية الإسبانية ، وقصر إشبيلية ، وحمراء غرناطة التى أتينا فيما تقدم على تاريخها ووصفها ، والتى مازالت أبراجها وأبهاؤها الملوكية الصامتة ، تعرض لنا كثيراً من روعتها القديمة . وكذلك يوجد إلى اليوم فى مختلف أنحاء الأندلس وقواعدها الذاهبة ، كثير من الأطلال الأندلسية الدارسة ، من صروح وقناطر وغيرها . وكلها تشهد بما كان لهذا الشعب النبيل الذكى . من قدم راسخ فى ميدان العلوم والفنون ، وكلها تبدو بما يتجلى فيها من روعة أثرية ، ومن براعة علمية وفنية ، عنواناً لحضارة عظيمة .

---

(١) معجم الغزيرى (Casiri) ج ١ ص ٣٢٤ .

obeikandl.com

ثبت المراجع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (طبع القاهرة) .
أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى (القاهرة) .
تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر (بولاق) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة) .
اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب (القاهرة) .
الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية لابن الخطيب .
أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر المنشور بعناية المستشرق مولر (جوتنجن سنة ١٨٦٣) .
تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال (القاهرة) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان .
صلة الصلة لأبى جعفر بن الزبير المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال
تكملة الصلة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) .
الحلة السيراء لابن الأبار المنشور بعناية العلامة دوزى (ليدن سنة ١٨٥١) .
الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول (الجزائر سنة ١٩٢٠) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة) .
المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار (تونس) .
الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية لأبى عبد الله الباجى المسعودى (تونس) .
السلوك فى دول الملوك للمقريزى (القاهرة) .
صبح الأعشى للقلقشندى (القاهرة) .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (بولاق) .
تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور (بولاق) .
الروض المعطار لأبى عبد الله الحميرى المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال (القاهرة) .
معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة) .
رحلة ابن بطوطة (القاهرة) .

* * *

R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête des Almoravides (Lévy-Provençal 1932).

» : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge.

Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain.

(وهو ترجمة القسم التاريخي من كتاب نفح الطيب مع تعليقات وهوامش)

Condé : Historia de la Dominaçion de los Arabos in Espana.

W. Prescott : History of Ferdinand and Isabella the Catholic (London, Sonnenschein).

» : History of the Reign of Philip the Second (London 1855).

Scott : The Moorish Empire in Europe.

H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain.

» » : History of the Moriscos of Spain; their Conversion and Expulsion (London 1901).

Don S. A. Llorente : Histoire Critique de l'Inquisition d'Espagne.

Owen Jones & Jules Goury : The Alhambra (London 1844).

W. Irving : A chronicle of the Conquest of Granada (Everyman's)

Lévy-Pevençal : L'Espagne Musulman au Xème Siècle.

Murphy : Mohamedan Empire in Spain.

Lane-Poole : The Barbary Corsairs.

» » : The Moors in Spain.

Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.

» : Geschichte Spanien's zur Zeit der Herrschaft der Almoraviden und Almohaden.

C. Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur.

M. Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

Lafuente Alcantra : Historia di Granada.

Boronat, Don P. : Los Moriscos Espagnoles y su Expulsiun.

Gomez-Moreno : El Arte en Espana.

فهـــرست

صفحة

مقــدمة ٣

الكتاب الأول

مملكة غـــرناطة

منذ قيامها حتى عصر السلطان أبي الحسن

الفصل الأول : الأندلس الغاربة ١٠

الفصل الثانى : نشأة مملكة غرناطة وقيام الدولة النصرية ١٨

الفصل الثالث : طوائف الأمة الأندلسية فى عصر الإنحلال ٤١

الفصل الرابع : طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية ... ٥٠

الفصل الخامس : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة ٦٠

الفصل السادس : مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر وعصر الجهاد المشترك بين بنى الأحمر وبنى مرين ٧٠

الفصل السابع : مملكة غرناطة فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ٩٠

الفصل الثامن : الأندلس بين المد والجزر ١٠٤

الفصل التاسع : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون ١٢٦

الكتاب الثــانى

نهاية دولة الإســلام فى الأندلس

الفصل الأول : الأندلس على شفا المنحدر ١٤٤

صفحة

الفصل الثانى : بداية النهاية ١٦٢
الفصل الثالث : الصراع الأخير ١٧٣
الفصل الرابع : ختام المأساة ١٩٧

الكتاب الثالث

مأساة الموريسكيين
أو العرب المتنصرين

الفصل الأول : بدء التحول فى حياة المغلوب ٢٢٤
الفصل الثانى : ديوان التحقيق الإسبانى ومهمته فى إبادة الأمة الأندلسية ٢٣٦
الفصل الثالث : ذروة الإضطهاد وثورة الموريسكيين ٢٥٥
الفصل الرابع : توجس السياسة الإسبانية وعصر الغارات البحرية الإسلامية ٢٧٦
الفصل الخامس : مأساة النفى ٢٨٨
الفصل السادس : تأملات وتعليقات عن آثار المأساة ٣٠٢

الكتاب الرابع

نظم الحكم
والحياة الإجتماعية والفكرية فى مملكة غرناطة

الفصل الأول : نظم الحكم فى مملكة غرناطة وخواصها الإجتماعية ... ٣١٦
الفصل الثانى : الحركة الفكرية فى مراحلها الأولى ٣٣٣
الفصل الثالث : عهد النضج والازدهار ٣٤٩
الفصل الرابع : العصر الأخير والآثار الباقية ٣٦٧

فهرست الخرائط والصور

صفحة

١ — خريطة اسبانيا فى القرن الثالث عشر ٢١

٢ — خريطة اسبانيا فى القرن الرابع عشر ٦٣

٣ — خريطة مواقع حرب غرناطة الأخيرة ١٧٧

* * *

١ — فرديناند الكاثوليكى ملك أراجون ١٤٠

٢ — إيزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة ١٤١

٣ — من زخارف بهو المدخل الرئيسى بقصر الحمراء ٢١١

٤ — فناء البركة وبرج قمارش ٢١٣

٥ — بهو الأسود أو كورة السباع ٢١٥

٦ — البهو الرئيسى بقصر جنة العريف ٢١٥

٧ — بهو بنى سراج ٢١٧

٨ — الإمبراطور شارلكان ٢٥٨

٩ — الملك فيليب الثانى ٢٦٣

١٠ — الملك فيليب الثالث ٢٩٣

فهرس أبجدي للأعلام

(ا)

أبدة ؛ ١٣ و ٢٠ و ٢٤ و ٦٦ و ٧٦
ابراهيم بن سهل الاشبيلي ١٢ و ٣٢ و ٣٣٥
ابن أبي أصيبعة ؛ ٣٤٠
ابن الأبار ؛ ٢٦ و ٦٩ و ٣٣٤ و ٣٣٦ و ٣٣٧ و ٣٣٩
ابن الأزرق ، الاشبيهي ؛ ٣٦٩
ابن البيطار ؛ ٣٣٤ و ٣٤٠
ابن الجياب ؛ ٩٦ و ٣٢٣ و ٣٤٢ و ٣٤٥
ابن الجيان المرسي ؛ ٣٣٦
ابن الحكيم ؛ ٨٥ و ٨٧ و ٣٢٣ و ٣٤٢ و ٣٤٤
ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ١٥ و ١٦ و ٤٨ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٥ و ١٠٦ — ١١٢ و ١٣١ و ١٤٥ و ٣٢٣ و ٣٢٩ و ٣٣٠ و ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥١ — ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٤ و ٣٦٥ و ٣٦٦
ابن الزبير ، أبو جعفر ؛ ٣١٧
ابن الشبط ؛ ٣٤٢
ابن الطفيل ؛ ٣١٩
ابن الفخار ؛ ٣٤٧
ابن الفرضي ؛ ٣٢٠
ابن اياس ؛ ٦٥ و ١٦٦
ابن باجه ؛ ٣١٨
ابن بدرون ؛ ٣٢٠
ابن بسام ؛ ٣١٨
ابن بشكوال ؛ ٣٢٠
ابن بطوطة ؛ ١٠٠ و ١٠١ و ٣٥٠
ابن تومرت ، المهدي ؛ ٢٠ و ٣١٨
ابن جابر الضرير ؛ ٣٤٦
ابن جزي ، أبو القاسم ؛ ٣٤٧
ابن جزي ، أبو عبد الله ؛ ٣٥٠
ابن حبيب الاشبيلي ؛ ٣٢٠
ابن حريق ؛ ٣٣٤
ابن حزم ؛ ٣١٧
ابن حفصون ؛ ٤٧ و ٤٨
ابن حمدون الحميري ؛ ٣٣٤
ابن حيان ؛ ١١ و ٣١٧
ابن خاتمة ؛ ٣٤٤ و ٣٥١
ابن خلدون ؛ ٨١ و ٩١ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٣١ و ١٤٦ و ٣٥٤
ابن خميس ؛ ٣٤٤
ابن دينار ؛ ٢٩٨
ابن رشد ؛ ٤٧ و ٣١٩ و ٣٢٠
ابن زمرك ؛ ١١٢ و ١١٤ و ٣٤٢ و ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٤
ابن زهر ، عبد الملك ؛ ٣١٩ و ٣٤٠
ابن زيدون ؛ ٣١٧
ابن سعيد الاندلسي ؛ ٣٣٤ و ٣٣٩
ابن سلبطور ؛ ٣٥٠
ابن عبدون ؛ ٣١٧
ابن عبو ، مولاي عبدالله ؛ ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٧٣ — ٢٧٥
ابن عربي ، محيي الدين ؛ ٣٣٤ و ٣٣٩
ابن فرحون القرشي ؛ ٣٤٧
ابن فرحون ، برهان الدين ؛ ٣٦٥
ابن قزمان ؛ ٣١٨
ابن لب ؛ ٣٦٣ و ٣٦٤
ابن ليون ؛ ٣٤٨
ابن مرج الكحل ؛ ٣٥٠
ابن مردنيش ؛ ٤٨ و ٥٦ و ٥٧ و ١٥١ و ٣٣٠ و ٣٣٧

ابن المهنا ؛ ٣٦٦
ابن هود ؛ ٢٠ و ٢٣ ـ ٢٥ و ٢٧ ـ ٣٠ و ٣٣٣
أبو البقاء الرندى ؛ ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ و ٣٣٧
أبو الحسن الباهلى ؛ ٣٦٨
أبو الحسن البسطى ؛ ٣٧٠
أبو الحسن القزارى ؛ ٣٤٧
أبو الحسن المرينى ، السلطان ؛ ٩٤ـ٩٨ و ١٠٠ و ١٠٢ و ١٣٠
أبو الحسن النباهى ؛ ٣٥٦ و ٣٦٥
أبو الحسن النصرى ، السلطان ؛ ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٠ ـ ١٥٤ و ١٥٦ و ٢٠٥
أبو العباس بن الرومية ؛ ٣٤٠
أبو القاسم الحسينى ، ٣٥٠
أبو القاسم بن سلمون ؛ ٣٦٥
أبو القاسم عبد الملك ؛ ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٥
أبو القاسم العزفى ؛ ٣٦ و ٨٦
أبو النعيم رضوان ؛ ٩٣ و ٩٥ و ٩٦ و ١٠٥ و ١٠٦ و ٣٢٣ و ٣٥٢
أبو الوليد اسماعيل ، السلطان ؛ ٨٩ و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ٢١٠
أبو الوليد اسماعيل ، الأمير ؛ ٣٤٢ و ٣٥٤ و ٣٦٤
أبو بكر الطرطوشى ؛ ٣١٨
أبو بكر بن عاصم ؛ ٣٦٧
أبو بكر بن عبد الملك بن زهر ؛ ٣٤٠
أبو ثابت المرينى ؛ ٨٦ و ٨٧
أبو جعفر العذرى ؛ ٣٦٠
أبو جميل زيان ، راجع زيان
أبو حيان الغرناطى ؛ ٣٤٥
أبو زكريا الاشبيلى ؛ ٣٢٦
أبو زكريا الحفصى ؛ ٢٦ و ٢٨ و ٦٩ و ٣٣٦
أبو سالم المرينى ؛ ٨٦ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٤٥ و ٣٥٣ و ٣٦١
أبو سعيد المرينى ؛ ٩١ و ٩٤ و ١١٦
أبو عبد الله الشيخ الوطاسى ؛ ١٩٩
أبو عبد الله محمد ، السلطان ؛ ١٤٩ ـ ١٥١ و ١٥٥ ـ ١٥٨ و ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٤ ـ ١٧٦ و ١٨١ و ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٧ و ١٨٩ و ١٩١ ـ ١٩٣ و ١٩٩ و ٢٠٢٠ ـ ٢٠٧ و ٢٢٥ و ٣٣٠ و ٣٧٠
أبو عنان ، السلطان ؛ ١٠٥ و ١٠٦ و ٣٥٠ و ٣٥٢
أبو فارس الحفصى ؛ ١١٨ و ١١٩
أبو مالك ؛ ٩٤ و ٩٦
أبو يحيى بن عاصم ؛ ٣٦٨
أبو يعقوب ، السلطان ؛ ٨٢ و ٨٣ـ٨٦
أبو يوسف ، المنصور ؛ ٥٧ و ٧٢ـ٧٦ و ٨٠ ـ ٨٣ و ١٢٧
أبو يوسف يعقوب : ٣٤ و ٣٨ و ٧٢ و ٧٧ و ٣١٩
أحمد الوطاسى ، السلطان ؛ ٢٠٧
أراجون (الثغر الأعلى) ؛ ١١ و ٤٣ و ٤٧ و ٥٤ و ٦٠ ـ ٦٢ و ٦٥ و ٦٨ و ١١٥ و ١٢١ و ١٣٠ و ١٣٧ و ١٣٨
أرجونة ؛ ٢٧ و ٢٨ و ٣١ و ٦٧
أردونو ؛ ٥٣ و ٥٦
أرشدونة ؛ ١٩ و ١٢٠
أريولة ؛ ١٣ و ٣٠ و ٣٣٦
اسبانيا ٤٥ و ٥٠ ـ ٥٥ و ٥٨ ـ ٦٢ و ٩٦ و ٩٩ و ١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٦ ـ ١٤٩ و ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٩١ و ٢٩٩ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٥ و ٣٠٧ و ٣١٤
اسبينوسا ؛ ٢٦٤

أستجة ؛ ١٣ و ٣٥ و ٧٦
اسماعيل ، السلطان ؛ ١٠٦ و ١٠٨
اشبيلية ؛ ١٣ و ١٤ و ٢٠ و ٢٩ و ٣٢ و ٣٣ و ٤٢ و ٤٧ و ٦٦ و ٦٧ و ٧٧ و ٧٨ و ١٠٠ و ١٠٨ و ١٢٨ و ١٤٨ و ٢٤١ و ٢٤٩ و ٣٢٠ و ٣٢١
الأرك ؛ ١٢ و ٥١ و ٥٣ و ٦٢
الأسبتارية ؛ ٥٤ و ٥٥
الاسكندرية ؛ ١١٢ و ٣٢٨
الاسكوريال ؛ ٣٤٦ و ٣٥٩ و ٣٦٥ و ٣٦٧ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦ و ٣٧٧ و ٣٨٣
الأشرف شعبان ؛ ١١٢
الأشرف قايتباى ؛ ١٦٣ و ١٦٦ و ١٦٧ و ٣٦٩
الأيسر ، السلطان ١١٧ — ١٢١ و ١٤٩
البذول ؛ ١٧٥ و ١٩٣
البرتيه ، جبال ؛ ٥٧ و ٦٠ و ٦١ و ١٠٦ و ٣١٣
البشرات ؛ ١٧٥ و ١٧٩ و ١٨٣ و ٢٠٢ و ٢٦٥ و ٢٦٨ و ٢٦٩
البلوى ؛ ٣٤٨
البندقية ؛ ٢٨١ و ٣٢٨
البيازين ، ربض ؛ ١٦ و ٩٦ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ و ٢٦٥ و ٢٦٧ و ٣٦١
البيرة ؛ ١٤ و ٤١ و ٥٣ و ٦٨ و ٩١ و ٩٢ و ١٠٩
الجزائر الشرقية ؛ ٦٨ و ١٣٦ و ٢٨٤
الجزيرة الخضراء ؛ ٧٥ و ٧٧ و ٨١ و ٨٤ و ٨٨ و ٨٩ و ٩١ و ٩٤ و ٩٧ و ٩٩ و ١٣٠ و ١٥٩ و ٣٢٥
الحاجب المنصور ؛ ٥٣
الحامه ٤١ و ١٥٣ و ١٦٢
الحكم بن هشام ؛ ٤٧
الحكم المنتصر ؛ ٣١٧ و ٣٧٩
الحمراء ، قصر ؛ ١٦ و ٣٩ و ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٦ و ١١٢ و ١١٣ و ١٢١ و ١٥٢ و ١٥٥ و ١٧٤ و ١٨٢ و ١٨٨ و ١٩٠ و ١٩١ و ٢٠٨ — ٢٢٠ و ٢٦٥ و ٣٢٢ و ٣٢٥ و ٣٦٢ و ٣٨١ و ٣٨٣
الحميدى ؛ ٣١٧
الداوية ؛ ٥٤ و ٥٥
الزغل ، أبو عبد الله محمد ؛ ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٤ — ١٥٨ و ١٦١ — ١٦٣ و ١٦٧ و ١٧١ و ١٧٤ و ١٧٦ و ١٩٩ و ٢٠٥
الزلاقة ؛ ١٢ و ٥١ و ٥٣ و ٦٢ و ٧٦ و ١٠٢
الزهراء ؛ ٣٧٩ و ٣٨٠
السيد أبو عبد الله ؛ ٣٢ و ٦٧
السيد الكمبيادور ؛ ٥٦
الشريف العقيلى ، محمد بن عبد الله ؛ ٢٠٠ و ٣٤٢ و ٣٧٠ و ٣٧١
الشيخ ، أبو عبد الله ؛ ١٩٩
الشيخ ، المأمون ؛ ٢٨٧
الصالح ، الملك ؛ ٩٨
الصخرة ؛ ١١٥ و ١٤٨
العقاب ؛ ١٢ و ٥١ و ٥٧ و ٦٢ و ٧٢ و ٧٦ و ٩٧
الغزالى ؛ ٣١٨
الفزيرى ؛ ٣٧٥ و ٣٧٧
الفتح بن خاقان ؛ ٣١٧ و ٣١٨
الفرنتيره ؛ ٣١ و ٥٧ و ٧٦
الفونسو الأول (المحارب) ؛ ٤٦ و ٥٤ و ٦١
الفونسو العاشر ، الحكيم ؛ ٣٠ و ٣١ و ٣٥ و ٤٢ و ٥٧ و ٧١ و ٨٠ و ٨١ و ١٢٧ و ١٥٩

الفونسو الحادى عشر ؛ ٩١ و ٩٤ و ٩٦ و ١٢٩ و ١٣٠ و١٣٢
الفونسو الثالث ، ملك أراجون ؛ ١٣٣ و ١٣٥
الفونسو الرابع ؛ ١٣٥
الفونسو الخامس ؛ ١٣٧
الفونسو السادس ؛ ٥١ و ٥٦
الفونسو ريموندير ؛ ٥٥ و ٥٧ و ٦٢
الفونسو هنريكز ؛ ٦٢
الفونسو ملك البرتغال ؛ ١٣٩ و ١٤٠
القادر بن ذى النون ؛ ٥٦
القاهرة ؛ ٩٨ و ١٦٥ و ١٦٩ و ٣٦٩
اللسانه ؛ ١٥٥
المأمون بن ذى النون ؛ ٥٦ و ٣٨٠
المدجنون ؛ راجع حرف م
المرج ، (لافيجا) ؛ ١٥ و ٤٦ و ١١٣ و ١٢٠ و ١٧٦ و ١٧٩ و ١٨٢ ٣٢٧ و ٣٢٨
المرية ؛ ٢٤ و ٢٨ و ٤١ و ٤٤ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٣ و ٨٦ و ١٢١ و ١٦٥ و ١٧٠ و ١٧٤ و ١٧٦ و ١٩٩ و ٢٨٣ و ٣٢١
المقرى ؛ راجع حرف م
المنكب ؛ ٧٩ و ٨١ و ٨٧ و ١٥٦ و ١٧٠ و ١٧٦
الناصر ، سلطان مصر ؛ ٩٨
الوادى آشى ، أبو عبد الله الحداد ؛ ٣٦٩ و ٣٧٠
الينورادى كزمان ؛ ١٣٠ و ١٣١
انتكيره ؛ ٤١ و ١١٦
اندرش ؛ ١٧٦ و ٨٦ او ١٩٩
اندريس ؛ ٣٧٦
أندلس ؛ ١٠ و ١١–١٣ و ٣٠ و ٣١ و ٣٦ و ٤١ و ٤٦ و ٤٧ و ٥٠ – ٥٤ و ٥٧ و ٦١ و ٧٣ و ٨١ ٩٩ – ١٠٣ و ١٠٥ و ١٤٥ و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٧٠ و ١٩٨ و ٢٠٥ و ٢٦٧ و ٢٨٢ و ٢٩٥ و ٣١٣ و ٣١٧ و ٣٢٦ و ٣٢٩
انفاط ؛ ١٥٤ و ١٥٨ و ١٥٩
انوسان الربع (البابا) ؛ ٤٣ و ٤٤ و ٤٥
أوتودافى ؛ ٢٤٦ و ٢٧٧
أوروج ؛ ٢٨٣
أيدين ريس ؛ ٢٨٤
ايزابيلا ، الكاثوليكية ؛ ٥٨ و ٥٩ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٨ – ١٤٢ و ١٤٨ و ١٦٤ و ١٦٩ و ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٤ و ١٨٠ و ١٩٣ و ١٩٧ و ٢٢٦ و ٢٣٢ و ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٦٠ و ٣١٢

(ب)

باديس المظفر ؛ ١٩ و ٢٠٩
بايزيد الثانى ؛ ١٦٦ و ٢٥٢ و ٢٥٣ و ٣٧٢
بحر الزقاق ؛ ٨٣ و ٨٤ و ٩٤ و ٩٧ و ٩٨
البرتغال ؛ ٦١ و ١٣٢
برشلونه ؛ ٥٤ و ٣١٣
البربر ؛ ١٤ و ١٩ و ٤١ و ٤٧ و ٤٨ و ٥٣ و ٣٢٤
برونات (الدون) ؛ ٣٧٣
بسطة ؛ ٤١ و ١٢٠ و ١٦٨ و ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٤
بطرنا ؛ ٣١ و ١١٢
بطليوس ؛ ١٣ و ٢٣
بكاتوستى ؛ ٣١٠
بلانش دى بوربون ؛ ١٠٨ و ١٣١
بلد الوليد ؛ ١٣٣ و ١٣٩ و ٢٤١
بلش مالقة ؛ ٨٩ و ١٠٠ و ١٥٥ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٧

بلنسية ؛ ١٣ و ٢٠ و ٢٥ و ٢٦ و ٤٣ و ٤٧ و ٥٦ و ٦٩ و ٢٦٤ و ٢٨٠ و ٢٨١ و ٢٨٥ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٤ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٦٠
بليدا ؛ ٣٠٧
بنو أشقيلوله ؛ ٢٩ و ٣٨ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٣
بنو الأحمر ؛ ١٥٧ و ٢٠٥ و ٣٢٢ ٣٢٣ و ٣٣٠ و ٣٤١
بنو الثغرى ؛ ١٢٤ و ١٨٢ و ٢٢٩
بنو العلاء ، شيوخ الغزاة ؛ ٨٢ و ٨٦ و ٩١ و ٩٢ و ٩٤ و ٣٦ و ٣٢٣ و ٣٢٤
بنو سراج ؛ ١١٧ و ١١٨ و ١٢٤ و ١٥٢ و ٢٢٦
بنو عامر ؛ الموريسيكون ؛ ٢٧٨ و ٢٧٩
بنو مرين ؛ ٣٤ و ٤٨ و ٧١ و ٧٣ و ٨٠ و ١٠٢ و ١٢٣ و ١٤٦ و ٣٢٣
بنو نصر ؛ ٢٧ و ٤٠ و ٩٥ و ١٠٢ و ١٥٠ و ٣٢٢
بنو وطاس ؛ ١٢٣ و ١٩٩ و ٢٠٦ و ٢٠٧
بياسة ؛ ١٣ و ٢٨ و ٦٦ و ٩٢ و ١٥٩
بيدرو الأول ، ملك اراجون ؛ ٦٥
بيدرو الثانى ، ملك اراجون ؛ ٦٨
بيدرو الثانى ملك قشتاله (دون بطره) ؛ ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٢ و ١٣١ و ١٣٦
بيدرو الثالث ملك قشتاله (القاسى) ؛ ٥٧ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩ و ١٣١
بيدرو الثالث ملك اراجون ؛ ١٣٤
بيدرو الرابع ملك اراجون ؛ ٣٥ و ١٣٦
بيدرو ، الدون ؛ ٩١ و ٩٢ و ١٢٩

(ت — خ)

تاشفين بن يعقوب ؛ ٨٧
تركو يمادا ؛ ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١
تركيا ؛ ٤٥ و ١٦٦
تطاون ؛ ٨٧ و ٢٨٧
تلمسان ؛ ٧٣ و ٧٥ و ٨٥ و ٨٦ و ١١٥ و ٢٩٨ و ٣٦٩ و ٣٧٠
تونس ؛ ١٢ و ٢٦ و ٢٨ و ٢٩ و ٩٥ و ١١٥ و ١١٨ و ٢٨٥ و ٢٩٩
ثريا الرومية ؛ ١٥٠ و ١٥١ و ٢٢٠
ثويداد ريال ؛ ٣٠٥
جايم الأول ؛ ملك اراجون ؛ ٢٥ و ٤٢ و ٦٨ و ٦٩ و ١٣٤ و ١٣٦
جايم الثانى ؛ ٨٨ و ١٣٥
جارسيا راميرز ؛ ٦١
جان بلاط ، السلطان ؛ ٢٣٣
جبل طارق ؛ ٥٧ و ٨٨ و ٩٤ و ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠٦ و ١١٦ و ١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٩ و ١٣٠ و ٢٨٣ و ٣٢٥
جنة العريف ؛ ١٠٦ و ٢١٤ و ٣٣٠
جنوة ؛ ٢٨١ و ٢٨٢ و ٣٢٨
جنزالفو دى كردوفا ؛ ١٨٥
جويريرو ؛ ٢٧٧
جيان ؛ ١٣ و ٢٨ و ٣١ و ٦٦ و ١١٣ و ١٢٢ و ١٧٠
حامد الثغرى ؛ ١٥٧ و ١٦٣
حبوس بن ماكسن ؛ ١٩
حداره ، نهر ؛ ١٥ و ٢٠٩ و ٢١٠
خوان ، الدون ؛ ٢٧٢ و ٢٧٣
خير الدين ، باربا روس ؛ ٢٨٣ و ٢٨٤

(د — ز)

دانيـة ، ١٣ و ٢٥ و ٢٨٤ و ٢٩٤ و ٣٢١
دوزى ، المستشرق ؛ ٥٦ و ٣٧٦
ديرنبور ، المستشرق ؛ ٤٤ و ٣٧٦
ديزا ؛ ٢٢٨ و ٢٤١
ديوان التحقيق ؛ ٥٩ و ٢٢٥ و ٢٢٨ و ٢٣٢ و ٢٣٣ — ٢٥٢ و ٣٧١ و ٣٧٣

دى آجلار ؛ ٢٣٤
دى ليرما ، الدوق ؛ ٢٨٩
دى هيتا ، ٢٢٠
رأميرو ، ملك ناڤار ؛ ٦١
ربيرا ، المطران ؛ ٢٨٩ و ٢٩٠
رندة ؛ ٤١ و ٤٧ و ٧٥ و ٨٤ و ٨٩ و ١٠٠ و ١١٩ و ١٢٠ و ١٥٧
رومة ؛ ١٩٧ و ٣٢٨
ريموند برنجار ؛ ٥٤
زاوى بن زيرى ؛ ١٩
الزغل ؛ راجع ال
الزلاقة ؛ راجع ال
زناته ، قبيلة ؛ ٤٨ و ٧١
زيان ، أبو جميل ؛ ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٦٨ و ٣٣٦
زرياب ؛ ٣٨٢
زيدان ، السلطان ؛ ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٣٧٤

(س . ش)

سالادو ؛ ٩٧ و ١٣٠
سانشو الثانى ، ملك قشتالة ؛ ٥٦
سانشو المتوحش ؛ ١٢٨
سانشو الكبير ؛ ٦٠
سانشو السابع ملك ناڤار ؛ ٦٥
سانشو ابن الفونسو العاشر ؛ ٨٠ و ٨١ و ٨٢ و ٨٣
سبتة ؛ ٣٦ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ و ١٠٢ و ١١٠
سرقسطة ؛ ١٣ و ٥١ و ٢٩٠
سعد بن اسماعيل ، السلطان ؛ ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٤ و ١٣٤ ؛ ١٤٧ و ٣٣١
السفرديم ؛ ٤٨
سكوت ؛ ٣٩ و ٤٠ و ٣١٢
سلا ؛ ٢٨١ و ٢٩٨ و ٣٥٤
سليم الأول ؛ ٢٨٤
سيرفانتس ؛ ٢٧٩ و ٢٨٥
سيير انقادا (جبل شلير) ؛ ١٥ و ٤١ و ١٨٠ و ١٨٢ و ٢٦٧
شارلكان (شارل الخامس) ؛ ١٧ و ٢٠٩ و ٢١٤ و ٢٤٨ و ٢٥٦ و ٢٦٠ و ٢٦٢ و ٣٧٢
شارلمان ؛ ٥٣
شاطبة ؛ ١٣ و ٢٥
شانت ياقب ؛ ٦٠
شريش ؛ ١٤ و ٢٣ و ٢٨ و ٣٣ و ٣٦ و ٨٢ و ٨٣
شفارتز ، برتولد ؛ ١٦٠
شلوبانية ؛ ٧٩ و ١١٤ و ١١٥
شنتفى ؛ ١٨٠
شنتمرية ؛ ٣٣
شنيل ؛ ١٥ و ١٥٥ و ١٧٩ و ١٩٢
شوقى ، أحمد ؛ ١٩٢ و ٢٢٠

(ص — ط)

صالح ريس ؛ ٢٨٤
صلاح الدين ، السلطان ؛ ٥٣ و ٣١٩
صقلية ؛ ١٣٤ و ١٣٦ و ١٦٦ و ٢٩١
طارق بن زياد ؛ ١٤ و ٣١٤
طرغود ؛ ٢٨٤
طليطلة ؛ ١١ و ٤٤ و ٥٠ و ٨١
طنجه ؛ ٨٤ و ٨٦
الطوائف ؛ ١١ و ١٢ و ١٩ و ٨٢ و ٣٤١

(ع . غ)

عائشة الحرة ؛ ١٤٩ و ١٥٠ — ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٦٠ و ١٩٢ و ١٩٧
عبد الحق بن خالد ؛ ٧٢ و ٩٣
عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٤٦ و ٣٨٢
عبد الرحمن الناصر ؛ ٥٣ و ٥٦ و ١٥١ و ٣١٤ و ٣١٧ و ٣٧٨ و ٣٧٩
عبد العزيز المرينى ؛ ٣٥٦ و ٣٥٧
عبد المؤمن ، خليفة الموحدين ؛ ٢١٨ و ٣١٩

عثمان بن أبى العلاء ؛ ٨٦ و ٨٨ و ٩١ و ٩٣ و ٩٥
عثمان داى ؛ ٢٨٥ و ٢٩٨
العرب المتنصرون ؛ راجع الموريسكيون
على بن أحمد الغسانى ؛ ٣٣٨
على العطار ؛ ١٥٤
على بن تاشفين ؛ ٤٧
على بن محمد بن خروف ؛ ٣٣٨
عمربن الأفطس ؛ ٣١٧
عمر باى ؛ ٢٨٥
عمر بن عبد المجيد الأزدى ؛ ٣٣٨
عيسى بن سليمان الرعينى ؛ ٣٣٨
غرناطة ؛ ١١ و ١٣ و ١٤ و ١٦ — ١٩ و ٢٣ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٠ و ٤١ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٧ و ٤٨ و ٥٧ و ٨٠ و ٨٥ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٢ و ٩٣ و ١٠٦ و ١١٢ و ١١٤ و ١١٦ و ١١٨ و ١٢١ و ١٢٥ و ١٤٦ و ١٥٢ و ١٥٤ و ١٥٩ — ١٦١ و ١٦٧ و ١٧٣—١٧٥ و١٧٩ — ١٨٣ و ١٨٦ و ١٩٠ و ١٩٧ و ١٩٨ و ٢٠٣ و ٢٢٥ و ٢٢٨ — ٢٣١ و ٢٦٤ و٢٦٩ و ٢٧٠ و٢٨٢ و ٢٨٥ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٢٤ و ٣٢٦ — ٣٢٨ و ٣٤٣ و ٣٦٨ و ٣٧٠ و ٣٧١
غمارة ؛ ١٥٧ و ١٦٣

(ف . ق . ك)

فاس ؛ ٧٢ و ٧٣ و ٧٥ و ٨٢ و ٨٧ و ٨٨ و ٩٤ و ١٥٣ و ٢٠٢ و٢٠٦ ٢٣٤ و ٢٣٩ و ٢٩٨
فرج بن اسماعيل ؛ ٨٤ و ٨٥ و ٨٩
فرديناند الثالث ؛ ٢٣ و ٢٥ و ٣٠ و ٣٢ و ٣٣ و ٦٥ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ١٢٧
فرديناند الرابع ؛ ٨٨ و ١٢٨ و ١٢٩
فرديناند ملك نابل ؛ ١٦٨ و ١٦٩
فرديناند صاحب انتكيرة ؛ ١١٦ و١٣٦ و ١٣٧
فرديناند الخامس (الكاثوليكى) ؛ ٥٨ و ٥٩ و ١٣٤ و ١٣٨ — ١٤٢ و ١٤٨ و ١٥٣ — ١٥٨ و ١٦١ و ١٦٤ و ١٦٦ و ١٦٨ — ١٧١ و ١٧٦ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٩ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٧ — ١٩٩ و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٣٢ و ٢٣٤ و ٢٤٠ و ٢٤٦ و ٢٤٨ و ٢٦٠ و ٢٦١
فرديناند دى ڤالور (محمد بن أمية)؛ ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٦٩ و ١٧٠ و ٢٧١
فيليب الثانى ؛ ٢٦٠ و ٢٦٢ و ٢٦٤ و ٢٧٠ و ٢٧٤ و ٢٨٨ و ٢٨٩ و ٣٧٢ و ٣٧٤
فيليب الثالث ؛ ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٨٩ و ٣١٠ و ٣٧٤
قادس ؛ ٣٣ و ١٢٧
قرطاجنة ؛ ١٣ و ٣٠
قرطبة ؛ ١٣ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٦ و ٤٤ و ٤٧ و ٦٦ و ٦٧ و ١١٩ و ٣٢٠ و ٣٢١
قرمونة ؛ ٢٨ و ٣١ و ٨٢
قسطنطينية ؛ ١٢٤ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٩٧ و ٢٥٣ و ٢٥٥ و ٢٨٢ و ٣١٧ و ٣٢٨
قشتالة ؛ ٢٠ و ٢٥ و ٣١ و ٤٣ و ٤٤ و ٥٠ و ٥٣ و ٦١ و ٦٢ و ٦٥ و ٦٦ و ٨٠ و ٨١ و ٩٢ و ١٠٩ و ١١٤ و ١٢١ و ١٣٠ و ١٦٨
قطلونية ؛ ٦١ و ١٣٤
قمارش ؛ ٨٣ و ١٥٣ و ٢١٢ و ٢١٣
القمامة ؛ ١٦٦ و ١٦٧
كارلوس ، أمير ڤيانا ؛ ١٣٧

كمنيس ؛ ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٤٨ و ٣١١ و ٣١٢
الكورتيس ؛ ٣١ و ١٢٠ و ١٣١ و١٣٦
كوزمى بن عامر ؛ ٢٦٤ و ٢٧٨ و ٢٧٩
كوندى ؛ ٣١٣ و ٣٧٦

(ل . م . ن)

لاين پول ؛ ٩١٤
لقنت ؛ ١٣ و ٣٠ و ٢٩٤
لورنتى ؛ ٢٤٢ و ٢٩٧ و ٣٠٨
لوس ڤيليس ؛ ٢٧٠
لوشة ؛ ١٥ و ٤١ و ١٠٥ و ١٥٤ و ١٥٨ و ١٦٢ و ١٧٤
لى ، هنرى تشارلس ؛ ٣٠٦ و ٣٠٧ و ٣١٠ — ٣١٢
ليڤى بروڤنسال ؛ المستشرق ؛ ٣٧٧ و ٣٨٠
ليون ؛ ٥٣ و ٦١ و ٦٢ و ٦٥
مارتن الأول ؛ ٥٧ و ١١٥ و ١٣٦
مارتيرى ، بيترو ؛ ١٩٨ و ٢٣٣ و٢٨٣
ماسدى ؛ ٣٧٦
مالقة ؛ ٢٩ و ٣٨ و ٤١ و ٤٤ و ٧٨ و ٧٩ و ٨١ و ٨٤ و ٨٥ و ٨٩ و ١٠٠ و ١٠٨ و ١٤٧ و ١٥٤ و ١٥٧ و ١٦١ و ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٦٩ و ٣٢٥
محمد بن ادريس المرينى ؛ ٣٤
محمد بن اسماعيل ؛ ٩٢ — ٩٥
محمد الأحنف ؛ ١٢١ و ١٢٢
محمد الزغير ؛ ١١٨ و ١١٩
محمد الشيخ ؛ ١٢٣
محمد الغنى بالله ؛ ٥٧ و ١٠٥ — ١٠٨ و ١١١ — ١١٣ و ٣٢٣ و ٣٤١ و ٣٦٢
محمد الفاتح ؛ ٢٤
محمد الفقيه ؛ ٧١ و ٧٤ و ٧٩ و ٨١ — ٨٥ و ١٢٧ و ٢٠٩ و ٢١٦ و ٣٤١ و ٣٤٣
محمد بن المحروق ؛ ٩٣ و ٣٢٣
محمد المخلوع ؛ ٨٥ و ٨٧ و ٨٨ و ٣٢٢ و ٣٤١ و ٣٤٣
محمد بن أمية ؛ راجع فردنياند دى قالور
محمد بن عبد المنعم الجليانى ؛ ٣٣٩
محمد بن يوسف بن الأحمر ؛ ٢٧—٣١ و ٣٣ — ٤٠ و ٥٧ و ٧١ و ٨٩ و ٢٠٩ و ٣١٤ و ٣٢٢ و ٣٣٣ و ٣٤١
محمد بن يوسف الثانى ؛ ١١٣ و ١١٤ و ١١٥ و ٣٦١
المدجنون ؛ ٤٢ و ٤٣ و ١٥١ و ١٧٤
المرابطون ؛ ١٢ و ١٩ و ٤٢ و ٤٦ و ٤٨ و ٤٩ و ٥١ و ٧٥ و ٧٧ و ٨٢ و ١٤٦ و ٣١٨ و ٣٨١
مراد الريس ؛ ٢٨٥
مراكش ؛ ٧٣ و ٩٨ و ١٦٥ و ٢٨٧
مربلة ؛ ٧٩ و ١٠٠
مرسية ؛ ١٣ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٦ و ٣٠ و ٤٤ و ٤٧ و ٦٧ و ١١٣ و ١١٨ و ٢٨١ و ٣٢٠
مريمة ؛ ١٥٥
مصر ؛ ٤٥ و ٩٩ و ١٥٩ و ١٦٤ — ١٦٧ و ١٦٩ و ٢٣٣ و ٢٥٣ و٢٥٤ و ٢٩٦ و ٢٩٨
مطرف الأشبيلى ؛ ٣٤٠ و ٣٤١
المعتصم بن صمادح ؛ ٣١٨
المعتمد بن عباد ؛ ٣١٨
المقرى ؛ ١٦ و ٣٨ و ٢٠٠ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢٣٠ و ٢٣٤ و ٢٩٨ و ٣٦١ و ٣٦٤ و ٣٨١
مليلة ؛ ١٩٩

الموحدون ؛ ١٢ و ١٩ و ٢٠ و ٢٣ و ٢٥ و ٣٤ و ٣٥ و ٤٢ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٢ و ٦٦ و ٧١ و ٧٢ و ٧٥ و ١٤٦ و ١٥٩ و ٣١٨ و ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣٢٧ و ٣٣٣ و ٣٨١
الموريسكيون ؛ ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٣١ و ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٥ و ٢٧٥ و ٢٧٦ — ٢٨٠ و ٢٨٧ — ٣٠٠ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٥ و ٣٠٦ و ٣٠٨ و ٣٧٢ و ٣٧٣
موسى بن أبى الغسان ؛ ١٨١ — ١٨٤ و ١٨٧ — ١٨٩
موسى بن ميمون ؛ ٤٨ و ٣١٩
ميلان ، أنطونيو ؛ ١٦٧ و ١٦٨
مونتيل ؛ ١٠٩ و ١٣١
منديخار ؛ ٢٦٩
نابل ؛ ١٣٤ و ١٣٧ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩
ناڤار ؛ بلاد البشكنس ؛ ٥٣ و ٦٠ ، و ٦١ و ٦٢ و ١٣٧
ناڤاريتى ؛ ٢٩٧
النصارى المعاهدون ؛ ٤٦ و ٤٧
نصر ، أبو الجيوش ؛ ٨٧
نعيم بن رضوان ؛ ١٨٢ و ١٨٣
نونيو دى لارا ؛ ٣٦ و ٧٦ و ٧٧

(هـ . و . ى)

هشام بن عبد الرحمن ، ٤٩
هنرى الثالث ، ملك قشتاله ؛ ٣١٤ و ٣٣١
هنرى الرابع ، ملك فرنسا ؛ ٢٨١
هنرى الرابع ، ملك قشتالة ؛ ١٢٢ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٧ و ٣٣١
هنرى دى ترستمارا ؛ ١٠٨ و ١٠٩ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٦
وادى آش ؛ ٢٨ و ٢٩ و ٤١ و ٦٦ و ٨٣ و ٨٩ و ٩٣ و ١٠٦ و ١١٨ — ١٢٠ و ١٥٤ و ١٦١ و ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٦ و ٣١٤
وهران ؛ ١٧٢ و ٢٣٤ و ٢٩٦
يحيى بن ذى النون ؛ ٥٠
يحيى بن غانية ؛ ١٩
يعقوب المنصور ، السلطان ؛ ١٢ و ٥١ و ٥٣ و ٦٢ و ٧٢ و ٧٩ و ٩٧
يغمراس بن زيان ؛ ٧٣ و ٧٤
اليهود المتنصرون ؛ ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٤٩
يوحنا الأول ، ملك قشتالة ؛ ١٣٢
يوحنا الثانى ؛ ١١٦ و ١١٨ و ١١٩ و١٢٢ و ١٣٢ و ١٣٧ و ١٣٨
يوسف أبو الحجاج ؛ ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ — ١٠٠ و ١١١ و ١١٠ و ١٥٠ و ١٦٠ و ٣٤١ و ٣٤٨ و ٣٥٠ و ٣٥٢ و ٣٦٤
يوسف بن الأحمر ، (الثانى) ؛ ١١٣ و ١١٤ و ٣٦٧ و ٣٦٨
يوسف المستنصر ؛ ٢٠ و ٢٥ و ٧٢
يوسف بن تاشفين ؛ ١٢ و ١٩ و ٥١
يوسف بن سراج ؛ ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠
يوسف بن كماشة ؛ ١٨٥ و ١٩٩
يوسف بن محمد ؛ ١١٥ و ١١٦ و ١١٧